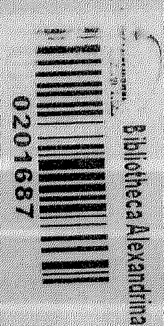
بول روزان

# فرويد وتوسك

توسك

## عَنْ أُصُول عِلْمِ النَّفْسِ التَّحْلِيلي

ترجمة
علي محمّد الجندي




دراسات فكرية (٤٥)

الإشراف الفني زهير الحمو

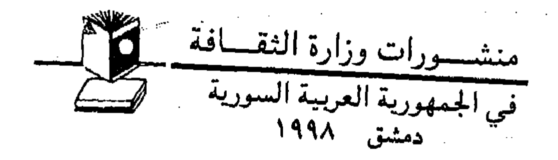
بول روزان

# فرويد وتوسك

## عَنْ أُصُولِ عِلمِ النَّفسِ التَّحليلِي

ترجمة

علي محمّد الجندي



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٨

## العنوان الأصلي للكتاب:

# Brother - Animal

"The Story of Freud and Tausk"

Paul Roazen

First Edition in U.S.A 1969

فرويد وتوسك: عن أصول علم النفس التحليلي = Brother - animal the story of freud and tausk. / بول روزان؛ ترجمة علي محمد الجندي. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨. - ١٨٣ص؛ ٢٤سم (دراسات فكرية؛ ٤٥).

١-١٩٢١: توسك، فيكتور ر ٢-١٩ر١٥٠ روز ف
٣- العنوان ٤- العنوان الموازي ٥- روزان ٦- الجندي ٧- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٩١٩ / ١١ / ١٩٩٨

دراسات فكرية
« ٤٥ »

# تقديم

«الأفكار الثابتة- مثل تشنج عضلة القدم-
خير علاج لها، أن تدوسها- كيركجور»

- بدلاً من اتباع نصيحة سقراط «إعرف نفسك» فضّل الإنسان أن «يتسامى» فوق ذاته ويبحث عن «المعرفة» خارجه (هل هو نوع من التكوين المضاد- البحث عن الخلود- هرباً من إدراكه لشرطه - الفناء؟).

- أما فرويد، فقد واجه ذاته وغاص في عوالمه الداخلية عاكفاً على دراسة أحلامه (الطريق الملكي إلى اللاشعور) بشكل منهجي لعدة سنوات خرج بعدها إلى الناس بكتابه العمدة «تفسير الأحلام» الذي ركز فيه اكتشافه للاشعور والدور الحاسم الذي تلعبه الدوافع الغريزية في توجيه السلوك موجّهاً بذلك ضربة إلى «نرجسية» هذا الكائن لاتقلّ عن تلك التي وجهها دارون عبر نظريته في «ارتقاء الأجناس».

وكما هي العادة إزاء كل اكتشاف عظيم، فقد انقسم الناس إلى صفّين:

- صفّ معادٍ ينفي أية قيمة للاكتشاف.

- وصفّ مؤيد يُضفي هالة القداسة على الاكتشاف وصاحبه.

(هل هي طبيعة البشر؟ وهل نذكر ماقاله هنريك إبسن: «الأقوى هو من يقف وحيداً»؟)

- ولكنْ، لماذا اتجه فرويد الى التحليل النفسي؟ وماهي الدوافع التي

حدت به إلي اختيار هذا الموضوع؟ وكيف انعكست شخصيته في اكتشافاته؟..

إنها بعض الأسئلة التي تتخلل هذا الكتاب الذي يُعيد رؤية مرحلة تاريخية ليست بعيدة على ضوء اكتشافات أبطالها. (إن رؤية الدوافع الكامنة وراء إنجازات شخص مالاتقلل - بل لعلها تعظّم - أهمية إنجازاته، فهل تنتفي قيمة التفكير الفلسفي إذا واكبنا ماركس ونيتشه في كشفهما لما يختفي وراء «تعالي» الفلسفة؟، وهل تتقلص قيمة ليوناردو دافنشي إذا عرفنا ميوله المثلية جنسياً وتعلقه بأمه؟ وهل من داعٍ للتحدث عن «عقدة الدونية Inferiority» الآدلرية؟).

- وإعادة الرؤية مشروعة دوماً بغض النظر عن مدى الاتفاق مع نتائجها فالحقيقة ليست مُعطىً ثابتاً جاهزاً يقف «هناك» بانتظار من يلتقطه. (من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد- حديث شريف).

وحفاظاً على حقّ القارىء في استخلاص مايراه من نتائج، آثرنا عدم التعليق على آراء الكاتب حتى وإن بدت جائرة أحياناً.

-أخيراً، فالكتاب تأريخي بمعنى مايغلُب في بعض فصوله استخدامُ الأفعال المستمرة في الزمن الماضي، وهي صيغة ثقيلة الوقع نسبياً في لغتنا العربية، وقد حاولنا تخفيفها قدر المستطاع مع الحفاظ على أمانة الترجمة. نأمل من القارىء بعض الحلم في تتبع هذا العمل.

**علي محمد الجندي**

**دمشق - نيسان ١٩٩٧**

«.. لقد أدركتُ منذ البداية تماماً أنّ هذا الصراع بالذات- صراع الكائن البشري - داخل تاوسك هو الذي حرّك أعمق مشاعري. الأخ - الحيوان. أنت»

لو أندرياس سالومي

«يوميات فرويد»



## مقدمة: كيف عثرتُ على هذه القصة

في خريف عام ١٩٦٤ بدأت ألتقي وأجري المقابلات مع جميع الأشخاص الباقين على قيد الحياة ممن عرفوا فرويد. كان الأمر في البداية أشبه بحملة لصيد الأسماك(*)، كانت ثقتي ضعيفة بالعثور على هؤلاء الأشخاص أو برغبتهم - في حال عثوري عليهم- بالتحدث إليّ. وبفرض أنهم تحدثوا معي فكيف لي أنْ أعرف أنّ ماذكروه لي ليس موجوداً من قبل في كتاب التاريخ؟

لذلك بدأتُ المشروع وأنا متردد رغم أن مايدفعني إليه ليس فضولاً ثانوياً. لقد أمضيتُ بصحبة أفكار فرويد عدة سنوات خلال التحضير لمخطوطة عن المضامين الأخلاقية والسياسية لأعماله (وقد نُقحت هذه المخطوطة وظهرت مؤخراً تحت عنوان: الفكر السياسي والإجتماعي عند فرويد). وكان من الطبيعي، إذن، أن تثير اهتمامي فكرة الإلتقاء ببعض من هؤلاء الذين ساهموا في صياغة الحياة الفكرية لقرننا الحالي. ولكنني دُهشت - حين التقيت بهم- بمقدار مايمكنهم تقديمه حول تاريخ وشخصيات حلقة فرويد مقارنة مع الكتب التي كنت أعرف تلك المرحلة المبكرة من خلالها. لقد اكتشفت من خلال رؤية المزيد والمزيد من تلاميذ فرويد وأقربائه وأعدائه (والذين كانوا جميعاً يعرفونه كـ «بروفيسور») أنّ الرجل العظيم بدأ يحيا في ذهني - للمرة الأولى - ككائن بشري.

(*) - أقرب تعبير إليه في لغتنا العربية هو «البحث عن حبّة قمح في كومة قش»- المترجم.

إن كان لي أي هدف واضح في البداية، فما هو إلا جمعُ التقليد الشفهي لحلقة فرويد لأنّ مايُعتبر إشاعة (اكذوبة) عند جيلٍ قد يُعتبر تاريخاً (حقيقة) عند الجيل الذي يليه. لقد كان هؤلاء الأشخاص جميعاً كباراً في السن، وفي كل عام يتناقص عدد الباقين منهم على قيد الحياة. إن إتمام هذه الدراسة قد تطلّب مني ثلاثة أعوام أمضيتها في إجراء المقابلات ومن ضمنها القيام بعدة رحلات إلى أوروبا وعدداً أكبر من السفريات في أرجاء أمريكا. قادتني طريقي من مكاتب Park Ave-nue في نيويورك إلى غرف الاستشارة في «شارع هارلي» في لندن ومن قصر في سويسرا الى ڤيللا في الجبال خارج مدينة مكسيكو، وطبعاً من بيت لندن حيث توفي فرويد - وقد أصبح الآن نوعاً من المزار العصري- الى شقة ڤيينا التي عاش فيها فرويد سنوات عديدة (وقد تحولت الآن إلى محل للخياطة).

لقد وُفقت في النهاية الى التحدث مع ماينوف على سبعين شخصاً من الذين عرفوا فرويد إضافة إلى ثلاثين آخرين تقريباً من الذين اشتركوا في تلك الأيام الأولى للتحليل النفسي. أصبح عملي مثل كرة الثلج فما أن ألتقي بأحد الأشخاص حتى يرشدني إلى آخرين، وهكذا قابلتُ خمسة وعشرين شخصاً من مرضى فرويد إضافة إلى ثلاثة من أولاده وشقيقة زوجته وزوجتّي ابنيه وعدداً من أبناء وبنات أخته. في وقت إعداد هذه الدراسة توفي ماينوف على اثنتي عشر من أولئك الأشخاص الذين قابلتهم.

أضعُ هنا قائمة - غير شاملة - بأسماء الأشخاص الذين كانوا كرماء معي فساعدوني بوقتهم وحسن ضيافتهم:

السيدة زوجة كارل ابراهام، الدكتورة الكساندرا آدلر، الدكتور مايكل بالنت، الدكتورة تيريزا بندك، الدكتور أ. ي. بنيت، السير إشعيا بيرلن، السيد إدوارد بيرنز، الآنسة هيلابيرنيز، الدكتور برونوبيتلهايم، الدكتور سمايلي بلانتون، الآنسة بيرتابورنشتاين، الدكتور جون بولبي، الدكتور داڤيد برونسڤيك، البروفيسور مارك برونسڤيك، الدكتورة هيلين دوتيش، الدكتور كيرت آيسلر،

البروفيسور إريك إريكسون وزوجته، السيد إيرنست فيدرن، الدكتور مايكل فوردهام، الدكتور توماس فرنش، السيدة زوجة الكساندر فرويد، الآنسة آنّا فرويد، الدكتور إيستي فرويد، السيد أوليفر فرويد وزوجته، الدكتور إريك فروم، الدكتور ويليم جيلسبي، الدكتور إدوارد غلوفس، السيد جيفري غورر، الدكتور روي غرنيكر، السير الدكتور مارتن غروتيان، الدكتور هانيتس هارتمان، الدكتورة بولا هايمان، السيدة جوديث بيرنزهيلر، الدكتور إيفز هيندريك، السيد ألبرت هيرست، السيدة زوجة إدوارد هيتشمان، الدكتور ويلي هوڤر، الدكتور ريتشارد هوڤمان، السيدة ماتيلدا فرويد هوليتشر، الدكتور أوتو إيساكور، الدكتورة إديث جاكسون، الدكتورة يولاندي ياكوبي، الدكتور روبرت يوكل، السيدة زوجة ايرنست جونز، الدكتور إبرام كاردينر، الدكتورة آني كاتان، البروفيسور كيلسن، السيد م. مسعود خان، الدكتورة ماريانا كرسي، الدكتور إدوارد كرونولد، الدكتورة جين لامبل دوغروت، البروفيسور هارولد لاسڤيل، السيدة إلما لورڤيك، السيدة كاتاليڤي، البروفيسور هاينريش منغ، الدكتور إيمانويل ميلر، الدكتور فرتيزمو يلنهوف، الدكتور روجر موني كيرل، البروفيسور هنري موراي، الدكتور هيرمان نونبرغ، السيدة اوتشسنر، الدكتورة سيلڤيا بانيه، البروفيسور ليونل بنروز، الدكتورة ايرماريتا تبنام، الدكتورة ماريانا. س. بُتْنام. الدكتور ساندور رادو، السيدة بياتا رانك، الدكتورة آني رايش، الدكتور ثيودور رايك، السيدة إيفا روزنڤيلد، الدكتور تشارلز ريكروڤت، السيدة زوجة هانز ساخس، الدكتور فيليب سارازين، الدكتور ريموند سوسير، الدكتورة ميليتا شميد برغ، الدكتور ماكس شور، الدكتور حنا شاغال، الدكتور رينيه سبيش، الدكتور ريتشارد ستيربا، السيد جيمس ستراتشي وزوجته، الدكتور جون سوثرلاند، الدكتور ماريوس تاوسك، الدكتور ڤيكتور هيجوتاوسك، السيدة نادا ماشرا نوتاوسك، الدكتور آلان تايسون، السيدة هيلين فيلتغورت، الدكتور روبرت وايلد، الدكتور ريتشارد ڤاغنر، الدكتور إدوارد ڤايس، الدكتور جورج ڤيلبر وزوجته، الدكتور دونالد و ينيكوت، الدكتورة مارثا ڤولفنشتاسين، السيد ليوناردو وولف.

لقد ارتبط العديد من هؤلاء الأشخاص بعلاقة حميمة مع فرويد، وبعض منهم لم يلتق به إلا مرة واحدة، وبعضهم تقتصر معرفته على الاهتمام ببدايات علم النفس الحديث. أنا مدين لكل هؤلاء لتعاونهم معي.

امتلك هؤلاء الأشخاص - لأنهم مجموعة متماسكة- ذكريات مشتركة عن ماضيهم الثوري إذ شكلوا حينها حركة سرية تصارع الحكمة التقليدية للطب النفسي والحياة الأكاديمية والمعتقدات الأكثر انتشاراً في أيامهم، وهذا ماجعل التغلب على شكوكهم اتجاه شاب قادم من خارجهم لدراستهم مهمة ليست سهلة، لقد قدمت مخطوطتي السابقة عن فرويد بعض العون بالتأكيد، إضافة لاحترامي الواضح لهم لأنهم- باعتبارهم حواريي فرويد- قد شكلوا مجموعة مبدعة حقاً. قادتني تجاربهم أيضاً إلى التفكير بموضوع العلاقة بين التلاميذ وأساتذتهم والطرق التي يتعلم فيها المرء ويتطور، ومنابع الإحباط وكبح الموهبة أيضاً.

بعضهم كان متماهياً مع «المعلم» إلى حد أن الحديث معهم يخلق ذلك الانطباع المرجف عند التواصل مع فرويد نفسه، كانوا يرددون قناعاته وحتى أسلوبه في التعبير عن آرائه. البعض الآخر كانت روحه اللطيفة واللبقة تضفي الوجه الأجمل على كل شيء باعتباره الموقف الأكثر حكمة ضمنهم. في الطرف الآخر الأقصى يقف الأشخاص البذيئون الناقمون اللذين لم يتفوهوا بأية كلمة طيبة بحق أحد، فالطبيب النفسي الذي يحدثك عن عادة البصاق عند فرويد مثلاً، لابدّ أن يتحدث عن كل الأشياء بلسان مُقذع. على كل حال فإن كل من لديه معلومة لابد أن يفيدنا بطريقة ما.

توجّب عليّ الانتباه أيضاً كي لاتخدعني أوهام وتقلبات الذاكرة البشرية حين يتعلق الأمر بالماضي البعيد رغم أن العجوز مضرب المثل في أنه يتذكر الأحداث التي تعود الى خمسين عاماً خلت بدقة تفوق تذكرة لأحداث الأسبوع الماضي لأن ذكريات الأيام الخوالي تملأ الذهن المعمر. لقد تقاعد أغلب هؤلاء الأشخاص - جزئياً على الأقل- ويشعر كبار السن بالحاجة إلى مواجهة حيواتهم وإعادة تقويمها

ووضع الأحداث في نصابها الصحيح أو التكفير عن أخطاء الماضي. يرتبط الشيوخ والشبان - بشكل عام - بهذا الرباط الحاسم: كلاهما ليس لديه مايفقده.

عثرتُ خلال مقابلاتي على موقع ثمين للوثائق: كلّفتْ آنا فرويد- بدعم من عائلتها- ايرنست جونز بأن يكتب سيرة حياة رسمية عن والدها. لقد قبضت «آنا» دائماً بشكل محكم على كل مايتعلق بحياة فرويد وراقبت حتى رسائله المعدّة للنشر، ولذلك تفحصت عمل جونز سطراً تلو آخر إضافة إلى مساعدته بشتى الوسائل التي لديها. ولكنّ جونز توفي بعد إتمام السيرة الخام ثلاثية الأجزاء بفترة قصيرة، ووُضعت أوراقه في خزانة ضخمة في قبو معهد لندن للتحليل النفسي.

بقيت هذه الأوراق ملقاة هناك حتى عثرتُ عليها في صيف عام ١٩٦٥. لقد ألقى بعضهم نظرة سريعة عليها، وحاول البعض الآخر فرزها وتصنيفها، ولكن لم يسبق لأي أحد أن حاول دراستها قطعة قطعة. تحتوي هذه الأوراق على كل التفاصيل التي ساهمت في صياغة السيرة الرسمية لفرويد، ويستطيع المرء من خلالها أن يعرف المصدر الذي استقى منه جونز هذه الكسرة من المعلومات أو تلك. تبدو آراء جونز الخاصة والآراء التي تبادلها مع الأشخاص الذين راسلهم أكثر حيوية وإمتاعاً من تلك الرواية الوقورة التي احتلت السيرة الرسمية ذاتها.

عندما بدأتُ بحثي لم تخطر لي أبداً فكرة الكشف عن الرواية الحبيسة لحياة وموت ڤيكتور تاوسك، مع أنها أكثر القصص التي صادفتها إثارة. ولكنني عندما قررت بعد فترة قصيرة أن أنشر رواية أوسع عند فرويد ومرضاه وتلاميذه اخترتُ أن أفرد كتاباً يَسردُ قصة فرويد وتاوسك لأضمن تذكرها باستمرار.

«لن يخبرك أحد بأي شيء عن تاوسك»، هكذا قيل لي في المرحلة الأولى من مقابلاتي، هذا التحذير هو ماكنت أحتاجه ليثيرني فبدأت أسأل من أقابلهم بشكل منتظم إنْ كانوا يعرفون تاوسك، وماذا يعرفون عنه رغم أنني شخصياً لم أكن أعرف عنه شيئاً حينها. شكك المحللون النفسيون الأكبر سناً بأهمية تاوسك، أمّا المحللون الأفتى فعبّر بعضهم عن اقتناعه بوجود لغز يحيط بتاوسك وأن الأعضاء

الأعلى في حلقة فرويد يستطيعون إضاءة هذا اللغز. جعلني العديد من الأشخاص أحسّ بهالة أسطورية تلفّ تاوسك وشهد الأفراد المطّلعون على أعماله بأهميتها. أخيراً أخبرتني ابنة ألفرد آدلر عرضاً بأنها عرفت ابن تاوسك، وحين اتصلتُ به أرسل لي نسخة من رسالة الانتحار التي وجهها والده إلى فرويد في صبيحة اليوم الذي انتحر فيه في عام ١٩١٩.

لولا التعاون الكامل الذي أبدته عائلة تاوسك (ابناه وأخته الباقية على قيد الحياة والمقربة إليه)، لما أوتي لي أن أفكّ خيوط هذه القصة وأنجح في هذا العمل الكشفي. لقد نجح تاوسك - بغض النظر عن إشكالاته الشخصية- في إثارة حب عائلته وتقديسهم له. ساعدتني أيضاً المحللة النفسية الخاصة لتاوسك، مع أن وجهة نظرها عنه لم تكن شاملة.

لم يكن بمقدور أحد أن يتنبأ بإمكانية إعادة بناء هذه القصة لأنه لم يسبق لأحد أن حاول تجميع هذه النتف مع بعضها. ربما عرف جونز - وهو البعيد عن مسرح الأحداث الڤييني- القليل عن هذه القصة وربما خمن أهمية هذه القصة، ولكنه - على كل حال- لم يلاحق تفاصيلها المشوشة. في سياق تقدمي في المقابلات عن تاريخ التحليل النفسي كانت تمسك حياة تاوسك بي بشدة متزايدة: إنه أول عضو في جمعية ڤيينا للتحليل النفسي يحاول دراسة الذهانات سريرياً في وقت كان اهتمام فرويد شخصياً ينصب على علاج الأشخاص ذوي الاضطرابات الأقل مستوى. قدّم تاوسك بعض المساهمات الخالدة للنظرية التحليل نفسية الحديثة وللطب النفسي. هذه المساهمات تبدو مندغمة في أعمال بعض المفكرين المعاصرين من مثل برونوبيتلهايم واريك اريكسون. ورغم ذلك لم يستطع تاوسك أن يعيش ضمن حلقة فرويد. كان سلاڤياً جريئاً حازت ديناميته ونظراته الجذابة على قلوب سلسلة كاملة من النساء ولكن زواجه انتهى الى الفشل وتحولت علاقاته الغرامية المتوالية إلى كوارث. لقد هُزم هذا الرجل متعدد المواهب - شاعر وكاتب ومحام وطبيب ومحلل نفسي - من خلال احتكاكه مع فرويد.

لقد أُسيء فهم صراع تاوسك مع فرويد في تلك الأيام، ولذلك تمّ إخفاء القصة إخلاصاً للمعلم. إن فهم هذا الصراع وإدراك الأسباب التي جعلته يبقى طي الكتمان طوال هذه الفترة لابد أن تغير الصورة الرسمية Standard لفرويد. يشكل الرجلان زوجاً عجيباً من الأضداد وذلك حسب الدور الذي لعبته نقاط الضعف والقوة في كل منهما على يد الآخر. إن قصة خلافاتهما وانهيار تاوسك يمكن أن تفيد كأداة في إعادة فهم وتحليل شخصية فرويد. اعتقد هنري فورد أن التاريخ عبارة عن سرير Bunk، وبقدر مايتأمل المرء في الطريقة التي نُسي بها تاوسك، بقدر مايكتسب نظرة الشك الصحية حول كل الروايات المكتوبة عن الماضي. عندما انتحر تاوسك ترك وصايا بإتلاف كل أوراقه وهذا ماتطلب يوماً كاملاً حتى تم إحراقها. أراد تاوسك أن يُخمد اسمه، واستجاب التاريخ لرغبته هذه، والآن، بعد خمسين عاماً، ربما تفيد هذه الرواية في إعادته الى الحياة.



# الفصل الأول

## صراع الكائن البشري

-١-

كان ڤيكتور تاوسك Tausk أحد ألمع مؤيدي فرويد الأوائل، ولكن بمقدور التاريخ أن يكون مزاجياً، فرغم كون تاوسك شخصية بارزة بين المحليين النفسيين لمرحلة ماقبل الحرب العالمية الأولى، إلا أنه تم نسيانه منذ تلك الفترة ولم يُذكر إطلاقاً باعتباره جزءاً من ذلك التاريخ. تشكل مأساة تاوسك وثيقة إنسانية مؤثرة غنية كإحدى شخصيات الخيال الروائي، ويكمن الخطر الوحيد في اختصارها إلى عبارات ميلودرامية. دخل تارسك عالم التحليل النفسي في عام ١٩٠٨ وتوفي عام ١٩١٩، وخلال هذه السنوات قدم مساهمات علمية أكيدة قبل أن يقتل نفسه تتويجاً لصراعه المُحبط مع فرويد. اعتُبر تارسك - عندما كان حياً- مشكلةً، ويبقى - بعد موته بخمسين عاماً- لغزاً. لايوجد «حل» لفهم خياة معذبة كما هي حياة تاوسك، ولكننا يمكن أن نميط اللثام عن إشكالاته الداخلية ومساهماته في التحليل النفسي. كان تاوسك يسحر ألباب معاصريه، أما اليوم فلا يعرف اسمه إلا الأطباء النفسيون المهتمون بمقالات التحليل النفسي القديمة. إن الموقع التاريخي الشرعي الذي ناله والطريقة التي انسحق بها أخيراً تبين لنا بشكل حاسم ذلك الموضوع الخالد الذي ينتهي فيه كفاح الإنسان من أجل تحرره إلى تحطمه.

إن أية حادثة انتحار قد تثير فينا الرعب والهلع إضافة إلى الشعور بالإثم الذي تتركه في نفوس من ساهموا بحدوثها. لقد ركزت ردود الفعل العادية - في حالة تاوسك - على كونه طبيباً نفسياً حسن التدريب وأحد ألمع تلاميذ فرويد. توفي تاوسك في الأربعين من عمره، أي وسط أعظم مرحلة إنتاجية لديه. كان يمتلك إمكانيات ضخمة ولايزال يعد بالكثير مقارنة مع قصته التي نشأت بسبب عدم اكتمال حياته، وليس بمقدورنا أن نعرف ماذا كان سيفعل لو عاش بقيتها. في سياق تقدمنا في السن يستعيد كل منا الخيارات العديدة المطروحة أمامه ويعيش حياة واحدة على حساب الحيوات أو الإختيارات الأخرى غير المنسجمة معها. وعندما نتأمل في المسارات البديلة المحتملة لحياته متوقعين حدوث انقطاع آخر في مجراها فإننا نميل إلى تخيل المسارات المتعددة الأخرى التي كان يمكن أن نحياها نحن أيضاً.

إن هذه القصة تعطي بعداً حياً للصراعات الأقدم في حركة التحليل النفسي وتساعدنا على إدراك مغزى تلك الخلافات من وجهة نظر تلاميذ فرويد، إذ لايمكننا الاكتفاء بمعرفة تطور حركة التحليل النفسي من منظور فرويد وردود أفعاله الشخصية على «المرتدين». لقد تمّ - في أغلب الأحيان - تبسيط هذه الخلافات وعزوها فقط إلى إشكالات تلاميذ فرويد. يرتبط الموقع الذي يشغله تاوسك حالياً في التاريخ بكونه أحد عشاق «لو - أندرياس سالومي» Salomi التي ارتبط معها بعلاقة غرامية قصيرة خلال إقامتها في ڤيينا خلال العامين ١٩١٢ - ١٩١٣، ومن المعروف أن الفيلسوف نيتشه قد طلب الزواج منها قبل هذا التاريخ بسنوات عديدة، ثم أنها عاشت علاقة حميمة مع الشاعر ريلكه. انضمت «لو» إلى حلقة فرويد بهدف تعلّم التحليل النفسي، ولأنّ امرأة من طرازها لايمكن أن تقضي وقتها دون علاقة مع شخص ما، وطالما أنها لاتستطيع أن تمتلك فرويد بالذات، فقد شكل تاوسك الذي يمتلك موهبة رفيعة ومكانة خاصة عند فرويد أفضل خيارٍ «ثانٍ». وفي يومياتها عن فرويد يلعب تاوسك دوراً رئيسياً. لقد كتبت سالومي - في الحقيقة - أعمق التعليقات على شخصية تاوسك، ولكن ملاحظاتها عنه لاتصبح مفهومة

مالم يعرف المرء قصته الكاملة إذ يستعصي النفاذ الى نثرها الغامض والضبابي بدون معرفة المادة الخلفية له .

إن الموروث الشفهي عن تاوسك عبارة عن شظايا متناثرة . كان تاوسك - بالنسبة لجيل المحللين الذي انضم بعد الحرب العالمية الأولى - عبقرياً أصابه الإخفاق[١] . نحن لانغفل طبعاً أن أعضاء أية مجموعة يميلون إلى المغالاة في تقدير مواهب شركائهم في المجموعة . (لقد عبّروا - على كل حال- عن ثقتهم بالطاقات الهائلة لتاوسك بدرجات متفاوتة) ، أما بالنسبة لأولئك الذين أصبحوا محللين نفسيين خلال العشرينات والثلاثينات . - وحين كان فرويد لايزال على قيد الحياة - فإن تاوسك يتبدّى كشخص أسطوري من الماضي مات وهو في أوج طاقته . ثمة شائعات وأقاويل عن الطريقة التي مات بها تتجاوز بكثير ماقيل عن الأسباب التي أدت إلي وفاته . لاتتعدى معلومات العديد من هؤلاء المحللين ماسمعوه بأنه قد خصى نفسه[٢] .

لم يستطع أي من المحللين الذين كانت تربطهم علاقة حميمة مع فرويد أثناء انتحار تاوسك أن يفسر كيف تم نسيانه اليوم . لقد تبوأ مكانة ضخمة في تجاربهم الشخصية إلى حد أنهم لايستطيعون التصديق بأن اسمه لايعني شيئاً على الإطلاق حتى بالنسبة لشخص ضليع في التحليل النفسي . لقد تفاخر أحد المحللين القدامى بمعرفته الشخصية لتاوسك وأكد على التقائه به ومعرفته بسيرة حياته كنوع من إضفاء الأهمية على نفسه أمامي باعتباره أحد مصادر المعلومات عن كل تاريخ الحركة .

شكّل انتحار تاوسك صاعقة صدمت أولئك الذين عرفوه شخصياً بحيويته الفائقة وخياله الخصب واهتماماته المتعددة (كان يعيش حياة إنسانية حقاً في أعينهم) ، أما بالنسبة لمن عرفوه رسمياً (مهنياً) فقد اعتبروا انتحاره مفاجأة مستغربة . لقد كتب فرويد بنفسه النعوة الرسمية لتاوسك(*) . كتب فرويد «لايمكن لأحد أن ينجو من الإحساس بأنه إزاء شخص مهم» ، ولكن الحكم النهائي لفرويد يصبح

(*) - سيظهر النصّ الكامل لنعوة فرويد في الفصل الخامس من هذا الكتاب .

ساخراً «إنه بالتأكيد يستحق ذكرى مشرفة في تاريخ حركة التحليل النفسي وصراعاتها الأقدم»[٣]. تشكّل هذه النعوة المكونة من ثلاثة صفحات أطول نعوة كتبها فرويد في حياته. صحيح أن الكمية المجردة للكلمات لاتشير بشكل مؤكد إلى أهمية الشخص في نظر فرويد، ولكنه كتب نعوات أقصر عن شخصيات مشهورة في كتب التاريخ (كارل ابراهام - لو أندرياس سالومي- جوزيف بروير - ساندر فيرنزي)، ومايلفت الانتباه هنا هو أن يختفي شخص بمقام تاوسك من كتب التاريخ[٤] تماماً. لايتحمل أحد مسؤولية حاسمة عن إخفاء الرواية الكاملة لخلافات فرويد وتاوسك. مع ذلك فإنّ رسالة فرويد الموجهة الى «سالومي» بعد وفاة تاوسك قد حُذفت من أعماله بشكل مقصود (ستتعرض لهذا الموضوع فيما بعد). ليس من المستغرب طبعاً أن يعمد أتباع فرويد في ڤيينا الى التكتم على هذه القصة خاصة إذا تذكرنا إجلالهم لفرويد وشعورهم بالذنب تجاه منافس خائب. إنّ الإنتحار حادث مرعب في كل الظروف، ولكن انتحار تاوسك إثر خلافه مع فرويد أعطى إحساساً بواقعية القدرات الخيالية التي عزاها تلاميذ فرويد لقائدهم.

كان الشجار مع فرويد أشد الاحتمالات إثارة للرعب عند تلاميذه لأن الشخص الذي ينبذه فرويد سيخرج من الأقلية المختارة ويموت نفسياً، فصفحة هذا الشخص ستغلق وشمعته ستنطفىء. إنّ وفاة تاوسك تؤكد العواقب الوخيمة للخلاف مع فرويد. من السهل أن نفهم الآن كيف عملت الأحداث على إبقاء حكاية تاوسك في الظلام. لاتعرف عائلة تاوسك أي شيء عن صراعه مع فرويد. لابد أن الموضوع كان مرعباً بالنسبة له مما جعله يتكتم على مسألة بهذه الأهمية في حياته. بعد نصف قرن من الزمن عرفت عائلة تاوسك الخطوط العريضة لهذا الصراع رغم حيازتها لرسائله التي ساعدت، إضافة إلى مااستطعتُ معرفته من خلال مقابلاتي مع أفراد العائلة وزملائه، في إعادة بناء تسلسل زمني للأحداث يمكن الركون إليه.

إن نبش قصة تاوسك من تحت التراب له سحر التعامل مع لغز سريري فالمادة هنا - كما هي عند التعامل مع مريض - تتكشف تدريجياً. أما تقديم هذه المادة

الكشفية للقراء فيتميز أساساً بإشكالية الكتابة عن قصة مرضيّة (Case History)، ولو لم يكن هذا العمل يتعلق بفرويد فلابد أنه كان سيتحمس له لأن الجانب الثوري فيه كان يبحث دوماً عن تفسيرات حية للمعرفة المسلّم بصحتها. وفوق ذلك، فإنها تقلب الحكمة التقليدية وتحلّ اللغز إذ تكشف قصة تاوسك كلّ سيرة حياة فرويد بطريقة إنسانية مُقْنعة.

-٢-

مانقدمه للقارىء ليس سيرة حياة مفصلة لڤيكتور تاوسك بقدر ماهو مراجعة لها من خلال ارتباطها بالتحليل النفسي. فما هي الأحداث المبكرة - في حياة تاوسك- التي أوصلته الى الارتباط بفرويد؟

وُلد ڤيكتور تاوسك في سلوڤاكيا في الثاني عشر من آذار عام ١٨٧٩ في مدينة كانت تدعى تسيلينا Zsilina، ثم انتقل مع عائلته - بعد ميلاده بفترة وجيزة- إلى كرواتيا (التي أصبحت الآن جزءاً من يوغسلاڤيا. ولكنها كانت في ذلك الوقت مقاطعة حدودية في الامبراطورية الهنغارية - النمساوية التي كانت ڤيينا حاضرتها الثقافية.

كان ڤيكتور الأكبرُ بين أخوته التسعة (ستة أخوات وأخيّن). كانت عائلته التي تتحدث الألمانية يهودية نظرياً ولكنها لاتمارس شعائرها الدينية أبداً[٥]. عمل والده هيرمان تاوسك في البداية كمعلم مدرسة ثم أصبح محرراً لصحيفة أسبوعية تصدر في «زغرب»، ويبدو أن هيرمان كان موهوباً ومثقفاً إذ سرعان ماأصبح صحفياً مشهوراً في العالم كله. كتب مدافعاً عن الملكية وحاول إيضاح مشاكل ڤيينا للكرواتيين ومشاكل كرواتيا للڤيينيين (أي سكان ڤيينا). كان هيرمان مغرماً بالمغامرة ولايستطيع أن يعيش على نفس المنوال فترة طويلة، ولذلك انتقل بعائلته الى ساراييڤو حوالي عام ١٩١٢ وأصبح رئيس مكتب النشر في حكومة البوسنا والهرسك (تعتبر البوسنا اليوم جزءاً من يوغسلافيا بعد أن تم أخذها مؤخراً من الأتراك). كان هيرمان صحفياً دائب العمل فإضافة الى واجباته الرسمية عمل محرراً لجريدته الخاصة ومراسلاً لعدة صحف ودوريات أجنبية.

أما «إميلي روث تاوسك» والدة ڤيكتور، فيبدو أنها كانت من النمط الأولّي Archetypal للأم اليهودية المازوشية التي تمنح الآخرين كل مالديها، فردّت على عدوانية - بل وطغيان - زوجها بالتضحية بذاتها وتقديس عائلتها. لم يكن هيرمان مولاً جيداً لعائلته، ولذلك اضطرت زوجته دائماً إلى تقبّل النقود من أمها. ورغم مايقال عن جمال إميلي، فإن خوفها الدائم وطلبات أطفالها جعلاها تعيسة ومتعبة، إضافة إلى أن زوجها لم يكن مخلصاً لها. كان هيرمان شخصاً لايعرف الإستقرار ويحتاج أحياناً الى القيام برحلة في سبيل تهدئة روحه، ورغم ذلك استطاع أن سكون ساحراً وشديد الفتنة في عيون النساء.

كان ڤيكتور - على العموم - عاطفياً ويحترم أمه التي تابعت في السنوات اللاحقة كتاباته في التحليل النفسي. يبدو أن إميلي كانت طيبة القلب بقدر ماكان هيرمان تسلطياً (جمع ڤيكتور قسماً من طباع كل منهما في شخصيته). كانت علاقة ڤيكتور مع والده متوترة وعدائية. كتب ڤيكتور فيما بعد أن إطلاق اسم أبيه عليه سيبقى مصدر تنغيص دائم له. وجد هيرمان - وهو الرجل المجدّ والشعبي - معارضة دائمة له في البيت بقيادة ابنه الأكبر ڤيكتور.

وبغض النظر عن سلوكه الجنسي، كان هيرمان يتمنى الأخلاقية المفرطة من طرف أبنائه. لقد حطّم مثلاً - على أرضية أخلاقيته - خطوبة ابنته الكبرى لشاب وسيم كانت ابنته تحبه وذلك لأن الخاطب - بدافع السخاء واللياقة - كان يعيل طفلاً غير شرعي والده الحقيقي مجهول الهوية. كان هيرمان يحب المشهدية والعواطف ويستخدم طريقته المسرحية لدعم حاجته الخاصة الى السيطرة في بيته. كان يُمسرح أحياناً وضعه المزري بسبب المعاملة الفظة التي يلقاها كعنصر غريب عن عائلته. لقد ترعرع ڤيكتور إذن على نموذج الأب الذي يسيء معاملة زوجته ويعارض - باعتباره موظفاً بوسنياً - الشعور القومي الناشيء بين الشبان تجاه يوغوسلاڤيا.

في المدرسة تعلم ڤيكتور أن يتحدث اللغة الكرواتية الدقيقة رغم أن والدته رفضت تماماً أن تتعلمها، إضافة إلى ذلك درس اللاتينية والإغريقية وأصبح لغوياً بارعاً، وفيما بعد أظهر تمكناً جيداً من الفرنسية والإيطالية. نال إعجاب الطلاب

وأصبح زعيمهم بسبب عدالته وذكائه، تشاجر مرة مع مدرس الديانة الذي تعارضت مبادؤه مع إلحاد ڤكتور، وقبل تخرجه مباشرة تزعم ڤيكتور إضراباً ضد تدريس الدين في المدرسة وبهذا قضى على فرصة حصوله على الشهادة من «ڤارادجين» "Varaždin" . ورغم إصابته بمرض الرئة . كان يخطط لدراسة الطب في جامعة ڤيينا، ولكنّ عجز عائلته عن تحمل تكاليف الدراسة جعله يسجل في أقل الفروع تكلفة وهو كلية الحقوق .

في عام ١٨٩٧ ذهب تاوسك الى ڤيينا، وهناك تعرف إلى مارثا فريش- التي ستصبح زوجته في المستقبل- وهي تمتّ بصلة بعيدة الى اللاهوتي والفيلسوف مارتن بوبر Buber . كان ڤكتور قروياً فجاً حسب المقاييس الڤينية رغم ثقافة عائلته . لقد امتدت علاقته العدائية مع والده لتشمل حماهُ(والد زوجته) المستقبلي - وهو عامل طباعة في ڤيينا، لقد كره أحدهما الآخر بشكل انفعالي .

وقعت مارثا في حب تاوسك رغم اعتراضات عائلتها . لقد كانت - مثل تاوسك- طموحة، وفي تلك الأيام كانت النساء المثقفات قليلات . يبدو أن مارثا شعرت بأن عليها - كمثقفة مؤمنة بالماركسية- أن تحتقر أنوثتها وأن تهمل ملابسها وتحطّ من قيمة الفروق بين الجنسين . كانت رفيعة الثقافة- وإن شابها بعض السمات المسرحية- وأصبحت فيما بعد اشتراكية نشيطة تتحدث وتجادل وتكتب المقالات وتحضرُ المؤتمرات . كانت أكثر صلابة من ڤيكتور ولكن مع إمكانيات أقل على كل حال، لقد أحبت ڤكتور بقوة وحملت منه ثم تزوجا في عام ١٩٠٠ حيث كان في الحادية والعشرين من عمره ومارثا أصغر منه بعامين تقريباً(*) . بعد الزواج عادا سوية إلى يوغسلافيا حيث توفي المولود أثناء الولادة .

في «ساراييڤو» تابع ڤكتور تدريبه كمحامٍ . وعندما ولدت مارثا طفلاً (ماريوس) في عام ١٩٠٢ كان ڤكتور قد حاز لتوه شهادة الدكتوراه في الحقوق،

---

(*) - كانت مارثا مسيحية رغم أن والدها يهودي . لذلك تعمّد تاوسك قبل زواجه بها، ولكنه فيما بعد تابع التعريف بيهوديته، وقلة من الناس يعرفون تحوّله المذهبي(٦) .

وبعد أقل من عامين رزُقا بطفل آخر (ڤكتور هيجو). إن اسمي الطفلين يعبران عن شعور مارثا- وتاوسك الى حدّ ما- حيال فكرة العيش في ساراييڤو. فلم ترغب مارثا في إطلاق أسماء ألمانية على ابنيها خشية تعرضهما للمضايقات أثناء وجودهما في كرواتيا، ولم ترغب أيضاً بتسميتهما أسماء كرواتية لأنها كانت تأمل أن تعود يوماً إلى البلد المتحضر - برأيها-. في تلك الفترة بدأ تاوسك يعمل قاضياً كجزء من تدريبه.

في عام ١٩٠٤ انتقل تاوسك بعائلته الى «موستار» Mostar حيث عمل كمحامٍ مساعد. استمتع تاوسك بالدفاع عن المتهمين المفلسين وخاصة المجرمين. في إحدى القضايا تمّ إلقاء القبض على فتاة مسلمة لأنها قتلت طفلها غير الشرعي. كان ڤيكتور بليغاً في دفاعه عنها إلى حد تبرئتها رغم مطالبة النائب العام بإنزال عقوبة الإعدام بحقها. قال في معرض دفاعه أن الأفكار الرجعية هي المذنبة وأن المفاهيم الخاطئة هي التي أجبرتها على قتل طفلها. في ربيع عام ١٩٠٥ أحرز ڤيكتور مرتبة Stalumagendi التي تسمح له بأن يكون أحد المحامين القلائل كاملي المرتبة. لو أن تاوسك تابع العمل في سلك المحاماة كان سيتم ارساله إلى ديرڤينتا Derventa حيث يمارس مهنة مربحة مادياً.

ولكن بدلاً من ذلك قرر الزوجان أن ينفصلا في نهاية ربيع عام ١٩٠٥. ذهب الزوجان إلى ڤيينا بصحبة الطفلين وهناك حصلت مارثا فيما بعد على عمل «مُحاسِبة» في الشركة التي يعمل بها والدها. أما ڤيكتور فاستقر - مع بداية عام ١٩٠٦ - في برلين. واعتباراً من هذا التاريخ توجد رسائل كثيرة بعثها ڤيكتور الى مارثا التي حافظت عليها بإخلاص حتى وفاتها عام ١٩٥٧. كان يرسل النقود إليها كلما استطاع ويسأل دائماً عن أحوال ولديهما ويؤنبها بقسوة بسبب إخفاق زواجهما.

في إحدى الرسائل خاصة تتجلى مشاعر تاوسك في هذه المرحلة من حياته بشكل مدهش. تبدو الرسالة وكأنها مكتوبة كمدخل الى مذكرات شخصية. كان

تاوسك - وقت كتابتها- في السادسة والعشرين من عمره، متزوج وأب لطفلين. أمضى عدة سنوات في الأقاليم. يتحدث تاوسك في هذه الرسالة المؤرخة بتاريخ ١١/٨/ ١٩٠٥ عن صديق ينتقده بسبب طموحه وعدم استقراره إذ «ليس من حقي أن أتصرف بالطريقة التي أفعلها، فبدلاً من البحث عن ممرات جديدة يجب أن أعيل ولديَّ. سابقاً كان صديقي يعتقد بوجود قانون استثنائي يبيح لي ماأفعله، أما الآن فهو يقول بأن ڤيكتور تاوسك رجل مثلُه كمثل غيره وأن عليه أن يؤدي واجبه. كم أثّرت بي كلماته! إن كان محقاً في كلامه فإن الأمر سيكون رهيباً. ما السبب الذي يجعلني عاجزاً عن المحاولة؟ إنني في الواقع لم أحاول شيئاً في حياتي، لقد حُشرت في قالب مباشرة، وأنا أتذبذب بين الرغبة والواجب. لاأستطيع أن أقلع عن الأمل بأن ماأرغبه - إضافة إلى إمكانياتي الجيدة - سينطلق بي من المرفأ في النهاية. أعرف جميع الإعتراضات ومع ذلك سأحاول». مع انهيار زواجه، تحول تاوسك الى الكتابة. فنشر بعض القصائد Ballads الصربية التي ترجمها إلى الألمانية. كانت مآزقه الشخصية توجه مواهبه جزئياً. كتب، مثلاً، حكاية غجريّة بوسنية بعنوان «حسين بركو» "Husein Brko" نشرتها صحيفة والده. تتحدث هذه القصة الجميلة المتقنة عن رجل ليس له روابط بالآخرين يتحول إلى لص ثم مجرم (إن موضوع الغجر الذين لاوطن لهم ودوافعهم المنفلتة من عقالها بسبب غياب الحياة المنظمة يعكسان قلق ڤيكتور واضطرابه إزاء انهيار زواجه وهجره لوظيفته). في نهاية القصة يُقتل حسين على يد والده.

تعتمد القصة على حادثة قضائية واقعية ولكنها تتنبأ بمصير تاوسك مع فرويد أيضاً. جرّب تاوسك يراعه أيضاً ككاتب مسرحي فكتب مسرحية ولكنها لم تجد طريقها الى خشبة المسرح أبداً.

ورغم وضوح السيرة الذاتية فيها. فإنها أيضاً اختبارٌ لموهبته في الكتابة. انتهى تاوسك من كتابة مسرحيته «الشّفَقَ Twilight» في شهر تموز من عام ١٩٠٥. يترك بطل المسرحية موقعه ويدخل في غياهب المجهول خدمة لذاته الأفضل وللفن.

تتميز المسرحية بسمة التعامل الجدّي مع الذات وفقاً للتقليد الألماني الرفيع. بطل المسرحية «ڤولفغانغ Wolfgang» في عمر تاوسك وله ولدان أيضاً تشجعه زوجته في المسرحية - وربما في حياته الواقعية أيضاً- على الاعتقاد بأنه رجل غير عادي وأن عليه أن يفارق «الجماعة» خدمة لموهبته.

يعلن ڤولفغانغ «يجب أن أستخرج ذاتي الأفضل قبل أن يفوت الوقت» وهو «لايجرؤ على فعل شيء لأن كل شيء يتحرك وفقاً لقوة دفعه الخاصة» ويلوم والده لأنه يعتبر اهتمامه الفني مجرد تسلية وهو يعاني من نقص التوجيه من جهة، وسوئه من جهة أخرى. «لقد وجهوني الى هذه الوظيفة التي لم أحبها أبداً لأنها يمكن أن تؤمن العيش في وقت أقصر». يتعارض كفاح ڤولفغانغ لإيجاد ذاته مع إحساسه الغلاّب بالواجب، وفي النهاية يهجر عائلته وهو يائس يعتصر يديه.

تحيط به في حياته البوهيمية الجديدة مجموعةٌ من الرجال والنساء المعجبين به، ولكنّ إيمانهم بمواهبه لايخفف من شعوره بالذنب، ويُعاقَب ڤولفغانغ بقسوة جزاء نفحة الحرية التي يمتلكها، والملفت للنظر أن هذه العقوبة تتم عن طريق الكارثة التي يسببها للآخرين إذ ينتحر الشقيق الأصغر لزوجته تحت تأثير إيمانه النهليستي بلا جدوى الحياة، ويموت ولداه بمرض السلّ. رغم كل ذلك ينجح ڤولفغانغ في إحراز نصر من يأسه بكتابته لمسرحية تعيد سرد مأساة زواجه. وهذا ما منحه بعض التحقق والتبرير حتى في لحظة موته بمرض السلّ أيضاً.

هذه المواضيع تعكس الإهتمامات الأكثر مباشرة لتاوسك، وخاصة شعوره بالذنب، وهذا مايفسّر لنا السبب الذي جعل المسرحية مملّة الى هذا الحدّ فڤولفغانغ مستغرق في إشكالاته الذاتية الى درجة تجعل من الصعب أن نصدّق أن الشخصيات الأخرى في المسرحية قد تهتم بالإصغاء إليه.

في برلين، نجح تاوسك في أن يباشر بالحياة التي كان يتوق لها مستخدماً مواهبه المتعددة: كتب الشعر وعزف على الكمان ورسم لوحات الغجر وأخرج المسرحيات. إذن فثمة مايبرر له طموحه إلى أن يكون مبدعاً شاملاً. ولكن

ضرورات العيش أجبرته على العمل في الصحافة التي اعتبرها حطاً من قدره. ونلحظ في جميع رسائله الموجهة إلى مارثا من ڤيينا جهوده من أجل اكتساب النقود وتوقه للعمل الإبداعي واهتمامه بولديه. ورغم الأذى الذي ألحقه في صميمها، فإن مارثا لم تحرّض أبداً ولديها ضد أبيهما، وبغض النظر عن درجة تذمرها أو شعورها الخاص بالفشل كإمرأة، فإنها في أعماق قلبها قد أحبت ڤيكتور حتى نهاية حياتها.

-٣-

لقد تغير مجرى حياة ڤيكتور تماماً قبل اكتمال تدربّه للعمل كمحامٍ، ومن المشكوك فيه أنه كان بحاجة إلى مثل هذه القطيعة الجذرية مع ماضيه، إذ أنه -بالتأكيد- لم يستنفذ كامل إمكاناته في المهنة التي استعدّ لها، ولكن المحاماة كانت بالنسبة لتاوسك مجرّد أقصر الطرق وأقل الدراسات الأكاديمية تكلفة لنيل لقب رسميّ. ولأن النقود ولاتشكل سبباً كافياً يرضيه، فقد عبّر عن تذمّره من الدفاع عن الأوغاد. فيما بعد، عبّر تاوسك عن عدم رغبته في أن يكون موظفاً في محكمة. كان فتياً وموهوباً دفعه طموحه الى الشعور بالخيبة تجاه حياة المحامي رغم أنه ألفى نفسه يصارع من أجل البقاء في بداية حياته في برلين. لقد كتب المراجعات النقدية وصفرّ في المقاهي وعانى دوماً من مصاعب مالية.

إن كتابة رسائل الآخرين قد تكون شكلاً ممتعاً من أشكال التطفل، ولكن قراءة رسائل تاوسك إلى مارثا في ڤيينا لاتزال مؤلمة حتى بعد مرور كل هذه السنين، وتلقي إحدى الرسائل الضوء على موضوع فشل زواجه وارتباطه اللاحق مع فرويد. يتذمر ڤولفغانغ في مسرحية «الشّفَق» لأن حبّ زوجته له يشكّل عبأً عليه. لاتكمن مشكلة تاوسك فقط في أنه خدع ذاته الحقيقية عندما أصبح محامياً وأنه أساء التصرف بسبب كرهه لنفسه بل أيضاً في أنه لم يكن قادراً على التسامح تجاه حبّ زوجته التبَعي. لم تكن مارثا - بالنسبة لڤيكتور- مكتفية ذاتياً إلى الحدّ الذي يجعله مرتاحاً معها.

«أنا لاأحب إلاّ الأشخاص الأحرار المستقلين عني لأن التابعين لي يجعلونني تابعاً لهم فأنتقم لنفسي وأصبح مذنباً تجاه الذين قدّموا الخير كي. إن الشعور بالذنب يلتهم رأس المال لأنه يحمل فائدة سالبة بأبعاد لانهائية إذا أراد المرء أن يفي ديونه، ولايستطيع المرء أن يبقى مفلساً جُلّ الوقت - على كل حال لقد فقدت جلّ رصيدي مؤخراً. أرغب في صعود طريقي حسبما تشاء طبيعتي ودون تعزيز الطموحات الزائفة والمشاعر المبهمة، وبهذه الطريقة فقط أصبح قادراً على كسب رأسمال أخلاقي، والطريقة التي أعيش بها حالياً هي الأفضل لتحقيق هذا الغرض: مستقلّ لأن لاأحد يعتمدُ عليّ، لستُ عبداً لأنني لست سيداً»(*).

لقد أدرك تاوسك العنصر الهدّام في قدرته الفائقة على الحب: بقدر مايحب بقدر ماتزداد تبعيته ويصبح- وفق المنطق الغريب لعواطفه - أكثر قسوة. ولعلّ طيبة قلبه وإخلاصه ووفائه خلال حياته التي قدّمها للآخرين كانت ردّة فعلٍ على ذلك الجانب العدواني فيه، ولكنه ماأن يلاحظ فجأة درجة العبودية التي وصل إليها في علاقته بالآخرين حتى يحطّم هذه العلاقة لتبدأ الحلقة بأكملها مرة أخرى مع شخص آخر.

وباستثناء رثائه لنفسه، فإن أغلب رسائله البرلينية أقلّ إفصاحاً عن شخصيته، ولكن لو أن حاله فعلاً لم تكن تستدعي إلا الرثاء - كما هي حال ڤولفغانغ في «الشفق» لما استطاع أولاً أن يفوز بحب مارثا ولما استطاع إيقاظ الحب العميق والإخلاص في قلوب العديد من النساء الجميلات والموهوبات خلال حياته، ولعله كان في شكواه لمارثا وإخبارها بأسوأ عذاباته يلقي باللائمة عليها بشكل لاشعوري، وثمة دافع آخر يحدوه إلى هذا أيضاً إذ أنه كان يعيش علاقة غرامية سعيدة جداً خلال إقامته في برلين- وسنتعرض لهذه العلاقة فيما بعد- ويصعب عليه أن يعبّر لمارثا عن الجوانب الأسعد في حياته الجديدة طالما أنه هجرها، كان يخفف من شعوره بالذنب تجاهها عن طريق إخفاء تمتعه بحياته، فيبدو وكأنه- بمظهره البائس المحطم- غير مقصّر في منحها كل مابمقدوره.

---

(*) - ١/٣/١٩٠٦.

كتب لمارثا في اليوم التالي لعيد ميلاده السابع والعشرين: «قلبي متعب إلى حدّ أنني قد لاأبقى في هذا العالم(*)، إنه يستنجد بحبها عن طريق عرض معاناته ويكفّر عن ذنبه بذلك أيضاً. ولاننسى صعوبة تمييز مشاعر الكآبة الحقيقية عن الجو الرومانسي العام. ورغم أنه كتب أحياناً عن بعض الأشياء السعيدة في حياته كالموسيقى والرسم إلا أنه عبّر غالباً عن مشاعر الوحدة والإكتئاب التي يعانيها «أنا وحيد تماماً وعاجز عن التواصل مع الآخرين، ونظراً لأنني رجل اجتماعي بامتياز فإنني أفتقد الروافع لشعوري تجاه شخصيتي(**).

تراجعت صحة تاوسك في برلين تدريجياً. كان يتوق لزيارة شاطىء «دلماسي»(***) المشمس الذي ذهب إليه مرة لعلاج رئتيه. وقد حصل على مكان مجاني في مصح ألماني Ahrweiler on The Rhine. مقابل وعدٍ بأن يكتب بضعة مقالات تشجيعية عنه. في ١٩ أيلول ١٩٠٧ أعلن لمارثا عن نيته بإجراء «تنقية وتقوية جسدية وعقلية». (وكان المصحّ عبارة عن عيادة خاصة لمعالجة الأمراض الفيزيولوجية والعصبية وليس مأوى للمجانين كما قد يفهم الأمريكي من هذه الكلمة حالياً). أوضح تاوسك لزوجته أنه يعاني - عدا انتكاس مرضه الرئوي - من الإرهاق ونقص التركيز، ولكنه كان يأمل رغم ذلك أن يكتب شيئاً رائعاً خلال فترة علاجه.

في ٢٧ أيلول أجرى فحصه الطبي الأول وشخّص له الأطباء أنه يعاني من الإنهاك الفيزيولوجي والذهني وأن لديه استعداداً وراثياً للأمراض السيكوباتية. وبغض النظر عن معنى هذا التشخيص فقد سارع لإعلام زوجته بأن حياته غير معرضة للخطر. «إن النقود والبهجة والنجاح تساعدني في محنتي. قلبي مضطرب ورئتيّ تعانيان من نزلة صدرية... يجب أن أمتلك ذهناً صافياً وأسيطر على أعصابي حتى أستطيع أن أعطي شكلاً معيناً لحياتي»(+).

---

(*) - ١٣/٣/١٩٠٦.

(**) - ٢٠/٣/١٩٠٦.

(***) - منطقة في غربي يوغوسلافيا.

(+) - ٢٧/٩/١٩٩٦.

ورغم اضطراب ذهنه، كان واثقاً من عودة إحساسه بالسيطرة عليه، ولكن المفاجيء أن حالته قد تدهورت بسرعة. وكما في رواية «توماس مان» فإن صحته تعتلّ تماماً عندما ينشد تحسينها على «جبل سحري». لقد تحركت مشاعر الذنب فيه وتحولت ساديته الى المازوشية وانزلق في مرحلة الإكتئاب. كتب لمارثا بعد يومين من تعرضه للفحص الطبي «يمكن للمرء أن يكون أكثر وحدة حتى من الوحدة نفسها»، وبدأت تظهر عليه إمارات اليأس من إيجاد طريق للخروج من محنته، وخشي من أن حالته ستسوء إن لم يجد بعض العون من «بعض الكائنات البشرية الحكيمة والطيبة والطبيعية عقلياً». كان يطلب «النجاة» في طريقة للحياة تجعل «القلب أغنى لأنك تؤدي يومياً واجبات الحب تجاه الكائنات البشرية المبدعة واللطيفة». كان يئنّ باحثاً عن وظيفة وبيت لايمتلك أياً منهما.

في اليوم التالي أحسّ بأن حالته تزداد سوءاً ولكنها – طب نفسياً– لم تكن سيئة الى الحد الذي يمنعه من التعبير عن مشاكله لزوجته فكتب لها بشكل رائع ككاتب يصف لشخص غير مختص معنى حالة عدم العمل: (إن الاكتئاب يشحذ التنبه الذاتي بشكل مميز وهذا بالضبط مايجعل مراقبة هذا المرض عملاً شديد الإيلام». ورسالته صرخة في الافتخار بالذات أبعد غوراً من صرخة رجل يتخيل أنه نابليون. كان العالم الداخلي لتاوسك مضطرباً وكان يتأرجح على حافة هاوية:

«إنني أتمشى وأحاول أن أحس بالطبيعة من جديد. لقد طرأت عليّ تغيرات غريبة في الأشهر العشرين التي قضيتُها في برلين: لقد فقدت الإحساس بالطبيعة. إنني معتلّ روحياً بطريقة تستعصي على الشفاء. يبدو لي وكأن كل ماضيّ لم يكن إلا تحضيراً لهذا الانهيار المرعب في شخصيتي. ورغم عدم اقتناعي سابقاً بقوة رابطة الدم فأنا أعتقد حالياً أن الكائن البشري ينال قَدَره من والديه. مع ذلك لازلت أكافح وأحاول أن أصبح قوياً ومستقلاً من جديد ولكنني أتلمّس طريقي في الظلام... يحتاج المرء إلى مرشد. أخبرني الطبيب: «إن أمثالك من الناس ينجحون ويتألقون في ظل الوضع العادي والمأمون فهم مفيدون ويشكلون بهجة لأنفسهم وللآخرين، ولكن إذا انتزع الأساس الذي اعتادوا عليه فإنهم – ببساطة–

ينهارون». عدم التلاؤم الوراثي مع الحياة. . . في الليلة الماضي كان ذهني صافياً وخصباً فكتبتُ خمس عشرة صفحة حول ميتافيزيقا فنّ التمثيل، ولكنني لاأستطيع العمل بشكل متواصل إذ تلعب الأعْصَبَةُ دورها ويتعب ذهني. مع ذلك فصحتي تتحسن من كل النواحي، لوني جيد ويزداد وزني. كيف حال الولدين؟ أنا تعيس. كل شيء يتوقف على النقود: السعادة والحياة».

في بقية ذلك اليوم تحسنت حالته الروحية فأضاف الى الرسالة ذاتها:

«النورستانيّ الحقيقي أصبح صافي الذهن عند المساء. لقد قمتُ بمشوار رائع في الجوّ الليلي. إن الريف جميل بطريقة تعصى على الوصف. الأطباء فقط لهم وجوه ذكية، أما المرضى فيبدون كالجرذان والبغال المسمومة. تلك الوجوه المحطمة الى حدٍّ فظيع. أنا لاأتناول أية عقاقير، فقط آخذ حماماً في العاشرة ليلاً لمكافحة الأرق دون تحسُّنٍ يُذكر حتى الآن. إنني بشكل رئيسي أخرج للتمشي وأشرب الحليب. وصف لي الأطباء معدل ليتر ونصف يومياً، وإضافة إليه أتناول ليتراً آخر في مطاعم مختلفة أثناء مشاويري كنوع من الإجتهاد الخاص. إنني أخشى من كتابة المقالات. رئتيّ تتحسنان. إنني أسعل طوال الأسابيع الستة الأخيرة في تنافس مع ولديّ. طلب مني الطبيب أن لاأكتب مثل هذه الرسائل الطويلة. لقد طلب مني أن أكون كسولاً»(*).

لابد أن الأيام القليلة التالية كانت مؤلمة بالنسبة لتاوسك الذي ظهرت عليه الأعراض الكلاسيكية للإكتئاب: تأنيب الذات واضطرابات النوم المترافقة مع الخوف من الإجداب. كان يأكل نفسه عبر الحزن، ولم يستطع أن يكتب شيئاً لمارثا خلال عدة أيام، وفي الرابع من تشرين أول أخبرها ببقائه طريح الفراش لمدة يومين:

«دماغي مضطرب تماماً وأعاني من إنهاك فيزيولوجي وعقليّ إلى درجة جعلتني عاجزاً عن القيام بأبسط الأعمال. لم أنل كفايتي من النوم طوال أشهر.

---

(*) - ١٩٠٧/٩/٣٠.

منذ وجودي هنا لم أعرف معنى النوم. لقد أخذت اليوم أدوية منوّمة لأن المعالجة المائية لم تنفع. سأفعل مابوسعي بالتأكيد. أنا عاجز تماماً ووحيد إلى حد أنني لاأعرف ماذا سآكل عندما أعود الى برلين».

وفي سياق كلامه تحدث عن فرصة لعمل جيد الأجر في صحيفة في هانوڤر لو لا أنه يشعر بعجزه عن العمل وهذا «الأمر فظيع. لقد دُمرت تماماً». مع حلول التاسع من تشرين الأول كان لايزال شديد الاضطراب ورغم ذلك أبدى فائق حنانه تجاه ولديه الصغيرين:

«ينقشع المرض بالتدريج: الأفكار القهرية والاكتئاب العميق والضغط في رأسي والتعب، أجل التعب. إنني أحتاج لستة أشهر من العلاج على الأقل كي أقف على قدميّ من جديد. ياله من عام! خططٌ يائسة [للذهاب في رحلة الى يوغوسلافيا]. كل شيء فيّ مريض ولامرشد».

بقدر ماكان انهيار تاوسك مفاجئاً وغير متوقع كذلك كان شفاؤه سرعة وتلقائية. استمرت الفترة الأسوأ في مرضه مدة أسبوعين تقريباً وبقي في المصح أكثر من ثلاثة أسابيع بقليل. في الحادي عشر من تشرين الأول كتب لمارثا عن مغادرته للفراش: «إنني أتحسّن، ولم يبق سوى ملاحظة إن كان اكتئابي دورياً ومستمراً. يعتقد الأطباء بأن نوبات الاكتئاب ستتكرر. توقفت في هذه الفترة عن تناول الأدوية المنوّمة». ورغم أنه لازال يشعر بالإنهاك والإضطراب فإن رسائله تتحدث عن تماثله للشفاء. في الثاني والعشرين من تشرين أول ١٩٠٧ غادر تاوسك المصح.

هذه الرسائل تبين طبيعة إشكالات تاوسك. لقد انهار بسبب مرضه الفيزيولوجي وهياجه الداخلي العنيف في الأعوام السابقة. توثق هذه الرسائل لإحساسه بالفشل والعجز وخجله من عدم قدرته على الإعتناء بأطفاله. وقد عذبته انفعالاته الاكتئابية من جديد دون الوهن السابق وأحسّ بأنه «سيتحول إلى نتف» إذا لم يجد عملاً في الحال حتى ولو في ڤيينا. كتب لمارثا من برلين خلال الشهر التالي

أنه لايجد «الشجاعة للتفكير بالمستقبل بشكل حقيقي. من الأفضل أن أعيش بطريقة تمحو آثار الماضي كما فعلت دوماً مع جميع مستقبلاتي المجنونة»(+). أحسّ بأنه «كائن بشري غارق.. عاجز فيزيولوجياً وعقلياً ومالياً.. بدلاً من أن تشكلني الحياة فهي تسحقني. إنني كتلة كريهة عاجزة ومتعبة حتى الموت. لقد أخذت كفايتي من هذه الحياة»(*).

حين قال تاوسك هذا الكلام كان في الثامنة والعشرين من عمره فقط. غالباً يعيش الشخص الأصيل تناقضات وقلقاً يفوقان المستوى العادي إحصائياً، وبالنسبة لشابٍّ حسّاس وموهوب لم يعثر على العمل الذي يحقق به ذاته رغم أنه محامٍ وصحفي متمكّن فلابد أن يشعر بالإحباط الشديد. في أغلب الحالات يتم تقبّل الآلام والمعاناة العظيمة باعتبارها ضريبة الإبداع. إن حياةتاوسك في برلين قد تركته محطماً منهكاً، وبغض النظر عن صعوبة الكفاح الذي خاضه فإنه لم يستطع أن يرتفع فوق مستوى الوجود الأشد خطراً. ورغم هذه الفترة من التبخيس الشديد للذات فإن ثقته بنفسه لم تتزعزع الى حدٍّ يجعل طموحاته تقبل بالاستسلام.

كان تاوسك شجاعاً واستطاع أن ينتشل نفسه من هذا الإنهيار المرعب وجرّب حياة جديدة. لقد تحول - بسبب بؤسه- إلى فرويد والتحليل النفسي. وقبل ذهابه إلى ڤيينا قام برحلة إلى إيطاليا، وتسجل رسالة متوهجة بعث بها إلى مارثا شفاءه التام(**). كان ينشد أن يجد عند فرويد كل التوجيه الذي ينقصه بشكل موجع. وحسب شقيقته الصغرى فإن تاوسك قد ذهب إلى ڤيينا استجابة لرسالة وجهها له فرويد مع مقالة. كان فرويد - معتقداً أن تاوسك دكتور في الطب- قد شجعه على القدوم إلى ڤيينا لدراسة التحليل النفسي. ورغم التحسن الكبير الذي طرأ على حياته خلال السنوات التالية، فإن تعاسته العميقة السابقة توضح مقدار الخوف الذي عاناه من انهيار الحياة الجديدة الذي شرع في بنائها.

---

(+) - ١٠/١ت/١٩٠٧.
(*) - ٢٩/٩/١٩٠٧.
(**) - ١٩/٩/١٩٠٨.

كانت مارثا تمر بمرحلة عصيبة رغم تقاضيها دخلاً محدوداً مضموناً من عملها في شركة والدها، وقد استمر ابنا تاوسك بالنمو. في خريف ١٩٠٨ قدم تاوسك إلي ڤيينا لدراسة الطب وقد خطط ليصبح محللاً نفسياً وصحفياً في إحدى صحف ڤيينا أثناء الدراسة. وقبل أن يبدأ من الصفر مرة أخرى، قرّر تاوسك أن يضع حداً لجزء من حياته السابقة: فرغم أنه ومارثا قد انفصلا منذ شهر تشرين أول ١٩٠٥ فإن طلاقهما الرسمي قد جرى عند عودته إلى ڤيينا في شهر تشرين أول ١٩٠٨.

-٤-

إن المنظور التاريخي ضروري لإدراك معنى أن يصبح المرء محللاً نفسياً في عام ١٩٠٩. فخلافاً للوضع الراهن في الولايات المتحدة حيث التحليل النفسي مقبول من أوساط واسعة، لم يكن هذا الحقل يشكل مهنة متميزة في ذلك الوقت، كان على الناس أن يصلوا إليه عبر تفحصهم لذواتهم وتفانيهم. كان فرويد قد تجاوز مرحلة العزلة القصوى وبدأ الطلاب يتجمعون حوله. فيما بعد اعتبر فرويد أن نقطة التحول قد حدثت في عام ١٩٠٦ أو ١٩٠٧(٧). وحتى لو وافقنا على كلام فرويد، فإن عدد أعضاء جمعية ڤيينا للتحليل النفسي لم يكن يتجاوز ثمانية وعشرين عضواً في عام ١٩٠٩، ونادراً ما تجاوز حضور الاجتماعات ثمانية أو عشرة أعضاء. إن المظهر اللاشخصي لكلمة «التحليل النفسي» كان يعني - في الواقع- فرويد شخصياً، وكانت دراسة هذا الحقل - وخاصة في ڤيينا- أمراً مستبعداً بدون بعض التشجيع الشخصي من فرويد نفسه. في الحقيقة، لم يكن رأي فرويد شديد الإيجابية تجاه مجموعته القديمة في ڤيينا وقد اشتكى من أنه كان عليه أن «يحمل صليباً ثقيلاً مع الجيل الأقدم»(٨) من المحللين النفسيين الڤيينيين ولكن- كما أوضح في عام ١٩١٤ «كان عليّ أن أتسامح مع الأعضاء الذين يجب أن أعترض على وجودهم في ظروف أخرى نظراً للشجاعة التي أبدوها من خلال تفانيهم في خدمة قضية يُنظر إليها بتجهم ولاتُعقد الآمال عليها»(٩).

حاز تاوسك على الدعم الشخصي من فرويد وقدّم بقية أعضاء جمعية ڤيينا للتحليل النفسي مابوسعهم لتسهيل طريقه. لقد اكتشفوا مباشرة إمكاناته المتفوقة.

ومع فوائد إدراكه المتأخر، قد يبدو اختياره لأن يصبح محللاً نفسياً عملية مؤقتة لإنقاذ حياته، ولكن هذا الاختيار كان ثمرة طبيعية أيضاً لمواهبه واهتماماته. امتلك تاوسك دوماً الموهبة التحليلنفسية لمتفهم بالولادة. إن الأشخاص الذين لديهم نزوع نحو الهوس الإكتئابي يمتلكون القدرة على التواصل الممتاز مع الكائنات البشرية الأخرى.

كان تشجيع فرويد لتاوسك في ذلك الحين شديد الأهمية، فإضافة إلى إرسال المرضى إليه كان فرويد يساعده مباشرة بقروض من المال، وفي هذا المجال كان فرويد شهماً بطريقة مميزة ويعيش حياة معتدلة تماماً. لقد منح النقود في أوقات مختلفة إلى لوأندرياس سالومي وثيودور رايك وأوتو رانك وهانز ساخس إضافة إلى مريضه المفضل «الرجل الذئب» ولاشك أن هناك أشخاصاً آخرين. كان فرويد يستخدم النقود بطريقة لاشخصية خدمة للقضية. لانعرف بالضبط المبالغ التي قدمها فرويد لتاوسك ولكننا نعرف أن أربعة من تلاميذه في ڤيينا (هيتشمان، شتاينر، جيكلز، فيدرن) قد منحوا تاوسك أربعة آلاف كرون (وهو مايعادل ثمانمائة دولار في ذلك الوقت). مع نهاية ١٩٠٩ كتب تاوسك لزوجته السابقة أن فرويد أرسل له مؤخراً مائة وخمسين كروناً ولكن المبلغ لايكفي لتغطية عطلته التي خطط لها: «فقط فرويد والله يعرفان ماقد يحدث معي الآن».

لم يكن تاوسك متفرداً بين تلاميذ فرويد في تركه لمهنته السابقة وتحوله نحو التحليل النفسي. لقد توجه الجيل الأقدم من المحللين النفسيين إلى فرويد - على نحو نمطي - بشجاعة الخارج من محنته السابقة المحبطة أو الفاشلة. لقد شجع فرويد، مثلاً، كلاً من ساخس (محامٍ) ورايك (طالب دراسات) على ترك حقليهما السابقين وممارسة التحليل النفسي من أجل فهم نظريته.

كانت مهنة التحليل النفسي تنطوي على المخاطرة، ومع دعم فرويد وحلقته يمكن أن يعوّل - على الأقل - على بضعة مرضى يتم إرسالهم إليه بشكل منتظم. والغريب أن دخل المحلل حتى يومنا هذا أكثر أماناً في مدينة يتواجد فيها خمسة عشر

محللاً نفسياً آخر منه في مدينة فيها إثنين أو ثلاثة منهم. ومع بداية رسوخ التحليل النفسي تألقت آفاقه كمنهة خصوصاً لأنه - خلافاً للعديد من المهن الأخرى- يمكن ممارسته في أي مكان.

تحول تاوسك بسرعة استثنائية من مريض يعاني إشكالات وجدانية خاصة - ولو لفترة قصيرة- إلى معالج للآخرين. إن أخيولة التحول إلى معالج لابدّ أن تداعب رأس جميع المرضى النفسيين الذين يمتلكون حداً أدنى من الذكاء. وحتى في أيامنا هذه، فإن الطب النفسي كحقل للدراسة أميل لأن يجتذب أولئك المشغولين بأنفسهم. ولكن ملاحظة ارتباط فرويد بهذا الموضوع في تلك الأيام المبكرة للتحليل النفسي كان يتطلب أن يصطرع المرء مع نفسه مستخفاً بحواجز الجماعة.

اختار تاوسك التغيير الجديد في حياته في ظل ظروف شخصية صعبة جداً، فقد كان يشعر دوماً بواجبه في مساعدة مارثا وولديه بشتى الوسائل الممكنة. قد يبدو أن تاوسك - بقراره دراسة الطب- جعل حياته صعبة دون مبرر. فلو بررّنا له رغبته في أن يصبح محللاً نفسياً، أليس في رغبته أن يصبح طبيباً عباً فائقاً لامعنى له؟، قد يكون الجواب على هذا السؤال: لا. فرغم أن فرويد كتب فيما بعد مقالة يؤكد فيها ملاءمة الأشخاص العاديين لممارسة التحليل النفسي، إلا أن كتاباته السابقة لسنوات الحرب العالمية الأولى قد افترضت بأن على المحللين النفسيين أن يكونوا أطباء أيضاً[١٠]. كان فرويد - بالتأكيد- يضمر رغبة قوية بالانتصار ضمن العالم الطبي، ولو أتيح لأحد المريدين أن يجلب معه احترام مهنة الطب- وخاصة الطب النفسي في المشافي- فإنه سيكون أكثر فائدة لتقدم التحليل النفسي. من المؤكد أن بعض أتباع فرويد قبل الحرب العالمية الأولى قد أصبحوا أطباء بهدف ممارسة التحليل النفسي[١١].

احتوت الحلقة المحيطة بفرويد عدداً من طلاب الآداب والعلوم الإنسانية يوازي تقريباً عدد الجماعة الطبية. ورغم أن غير الأطباء كانوا أشخاصاً من طراز رفيع المستوى ويعتبرون تعاليم فرويد بمثابة وحي لهم، إلا أن أياً منهم لم يمارس

التحليل النفسي في تلك الفترة، أما الأطباء فكانوا يفضلون أن يكونوا أطباء عامّين أو داخلية على أن يكونوا أطباء نفسيين مدرَّبين، بينما تعامل أطباء الأعصاب- كفرويد مثلاً- مع مرضى متنقلين (غير مقيمين في المشافي) غالباً.

في تلك الحقبة، اختص أطباء الأمراض العصبية في ڤيينا بدراسة علاقة اختلالات الإحساس بالحركة والناتجة عن التلف أو الأذى أو أي إصابة أخرى تصيب الدماغ أو الحبل الشوكي أو الجذور العصبية. ويكمن الاكتشاف الأكبر لفرويد- وهو مايشكل المساهمة المركزية للتحليل النفسي- في دراسة حقل الاضطرابات ذات المنشأ النفسي أي تلك التناذُرات في السلوك غير المتلائم الذي لاترجع أسبابه إلى علل في الدماغ أو الحبل الشوكي. لقد انطلق فرويد - كمحلل نفسي- نحو فهم أشمل قوانين التوظيف الذهني.

باختياره لأن يصبح طبيباً، ربما كان تاوسك يتصور منذ البداية أن يكون له دور خاص به، لأنه - خلافاً لفرويد وجل أتباعه من الوسط الطبي - قد اختار أن يكون طبيباً نفسياً، وجدير بالذكر أن تجربة المحللين النفسيين في تلك الأيام- بما فيهم فرويد نفسه- مع المرضى العقليين المقيمين في المشافي كانت محدودة لأنهم كانوا يُعرضون على الأطباء النفسيين فقط. قد تبدو هذه النقطة مبهمة في المنظور الأمريكي المعاصر حيث المحللون النفسيون- علاوة على كونهم أقلية منظمة- هم أطباء نفسيون أولاً مع شهادات طبية كاملة، ولكن الانفصال القديم بين الأطباء والمحللين النفسيين لازال منتشراً اليوم في معظم أوروبا. في انكلترا، مثلاً، ثلث المحللين النفسيين ليسوا أطباء، وحتى الأطباء بينهم لهم منزلة محدودة- على العموم- في الطب النفسي. ويجب أن نشدد على الخليج الفاصل بين الطب النفسي (مع اهتمامه بالأمراض الذهانية) والتحليل النفسي (الذي يتعامل مع المرض الأبسط) حتى ندرك مجال طموحات تاوسك ومآثره إذ تشكل دراساته السريرية للفصام وجنون الهوس الإكتئابي أعظم إنجازاته أصالة.

لقد وُضع العلاج التحليلنفسي لعلاج المرضى العصابيين، ورغم أن مفهوم «العُصاب» كان يتضمن في تلك الأيام نطاقاً من الإشكالات أوسع من مفهومه

الحالي، إلا أنه حتى في ذلك الوقت تمت محاولة تصنيف أكثر الاضطرابات جدية ضمن الأمراض العقلية (الذُّهانية). والملاحظ أن السويسريين - وخاصة يونغ وبلويلر - الذين قدموا إلى التحليل النفسي من الطب النفسي الأكاديمي لم يضعوا - خلافاً للڤيينيين - خطاً فاصلاً بين علم الأعصاب والطب النفسي.

لم يتمكن فرويد من دخول مادة الطب النفسي حتى انضمام يونغ إلى حركته قبل عامين فقط من انضمام تاوسك لها.

في عام ١٩١٠ قام أحد الأطباء النفسيين السويسريين بزيارة لجمعية ڤيينا للتحليل النفسي حيث وجد «حوالي ثلاثين شخصاً.. حاضرين.. ولكن ليس بينهم طبيب نفسي أكاديمي واحد.. لقد صعقني نقص التدرب في الطب النفسي عند معظم المشاركين رغم أن عدد المبتدئين [في التحليل النفسي] محدود جداً بينهم، إنهم حتى لايمتلكون المصطلحات العلمية [الخاصة بالطب النفسي]»[١٣]. اهتم فرويد كثيراً بالأنصار السويسريين لأنهم بالضبط يبشرون بأن تحتل مفاهيمه حيزاً جديداً في الطب النفسي، وسوف نعرض بشكل واسع إلى موضوع علاقة التفكير التحليلنفسي المبكر مع الذهانات عند تقويم مادة العمل العلمي لتاوسك الذي شارك بعمق في الطب النفسي منذ بداية ارتباطه مع فرويد.

رغم أن زعماء عالم الطب النفسي الأكاديمي في ڤيينا لم يكونوا يحبّذون أفكار فرويد، فإن الأعضاء الأصغر كانوا غالباً مسحورين بهذه الأفكار. كان تاوسك - مع كل اهتمامه بالتحليل النفسي- يحتل منصباً في عيادة مرضى الأعصاب غير المقيمين في Frankl Von Hochwart. (كانت «العيادة» تعادل مايسميه عالمنا الأكاديمي اليوم «القسم»)، وبقي طوال سنوات دراسته للطب جزءاً من الحلقة الضيقة حول فرويد، وعمل أيضاً في عيادة الطب النفسي لجامعة ڤيينا التي كان يرأسها البروفسور «ڤاغنر- ياورغ». كانت العلاقة الشخصية بين ڤاغنر ياورغ وفرويد شديدة التعقيد. كانا متعاصرين ويعرفان بعضهما من أيام المدرسة. وعندما درس تاوسك في عيادته، كان ياورغ يحتل أكبر منصب للطب النفسي في الامبراطورية الهنغارية- النمساوية (خلف كرافت - إيبنغ في هذا المنصب)، وله الفضل في محاضرات السبت المسائية التي كان فرويد يلقيها في قاعة محاضرات

ياورغ (منحه هذا الحق شريطة أن يزيد عدد المستمعين عن ثلاثة). أعرب فرويد دائماً عن امتعاضه لعدم كونه عضواً نظامياً في هيئة التدريس.

من اكتشافات ڤاغنر- ياورغ التالية ابتكاره العلاج المالاريائي لمعالجة الشلل العام، وهو الإكتشاف الذي حاز عليه جائزة نوبل عام ١٩٢٧ ليصبح أول طبيب نفسي - والوحيد- الذي ينالها. وقبل هذا الحدث كان التنافس بين ڤاغنر ياورغ وفرويد يجد أساسه في طموح كل منهما إلى الشهرة. كان مساعدوا ڤاغنر ياورغ شديدي العداء لعمل فرويد، ومن جهته ازدادت حساسية فرويد تجاه أي استخفاف بآرائه يبدر من طرف ڤاغنر ياورغ. ارتاب فرويد- على سبيل المثال- بـ«هاينتس هارتمان» الذي أصبح الآن عميد المحللين النفسيين الأمريكيين، لأنه قدم إليه من عيادة ڤاغنر- ياورغ في العشرينات.

ورغم اتجاهه العضوي، كان ڤاغنر- ياورغ طبيباً نفسياً شديد الحساسية. بمقدور المرء أن يكون إنسانياً دون أن يكون فرويدياً، وفي جولاته كان ڤاغنر ياورغ يذهب أولاً إلى المرضى الأشد معاناة. كان ڤاغنر ياورغ سريرياً بقدر ماكان عالماً، ولكنه رغم اهتمامه بالمرضى لأسباب إنسانية واحترامه الشخصي لفرويد، إلا أنه اعتبر التحليل النفسي قضية أخرى تماماً. عارض ڤاغنر- ياورغ اعتقاد فرويد بأن التحليل النفسي قادر على القيام بكل شيء[١٤]. وفي موقفه كطبيب نفسي يواجه فرويد، ربما كان ڤاغنر ياورغ تهكمياً أكثر من كونه خصماً عدائياً. وبعبارة أخرى، لقد أظهر موقفاً متسامحاً- رغم سخريته- تجاه التحليل النفسي. لقد كان منصفاً رغم لسعاته وسمح لمساعديه أن يتصرفوا كما يشاؤون تجاه فرويد. هذا الجو الطب نفسي من الآراء المحيطة بفرويد يشكل خلفية أساسية لفهم كل مجرى حياة تاوسك.

لاتزال يوميات «لوأندرياس سالومي» هي المصدر الأفضل للمعلومات عن علاقة تاوسك مع مجموعة فرويد قبل الحرب العالمية الأولى[١٥]. وبالاستقلال التام عن «قضية تاوسك» تعتبر «لو» إحدى أحذق المحللين لشخصية فرويد ونتاجه. إن علاقة «لو» مع فرويد لابد أن تثير اهتمام أي متابع للتاريخ الفكري. كصديقة

سابقة لنيتشه وشارحة له، «جاءت» «لو» إلى فرويد محمّلة بعبير الثقافة الأوربية السابقة، وعند قدومها كانت لاتزال تربطها علاقة حميمة مع «ريلكه» الذي كانت عشيقته وساعدت على نضوجه كشاعر وذهبت معه في رحلة إلى روسيا حيث تعرفا إلى تولستوي (قدّمت «لو» ريلكه إلى فرويد في عام ١٩١٣)[١٦].

كانت «لو» في الحادية والخمسين من عمرها عندما قدمت إلى ڤيينا في عام ١٩١٢، وقد اعتبرت قدومها هذا نقطة «التحول»[١٧] في حياتها، وربما ليس فقط من باب المصادفة أن فرويد فيما بعد اعتبر عام ١٩١٢ «أعلى قمة في عملي التحليلنفسي»[١٨]. وقبل دخولها مسرح التحليل نفسي الڤييني حضّرت «لو» نفسها بقراءة كل ماكتبه فرويد. لقد جاءت بقصد إثارة اهتمام فرويد بها، ونجحت تماماً في مسعاها.

كانت «لو»من طراز النساء الماهرات في تجميع الرجال العظام حولهن، ولنا في «Madame de Staél» التي عاشت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، و Alma Mahler أمثلة توضح هذا الطراز. وفي حالة «لو» لم يكن الجمال جاذبيتها الرئيسية، فمهما بلغت درجة جمالها سابقاً عليها الآن أن تعتمد على مصادرها السيكولوجية لتحوز اهتمام أي من الراغبين المحتملين. كانت لو مستجيبة شديدة الحساسية للأفكار وهذا ماجعلها تمتلك نزوعاً استثنائياً للتوحّد مع الرجال وخاصة الجانب المبدع فيهم والأكثر خضوعاً لشكوكهم الداخلية. لهذه الأسباب توجّب على «لو» أن تقرأ كل ماكتبه فرويد قبل أن تعرّفه بنفسها.

ورغم الفائدة التي قدمتها لسلسلة الرجال العظام الذين عرفتهم لأنها بالضبط تمتلك القدرة على التماهي مع الجانب الأثمن فيهم والذي يحتاج - لهذا السبب- إلى الدعم، فقد اكتشفوا عندما وقعوا في حبها أنها لاتمنح نفسها بشكل حقيقي. لقد عكست صورتهم وساعدت حاجتهم الإبداعية ولكنها في أعماقها كبحت نفسها كشخص. جميع الرجال العظام الذين عرفتهم كانوا بحاجة لها، ولكن عشاقها جميعاً أدركوا تماماً زوغانها منهم.

# الفصــل الثاني

## زيوس

-١-

في عام ١٩١٢، وفي السادسة والخمسين من عمره، كان فرويد رباً لأسرة فيها ستة أطفال، وليس في وارده إقامة علاقة جسدية مع «سالومي» على الأقل لأنه لم يكن ليتهاون أبداً مع درجة الفوضى التي قد تستدعيها علاقة غرامية من هذا النوع. كان فرويد رجلاً محترماً gentel man من القرن التاسع عشر يتمثل الميراث الفكري للقرن الثامن عشر. وبقدر ماكان عقله منتظماً وشكاكاً، بقدر ماكان سلوكه مقيداً ومحترماً ورسمياً يقترب في انضباطه من سلوك البورجوازي الصغير. كان نطقه واضحاً تماماً ويتحدث مثل كتاب، يرتدي دائماً ثياباً أنيقة على طراز الطبقة الوسطى ولكنْ دون أي تكلف في المظهر. كان فرويد رجلاً يسيطر على حياته بشكل جيد.

كان نظامه اليومي يسير بانتظام الساعة تقريباً: يهجع إلى فراشه في ساعة محددة ويستيقظ في وقت محدد، ولكي يستقبل مرضاه لم يكن عليه سوى دخول جناح الغرف المتاخم لشقته. كان المرضى يأتون إليه للعلاج والاستشارة، وكانوا جميعاً يعرفون بأنه يأمل منهم التقيد بمواعيدهم بدقة. كان فرويد اللبق والمسيطر على نفسه طبيعياً وعادياً تماماً في مكتبه المملوء بشكل مدهش بمجموعة من التماثيل القديمة. في الفاصل بين جلستين مع المرضى، كان يذهب دائماً ليتمشى في شقة عائلته قبل أن يجلس مرة أخرى للإصغاء الى المشاكل البشرية.

ورغم نحوله وحجمه المتوسط (طوله خمسة أقدام وسبعة إنشات)، كان فرويد رجلاً عظيم الحضور. كانت عيانه ميلودراميتين تقريباً: بنيتان غامقتان تظهر قدرتهما - حتى في الصور الفوتوغرافية- على اختراق الزيف والوهم. رُسمت له لوحة خلال الفترة القصيرة التي كان فيها حليق الذقن، ولايبدو في الصورة أي تشابه على الإطلاق مع ماعودّتنا عليه كتب التاريخ، ولكن لو غطينا بيدنا ذلك الجزء الذي تغطيه لحيته دائماً، فسوف تذكرنا تلك العينان المتقدتان والنفاذتان مباشرة بمؤسس التحليل النفسي. كان فرويد رجلاً حيوياً لاتتجلى طاقته في عمله فقط بل أيضاً في تمشيّه ونفاذ صبره وتململه وتدخينه المتواصل تقريباً - كان يدخن حوالي عشرين سيجاراً في اليوم. ورغم لطافته وتهكميته، فإن عيناه تذكرنا بقدرته على الكره. إن حماقة العالم تبدو عبئاً فظيعاً لرجل يتفحص كل شيء بطريقة جديدة، وقد رأى فرويد أنّ واجبه هو «إزعاج سكينة هذا العالم»[1].

كتب لخطيبته قبل أن يخطّ علامته المميزة بفترة طويلة: «أشعر غالباً وكأنني ورثتُ كل التحدي وكل الهوى اللذين دافع بهما أسلافنا عن هيكلهم. أستطيع أن أضحي بكل حياتي في سبيل لحظة عظيمة في التاريخ». [2]+

إن النزعة المحاربة عند فرويد تعبّر عن شجاعته واستقلاليته، وكان أقل خوفاً على أفكاره مما قد يوحي به تصلبه، كان بالأحرى يمتعض من عدم تفهم العالم الذي يحسّ بأنه مؤهل لإدراك أفكاره. كان فرويد إنساناً جباراً وليس كائناً بشرياً عادياً.

وفي رسائل مبكرة تعود إلى فترة المراهقة يعثر المرء على إدراك فرويد الداخلي لعبقريته إضافة إلى تصميمه على تحقيق خلوده.

قال فرويد في خطابه لجمعية ڤيينا للتحليل النفسي في مرحلة نضوجه التام- في ربيع عام ١٩١٢ - وقبل دخول «لوأندرياس سالومي إلى مسرح الأحداث بفترة وجيزة، بعد أن شبّه نفسه بأداة في يد القدر: «إذا ماثبت في النهاية أنني كنت مخطئاً في تناولي للقضايا النظرية فإنني سأعزي نفسي بتقدم معرفتنا - هذه المعرفة التي

---

+ حول علاقة فرويد مع اليهودية راجع كتابي: الفكر السياسي والإجتماعي عند فرويد ص ١٦٧- ١٩٢.

لابدّ أن تتغاضى عن آراء شخص واحد، وهنا قد تتساءلون: لماذا إذن لاأستسلم فوراً لهذه الإقتراحات الجديدة طالما أنني أمتلك مثل هذا التقويم الذي يستحق الثناء لحدود عصمتي من الوقوع في الخطأ.. وبدلاً من ذلك أفضّل إعادة تمثيل الكوميديا المألوفة لرجلٍ عجوز يتمسك بآرائه بعناد؟ جوابي على ذلك هو أنني لم أجد حتى الآن أي دليل يقنعني بالإستسلام. لقد غيرت وجهات نظري عدة مرات في أيامي الأولى ولم أخف ذلك عن الجمهور وكنت آلام بسبب تلك التغيرات تماماً كما آلام اليوم بسبب محافظتي. إذن لايجب أن أخشى هذا اللوم أو ذاك. أعرف أنّ عليّ أن أحقق قدري الذي لاأستطيع الفرار منه ولاحاجة للركض تجاهه. سأنتظره..»[٣].

قد يعجز المرء عن تخمين مدى صِغَر المجموعة التي كان فرويد يخاطبها بهذا الكلام!. يتميز فرويد بأنه يبدأ كلامه بحذر شديد ثم يكشف بعد ذلك أن مايختفي وراء هذه اللباقة ليس إلاّ الثقة المطلقة. كان فرويد فخوراً وقادراً على نقل هذه الخيلاء الى الحركة التي يقودها، ومنذ عام ١٩٠٣ كان يكتب عن نفسه بصيغة الشخص الثالث.

في فترة هذا الخطاب كانت حياة فرويد العامة في طريقها لابتلاع حياته الخاصة. في البيت كان تفكير عائلته منصباً عليه وعلى عمله. كان «آل فرويد» يستقبلون بعض الزوار ولكنهم لم يقيموا حفلات أبداً. لم يكن فرويد يحب الإختلاط بالآخرين. وكانت الشقة هادئة بشكل استثنائي مقارنة مع حجم العائلة. وبقدر ماكان فرويد يغوص في أعماق الدوافع البشرية في مكتبه بقدر ماكان يتجنبها تماماً في بيته. كانت زوجته تكرر دوماً: «لايتحدث أحد في بيتنا عن الأعْصَبَة»[٤].

كان اسمها - كإسم زوجة تاوسك- «مارثا» (وهنا ينتهي التشابه بينهما). لقد تغازلت مع فرويد على الطريقة الڤيكتورية الدقيقة واستمرا في مرحلة الخطوبة مدة أربع سنوات. من خلال رسائله مع زوجة المستقبل نستطيع أن ندرك كم كان متطلباً وامتلاكياً. لقد طلب منها في إحدى المرات أن تقطع علاقاتها مع أعضاء عائلتها رغم أنه لم يكن مهيأً في تلك الأثناء لتحمل الأعباء المالية لهذه القطيعة. وقد اعترف أكثر من مرة: «أخشى أن لديّ ميلاً نحو الاستبداد»[٥].

كانت «زوجة البروفيسور Frau Professor - وهو اللقب الذي صار يطلق على زوجة فرويد- هادئة ولكن مفعمة بالحيوية ونصبّت من زوجها إلهاً واستمتعت بكل تلابيبها بمسيرته لأن يصبح رجلاً مشهوراً في العالم. امتلكت إحساساً ظريفاً بالدعابة وربما فهمت من عمل زوجها أكثر مما اعتقد تلاميذه.

لقد تراجعت أهمية مارثا ضمن العائلة رغم مثابرتها على عملها وبدأت تهرم. ورغم أنها كرست نفسها لخدمة زوجها إلا أنها كانت ربة بيت نيّقة تنشغل دائماً بإزالة البقع الموجودة في البيت والبحث عن الأماكن التي قد يتواجد فيها رماد سجائر فرويد- يبدو أن جلّ نياقة فرويد قد نبع من الترتيب القهري لمارثا التي كانت تصمم له ملابسه وتختار له كل شيء حتى محرمة يديه بل وتضع له المعجون على فرشاة أسنانه - ولابد أن الضيافة كانت تسبب لها بعض القلق. لقد أتلفتها مبكراً تنشئة أطفالها الستة، رغم أن أختها «مينا Minna » أقامت معها قبل هذه المرحلة. بقدر ماكانت مارثا رقيقة شكّلت مينا- وهي الأرفع ثقافة من أختها - دعماً أكبر لفرويد في عمله.

من الواضح أن العلاقة الجنسية بين فرويد وزوجته قد توقفت في فترة مبكرة. كتب فرويد لصديقه الحميم عندما كان في الحادية والأربعين من عمره: «إن المتعة الجنسية لم تعد تشكل شيئاً بالنسبة لشخص مثلي»(٦). وفي محاولة غريبة للتغلب على مرضه بالسرطان أجرى فرويد وهو في سن السابعة والستين عملية لتجديد نشاط خصيتيه (عملية شتاينخ Steinch) ولكن دون جدوى*. ومن جهته تعرض الكاتب المفوض لسيرة حياته الى هذه الجوانب بأقصى لباقة ممكنة فموّه على عملية شتاينخ معتبراً أنها «تربط الاختلاف الوعائي بين كلا الطرفين»(٧). وذكر «جونز» بشكل عابر أن «الجانب الأكثر عاطفية في الحياة الزوجية قد تنحى عنده في فترة أبكر من العديد من الرجال»(٨). رأى فرويد في كتابه عن «ليوناردو» - وهو الكتاب الذي يحتوي إلماعات أخرى مستمدة من تجربة فرويد الشخصية- أن بطله «قد

* - الفكرة التي اعتمدتْ عليها هي التغلب على غريزة الموت عن طريق تعزيز غريزة الحياة.

تراجعت لديه الحاجة والنشاط الجنسيان بشكل استثنائي كما لو أن إلهاماً أعلى قد رفعه فوق الحاجة الحيوانية العامة للجنس البشري»[٩].

ربما تأثرت فحولة فرويد بنفوره من موانع الحمل إذ كانت مارثا تحمل بسهولة، وبسبب عجز فرويد عن الانسحاب في اللحظة المناسبة فإن الجماع كان لابد أن يعني مزيداً من الأطفال، وهذا سبّب حتماً ازدياد القلق المرتبط بالجماع عند الزوجين. وقبل عام فقط من توجيه فرويد تلك الرسالة التي تتحدث عن أن الجنس لم يعد يعني له شيئاً، كانت مارثا تتوقع - أو تأمل- بأن تدخل سنّ اليأس مع أنها كانت لاتزال في الخامسة والثلاثين من عمرها. وبدلاً من دخولها الوهمي في سن اليأس تمخضت عن إنجاب طفلتها الأخيرة «آنا Anna». مع ذلك، فمن الواضح أن مارثا قد دخلت مرحلة اليأس في سنٍّ مبكرة بعد إنجابها «لآنا» مباشرة.

في الحقيقة، لم يكن فرويد شخصاً يعير الجنس اهتماماً خاصاً، فالجنس في رأيه عبارة عن «دافع». يعتبر فرويد - بمنظور عصرنا الراهن- رجلاً شديد الإحتشام وجد في اكتشافاته للجنسية الطفلية أمراً منفّراً، وتعرض دائماً لاختبار الجانب التطهري فيه. نذكر مثلاً أنه أرسل أبناءه إلى طبيب آخر ليحدثهم عن «حقائق الحياة»[١٢].

رغم حقيقة تسامحه في كتاباته تجاه العادة السرية وتعداده لجوانبها المفيدة، والضارة ولكنه، حذّر أحد أبنائه منها بشدة عندما عبّر له - في مراهقته- عن القلق المرتبط بالعادة السرية. وبعد هذه الحادثة نشأ تباعد بين الأب والابن. ورغم أنه لم يعتبر العادة السرية «رذيلة» فإنه نظر إليها كـ «عَرَض». لم يستطع فرويد أبداً أن يعزل نفسه عن الشعور بالخجل تجاه الجنس، وإن حربه الخارجية ضد الأخلاق الفيكتورية تعكس صراعه الداخلي معها*. ورغم مزاجه التطهري أغمض فرويد عينيه أحياناً عن بعض الأخطاء: لقد أصبح أحد أبنائه «دون جواناً» بارعاً التقط

---

* كان معظم المحللين الأوائل صارمين بشكل مضحك تجاه المتعة الجنسية. مثلاً ثبّت «جيمس ج بوتنام» مقعد دراجة ابنته كي لاتُثار جنسياً.

إحدى مريضات والده وأقام معها علاقة غرامية عندما كانت تخضع للتحليل على يد والده. إن شروط المعالجة التحليلنفسية تجعلنا واثقين من معرفة فرويد بهذه العلاقة بل ومن تفاصيلها. كان فرويد حنوناً كأب ولكنه نأى عن أبنائه- أو تجاهلهم. لقد ساءه أن لايملك أي من أبنائه الثلاثة القدرة على حمل عبقرية والدهم. وهذا يفسر لنا سبب حاجة فرويد لأن يصنع من تلاميذه أبناء بدلاء. وإن تصرف الابن الحقيقي بحيث يجعل والده المعمر على دراية واسعة بمآثره الجنسية قد يشكل نوعاً من الإنتقام.

ورغم أن فرويد قدّم الكثير لتوضيح المراحل الأولى للتطور الطفلي فإنه اعتمد في ذلك على إعادة بناء ماضي المرضى البالغين وليس على الملاحظة المباشرة للأطفال، ولذلك فإن فرويد ليس بالرجل المناسب الذي نقصده كلياً للنصح في موضوع تربية الأطفال. ففي حين كان نظرياً كبيراً في موضوع تطور الطفل الصغير إلى البلوغ نجده محدوداً بشكل ملفت ويجانب الصواب عندما يتعلق الأمر بالوقائع الملموسة. ذكرت إحدى «كنّات» فرويد أنه قد عنّفها بشدة لمبالغتها في احتضان طفلها[١٥]. كان فرويد يحاول - انطلاقاً من اهتمامه الشديد بسيكولوجيا عقدة أوديب - تخفيض خطر تعرض حفيده لـ «التثبيت الأوديبي»، أما في وقتنا الراهن فيؤكد الدكتور «سبوك Spock» - وهو الذي تعلم الكثير من التحليل النفسي - على الأهمية الحاسمة لتعبير الأم عن حبها وعواطفها تجاه طفلها الصغير.

امتلك فرويد تناقضات عديدة بقدر مانتوقع من رجل بأهميته، فإلى جانب كل رسميته وتأنقه كان راوياً بارعاً للقصص اليهودية الرائعة، ورغم انضباطه كان بمقدوره أن يضمر أشد الأفكار غرابة وخيالية، وبغض النظر عن حدوده كإنسان فقد كان قادراً دوماً على أن يعجبه في الآخرين ماينقصه هو. لقد أحب فرويد أولئك الأشخاص أصحاب الهوى والخيال. إذاً، كان لابد أن تشكل «لوأندرياس سالومي» مكسباً له شخصياً وللتحليل النفسي أيضاً.

عبّر فرويد بعد سنوات عديدة عن إعجابه بـ «لو» وتعلقه بها «دون أي أثر للجاذبية الجنسية»[١٦]. تأثر فرويد دائماً بالفتنة العظيمة لمن أسماهن «النساء

النرجسيات»[١٧]. لقد احتكّ فرويد من خلال «لو» مع روح «نيتشه» وأفضل مافي الحياة الفكرية الألمانية. ورغم أن فرويد لم يقدم لها حجراً قديماً لتصنعه على هيئة خاتم- وهو نوع من التشريف لتلاميذه المفضلين دأب عليه فيما بعد - إلاّ أنه وثق بها إلى حد بعيد جداً، فتراسل معها بعد عدة سنوات حول المشاكل العاطفية لابنته «آنا» وأصبحت «لو» في فترة من العشرينيات المعالجة النفسية لآنا. طلب فرويد من «لو» أن تساعده في تحرير ارتباط «آنا» به ولكنها رفضت. لقد تناقشا في موضوع «آنّا» كما لو أن الأمر لايعني إطلاقاً زوجة فرويد بالذات. بل كما لو أنها - بدلاً من ذلك- ابنتهما هما. استجابت «لو» بإخلاص لهذا الموضوع وكرّست أحد كتبها لـ «آنّا فرويد».

لم يكن لدى فرويد - بالتأكيد- ولعٌ خاص بالنساء اللواتي لهنّ ماضٍ جنسي متنوع. رغم ذلك، فقد تودد إلى «لو» في عام ١٩١٢، وتسجّل يومياتها «إرساله الورود إليها وتمشيه معها حتى منزلها في الساعة الثانية والنصف صباحاً. إن هذه اللفتات تسترعي الإنتباه عندما تصدر عن رجل أمضى وقته في حياة زوجية شحيحة. لقد نجحت «لو» في إيقاع فرويد بحبها ولو بطريقة مُصعَّدة. كان فرويد ينزعج إذا تغيبت عن إحدى محاضراته وقد تعود على توجيه حديثه إليها. كتب إليها ذات مرة: «لقد تعودتُ على توجيه محاضراتي إلى شخص محدَّد من الحضور. لقد حدقتُ البارحة كالمسحور في الكرسي الشاغر المخصص لك»[١٨].

في تلك الأيام السابقة للحرب العالمية الأولى، وقبل أن يقع في السرطان والإحباطات التي سببها له تلاميذه، كان فرويد في قمة إلهامه، وفي أوج قوته تلك كان يعيد صياغة أفكاره باستمرار ويزدهر بالاحتكاك مع الأشخاص الخصبين المعطائين. لاحظت «لو» عدم اهتمام فرويد بالقطط والكلاب، وبالمقارنة مع درجة اهتمامه الكبيرة بالكلاب في شيخوخته طلباً للعون العاطفي، فإن ملاحظة «لو» تبين كم كان أكثر انفتاحاً وتواصلاً مع الآخرين في تلك الأيام. كان يذهب أحياناً الى المقاهي بعد الاجتماعات العلمية ويطرح قضايا محاضراته على بساط النقاش مستكشفاً الاحتمالات الأخرى الممكنة.

-٢-

احتلت «لو» موقعاً صميمياً سمح لها بأن تفهم فرويد وجميع أعضاء حلقته، ولذلك شرعت بنشاط بإغواء ڤيكتور تاوسك الذي اعتبرته «الشخص الأكثر بروزاً» بين تلاميذ فرويد(١٩). كان تاوسك وسيماً بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وشاربيه ويفاعته (كان يصغرها بثمانية عشر عاماً: هي في الحادية والخمسين وهو في الثالثة والثلاثين من عمره). كان تورطه في علاقة غرامية مع امرأة تكبره الى هذا الحد مثار استغراب - بل وضيق - أصدقائه.

قدمت «لو» الى ڤيينا متباهية باجتذابها لرجال عظام كوسيلة لجعل عشاقها الحاليين يشبّهون أنفسهم بالعشاق المشاهير في ماضيها. وفي حين أنها كانت تبحث عن رجال موهوبين تتماهى بهم، كان لتاوسك أن يأمل - وقد قبلته عاشقاً لها - بأن يتبوأ في علم النفس مكانة نيتشه في الفلسفة وريلكه في الشعر. ونظراً لجاذبيته الهائلة للنساء يتوقع المرء سهولة أن يعثر على امرأة أفتى وأكثر إخلاصاً له، ولكن الإكتفاء الذاتي الشديد لـ «لو» ومهارتها في التخلص من علاقاتها الغرامية في اللحظة المناسبة كانا مصدر جاذبية خاصة له. وخشية من أن يكون معشوقاً ومُعتَمداً عليه. لم يكن تاوسك بحاجة أبداً لأن يشعر بالذنب تجاه «لو».

جمعت تاوسك و«لو» اهتمامات عامة مشتركة عديدة. أخذها تاوسك إلى عيادة «Frankl - Hochwart» لكي تراقب بعض الحالات هناك، وأعطاها القصائد الشعبية الصربية التي ترجمها سابقاً، وقد صحبته في زياراته العائلية لولديه. ولكن حُبّ تاوسك لـ «لو» انتهى الى اشمئزازه الجسدي ونفوره منها.

شكّل فرويد و «لو» وتاوسك في عامي ١٩١٢ - ١٩١٣ ثلاثياً مفيداً لكل منهم. ومرة أخرى تمتلك «لو» رجلين في آن واحد: لقد تزوجت «فريدريك كارل أندرياس» بعد أن هددها بالانتحار إن لم توافق ولكنها كانت تنام فقط مع رجال آخرين، وقبل زواجها استخدمت «لو» رجلاً آخر بمواجهة نيتشه (اعتبرتها شقيقة نيتشه «شيطاناً»). سافرت «لو» مع ريلكه وأندرياس إلى روسيا كثلاثي، وهاهي الآن تقيم علاقة جسدية مع تاوسك الى جانب ارتباطها العميق بفرويد.

كان لهذا الترتيب الثلاثي - من جهة فرويد- إحباطاته وإشباعاته: كان غيوراً من فرصة تاوسك في إقامة علاقة غرامية مع «لو» (كان تاوسك أفتى منه وأكثر رجولة وأضخم جسدياً، وفي هذا المجال يقدّم فرويد انحناءة التلميذ لأستاذه)، ومن المرجح أن تكون «لو» بصحبة تاوسك عندما حدّق فرويد في كرسيّها الشاغر. أما الإشباعات فتكمن في المعلومات التي تقدمها له «لو» عن تاوسك وقدرتها على مراقبة هذا التلميذ المشاغب.

لقد ارتبط تاوسك مع «لو» بمنأى - ولو جزئي - عن تماهيه مع فرويد، ولكنه بالتأكيد كان مسروراً بلعب دور الرجل العظيم الذي كان مغرماً بها في تلك الآونة. وبقدر غيرة فرويد من علاقة تاوسك مع «لو» كان حسد تاوسك للمكانة الخاصة التي يحتلها فرويد لديها. لقد أفادت «لو» كقناة تصل بين الرجلين إذ أعلت من شأن تاوسك في عيني فرويد وشكلت عصا صقل (ملّمع Buffer) بينهما. انشغلت مجموعة ڤيينا للتحليل النفسي بالتنافس لنيل إعجاب فرويد، ولابدّ أن تنشأ في جو عائلي ساخن كهذا بعض الأحساد الصغيرة والغمز في القفا. وكان اختيار التحليل النفسي في تلك الفترة يعني النبذ من الطب النفسي، وطالما أن حواريي فرويد أقلعوا عن السعي لنيل موافقة العالم الخارجي، فقد كانوا بالمقابل بحاجة لنيل رضاه. كان يزودهم بالإلهام - وبطريقة أكثر دنيويّة- وبالمرضى أيضاً. لقد منح المبشرون كل تفانيهم لفرويد وحوّلوا نزعاتهم العدائية نحو العالم الخارجي. لقد تبعه المؤمنون به في القضايا التي يعمل عليها دون التجرؤ على الانحراف بعيداً عن الحدود الشرعيّة التي وضعها، وساد الجمعية جوٌّ من السريّة. وتعبّر التخيلات السياسية والدينية بشكل أفضل عن الجو السائد في تلك الاجتماعات المبكرة. قال تاوسك: «كانت الداروينية... ديناً علمياً. تماماً كما هي حال التحليل النفسي»[٢٠]، وإن كان فرويد قد حكم كإله، فإن تلاميذه هم الذين حوّلوا كلماته إلى قانون.

لقد شجع فرويد - بالتأكيد- إخلاص تلاميذه المطلق. كان فرويد- المكروه والمستخبث- مهيأً لأن يغوي تلاميذه عبر تضخيم الدرجة التي تجعل من مؤيديه أقلية محاربة. ورغم أنه ألقى محاضرات منتظمة في الجامعة أمام جمهور متنوع في

أمسيات السبت، وكان تلاميذه يحضرونها بصحبة زوجاتهم أو صديقاتهم؛ إلا أنه كان يفضّل التحدث أمام مجموعته الصغيرة من الأتباع المخلصين. كان فرويد يمارس نقداً ذاتياً شديداً لأفكاره إلى حدّ أنه كان بحاجة ماسة إلى سماع كلمة «نعم» من العالم الخارجي. ونظراً لأنه لم يحصل بعدُ على تقدير العالم بشكل عام - أو حتى الفئة المثقفة في ڤيينا- كان لزاماً عليه أن ينال استحسان جمعيته الصغيرة بالذات.

جمع فرويد حوله مجموعة من الرجال القادرين الذين شكلوا - في الواقع- رجال موافقة (Yes - Men)، وهم الجمهور الذي كتب له. أرادهم أن يعكسوا أفكاره لمساعدته على رؤية مفاهيمه في ضوء مختلف قليلاً، ولم يرغب أن تسدّد إليه ضربة من خارج خطّ التفكير الذي انطلق لتوّه، وبدت له الأفكار الأصيلة، التي يتقدم بها الآخرون تعبيراً عن علاقتهم الفعالة به، أشبه بهجمة معادية. «أراد أن ينظر في مشكالٍ متعدد المرايا ينوّع له الصور التي يسلّطها عليه»[٢١]*.

لأنها امرأة، لم تكن «لو» مؤهلة لأن توقظ مشاعر المنافسة الحقيقية عند فرويد إذ لاتحتل النساء - بالنسبة لرجل من الطراز القديم مثله- موقع المنافس للرجل. لقد احتاج فرويد للمؤيدين أكثر من حاجته للمعاونين، وكانت «لو» ملائمة تماماً لأن تلعب مثل هذا الدور المنفعل وبمقدورها إطرائه وهي تؤمن بكل كلمة تقولها، وكونها امرأة يضيف بهجة خاصة لإمتاع هذا الرجل. تستطيع المرأة بسهولة أن تفصل إحساسها بذاتها عن عملها الرسمي، ولذلك فإن منح فرويد مايبتغيه لايعني مطلقاً تنازلها عن جزء من كمالها.

إن مطالبة فرويد بتماهي تلاميذه به قد حفّز - في الواقع- عنصر التمرد فيهم لأنّ التشبه الحقيقي به عنى له في نهاية المطاف أن يكون المرء أصيلاً، ومع ذلك فإن الأصالة تُنهي فائدة ذلك الشخص بالنسبة لفرويد. وبينما كان دور «لو» في إعادة

---

* في العشرينيات عبّر فرويد عن افتتانه بمقالة كتبها أحد طلابه: «أشعر وكأن رساماً رسم لي صورتي، وعندما أنظر إليها أجد أنها أفضل من الأصل» والمقالة المذكورة تحتوي فقط بعض المفاهيم النظامية لفرويد دون اقتراح أية صياغات جديدة.[٢٢]

عكس أفكاره إليه يتلاءم بكمال مع قدرتها الأنثوية على التماهي بالرجال المبدعين، فإن إقدام رجل على إطراء آخر قد يسبب دماره، وقد انفصل أفضل تلاميذ فرويد الذكور عنه لأنهم وجدوا الجو شديد الضيق بالنسبة لهم ويدعو للقنوط تماماً.

شبّه بعضهم فرويد وحلقته بملك حاكم مع حاشية، وهي مقارنة واضحة مع الذين عاشوا في ظل ملكية هابسبورغ. امتلك فرويد دالّة الملك وشكّل تلاميذه رعايا أدانوا بالولاء له وحده، ونفذوا المهمات وكتبوا المقالات التي تشرح أفكاره. ومع ذلك لم يحترمهم فرويد لأن الاستقلالية تنقصهم. أما بعض المحللين الآخرين الذين عاشوا تلك الفترة فشبهوا الوضع بصورة العائلة الكبيرة جداً ويشكل فرويد رأسها بلا منازع. ضمن هذه الظروف احتاج فرويد إلى تلاميذه كأبناء مختارين هرباً من العزلة وتأسيساً لخلوده. ويبين التشبيهان السابقان أن التلميذ معرّض لخطر النبذ إن لم يظهر احترامه للقائد وأفكاره. وغالباً مانجد أتباع فرويد أشدّ صرامة منه في تحديد سلسلة التفكير المباحة.

قبضت «لو» على كل هذا الجو بمقطع قصير في يومياتها وتسترعي جملها المعقدة انتباهاً شديداً. كتبت عن اجتماع حضرته في الفترة الأولى لانضمامها حاول فيه فرويد مواجهة نفوذ يونغ في التفكير التحليلنفسي، رأى فرويد أن مصطلح يونغ «العقدة Complex» غير ضروري (كانت «العقدة» آنذاك تشير إلى مانسميه حالياً «الصراعات الوجدانية»). وفقاً لـ «لو» فإن فرويد «أظهر بعض الخبث الحاذق والماكر في محاولته لأن يجعل مصطلح «العقدة» نافلاً مشيراً إلى كيفية تسلله إلى مصطلحات التحليل النفسي بشكل غير ملائم ودون أن ينمو على تربتها تماماً كما أعليَ شأن ديونيسيوس بطريقة مزيفة عبر تحويله من إله «دخيل إلى ابن لزيوس (وهنا لم يستطع تاوسك الذي كان جالساً - أو واقفاً - بجانب فرويد وهو في ردائه الأبيض الطبي الذي يرتديه في عيادة الطب النفسي أن يكظم تماماً ضحكة خفيفة»[٢٣].

لقد فهمت «لو» وتاوسك بجلاء ماأضمره تعليق فرويد. لقد شبه نفسه بإله خالد قادر على منح بركاته أو حجبها عن ابن مخلوق مزيف.

بمقدور تاوسك إذن - طالما أن يونغ ليس مرشحاً لخلافة فرويد- أن يتوق إلى الإعتراف به. وحتى لو توقع تاوسك أنه لم يصل بعد مرحلة قبوله التام كأحب الأبناء إلى فرويد فإنه - على الأرجح- قد رأى نفسه بوضع المتلقي مستقبلاً للبركات الملكية بمجرد أن يتم إقصاء البارونات المرتدين. وفي سياق تأييده لفرويد في صراعه مع آدلر، أظهر تاوسك مقداراً من الحقد اعتبرته «لو» زائداً عن الحدّ وجائراً. وفي أوج المعركة الشهيرة لفرويد مع يونغ، أرعد تاوسك في وجه هرطقة يونغ. نقلت «لو» قول فرويد عن تاوسك: «إنه ذكي وخطر. يستطيع أن ينبح ويعض»[٢٤]. لقد تميز تاوسك حقاً بفمه العدواني وأسنانه الجميلة التي تشكل معلماً بارزاً في وجهه وخاصة عندما يضحك. في هذه المعارك الشفهية تجلى تاوسك في أفضل حالاته، وفي مقالاته أيضاً كان وحشياً وعنيفاً. في نعوته، علّق فرويد ممتدحاً تاوسك: «عبّر مزاجه الإنفعالي عن نفسه بتوجيه الانتقادات الحادة، والحادة جداً أحياناً».

إن الانطباع الذي تولّد لدى «لو» عند استماعها إلى محاضرة تاوسك عن التحليل النفسي «ليس فقط عن النظرية الفرويدية الكلاسيكية، وإنما أيضاً عن مقاربة مُحبة وتبجيلية للاكتشافات الأساسية لفرويد»، واعترضت «لو» فقط على كونه «فرويدياً مفرطاً في الإنضباط»، وفي كل الأحوال فإنه لن يهتم بخلاف ذلك»[٢٥]. شعرت «لو» أن المصلحة الشخصية لتاوسك تقتضي ألا ينحط تماهيه مع فرويد إلى مجرد تقليده. امتلك تاوسك - وهو أول من ألقى محاضرات في التحليل النفسي أمام جمهور من الغرباء عنه- القدرة على ترديد كلمات فرويد واحدة إثر أخرى (كان فرويد بالذات خطيباً عظيماً)، ولكن حقه في تكوين شخصيته الخاصة تناقص بقدر ماتزايد شعوره بضرورة محاكاة فرويد.

-٣-

لمست «لو» بعمق منابع التوتر بين هذين الرجلين. يتعذر فعلاً كبح الروح البشرية، فهاهو تاوسك وقد أصبح منافساً في عيني فرويد رغم أنه لم تمض سوى

سنوات قليلة على انضمامه إلى حلقة فرويد. اعتبرت «إلين ديلب Ellen Delp» - وهي صديقة مقربة من «لو» - أن تاوسك «عبقري من مرتبة فرويد بالذات يعمل بإخلاص في ظل التحريض الحسود من قبل فرويد»[٢٦].

حاول فرويد أن يتهرب من شيء ما، فما هو؟ . حدثتنا «لو» عمّا جرى في مناقشة لإحدى دراسات تاوسك: «كانت ردود فرويد لاذعة أكثر من المعتاد رغم أن تاوسك قدّم دراسته إليه بتبجيل واضح فاق الآخرين. أعتقد أن تاوسك - من بين الجميع - هو الأكثر إخلاصاً لفرويد بدون حدود»[٢٧].

تحرك تاوسك بسرعة تفوق سرعة فرويد في عدة مجالات بحث. أراد مثلاً أن يطبق التفكير النفسي على علم نفس الفنان. في دراسة مبكرة عن التصعيد Sub-limation ركّز تاوسك على أهمية الكف Inhibition في الإبداع الفني. ورغم أن هذا الحقل اعتبر فيما بعد مشروعاً تماماً بين المحللين النفسيين، فقد شعر فرويد في عام ١٩١٢ أنه «في ظل الإفتراء المتواصل الذي نتعرض له من العلم الرسمي لايجب أن نتجاسر على الإنتقال بمثل هذا التهور إلى منطقة جديدة تاركين ظهورنا مكشوفة، إننا نحتاج - بدلاً من ذلك - إلى تعزيز اكتشافاتنا القديمة مرات متتالية». وتعليقاً على هذا الإجتماع لاحظت «لو» صراع فرويد مع «الشخصيات المستقلة أو الحساسة»[٢٨].

تميز فرويد حقاً برغبته في تجاوز جميع الحدود السابقة للمعرفة، ولكن - عندما تعلق الأمر بتاوسك - اعتقد فرويد أنه يحجِّم المشكلات بطرحها قبل أوانها. ذكر فرويد في نعوته فضل تاوسك في كشف المضامين الفلسفية للتحليل النفسي ولكنه تردد من جديد في حكمه «ربما لم يكن الوقت ناضجاً لوضع مثل هذه الأسس العامة لعلم فتي كالتحليل النفسي». إن تاوسك - حسب فرويد - يمتلك دافعاً عنيفاً للبحث.

في متابعته لموضوع خاص به، كان فرويد ينحّي جانباً كل ماقد يتداخل معه. يخبرنا أقدم كاتب لسيرة حياته أنه «يتضايق عندما تقع أضواء أخرى غير أضوائه في

طريقه أو عندما يدفعه الآخرون قدُماً أو يحرفوه عن السياق الذي اختاره، وكان يبني عند الضرورة - تحصينات تحجب الأضواء العابرة غير الملائمة»[٢٩]. شكلت اهتمامات تاوسك مصدر تنغيص لفرويد الذي اعتقد أنه يخوض في مجالات مُعاقة تجعل فرويد يتخلى مباشرة عن الاهتمام بها.

خلافاً لطموحات تاوسك الشمولية، آمن فرويد بالمتابعة الضيقة للبحث واعتقد أن الطريقة الوحيدة للتوصل إلى اكتشافات هامة تكمن في «أن يركز المرء جميع أفكاره حول موضوع مركزي واحد»[٣٠]. وهنا كان فرويد يردّ - جزئياً - على تشعبه هو بالذات في مرحلة شبابه. كتب فرويد «بالتعارض التام مع سمة التوسع في الدراسات التي أجريتها خلال السنوات الأولى في الجامعة.. طوّرتُ مَيْلاً لتركيز عملي حول موضوع واحد»[٣١]. وقد اعترف بأن مساهمته في علم النفس أحادية الجانب، وادعى فقط أنه كشف الغطاء عن أهميـة الدوافع اللاشعورية، أما الدوافع الأخرى فهي معروفة من قبل. قال فرويد في معرض دفاعه عن تضييقه لتفكيره «احتجتُ إلى أحادية الرؤية هذه لكي أرى مابقي محجوباً عن الآخرين»[٣٢]*. غضب فرويد من عمل تاوسك وأصالته، وناقش مع «لو» موضوع تاوسك مرات عديدة عندما كانت مرتبطة بعلاقة غرامية. ذكرت «لو» في يومياتها «قبل تناول العشاء عند فرويد كنّا في غرفة الجلوس حين حولّ الحديث نحو تاوسك، تناقشنا مطولاً في موضوعه.. وبعد العشاء وانتقالنا إلى مكتبه، فتح فرويد الموضوع نفسه، وكانت الساعة تقارب الواحدة والنصف صباحاً عندما أخذني الى بيتي»[٣٣]. وكتبت «لو» عن أمسية أخرى «قبل العشاء- وبعده أيضاً- تحدث فرويد بسهولة واستفاضة عن مشكلة تاوسك، ولكنه في النهاية تحدث عنه بلطف ورقّة»[٣٤]. من الواضح أن هذا التنظيم الروحي الثلاثي Ménage - à- Trois كان مسلماً به تماماً من قبلهم.

---

* من أجل التوسع حول فوائد أحادية الجانب، راجع كتابي «الفكر السياسي والإجتماعي عند فرويد ص ص: ٧٦-٩٠.

إن استقلالية تاوسك أزعجت فرويد. صحيح أنه قدّر الألمعية وأعجب بالإبداع، ولكنه احتاج في حلقته المباشرة إلى أوعية منفعلة تستوعب مفاهيمه. وضمن هذه الحدود بذل فرويد جهوده للاحتفاظ بأفضل تلاميذه آملاً بإشباع حاجة التحليل النفسي إلى أنصار من الدرجة الأولى لهم طريقته ذاتها في استخراج الأفكار، ولكن مواهب تاوسك شوشت التناغم الداخلي لفرويد. علقت «لو» على إحدى اجتماعات الجمعية:

«تصرف فرويد باقتناع تام في معارضته الشديدة لتاوسك، ولكن. . . واضعين في أذهاننا المزاج العُصابي لتاوسك أصلاً. . من الواضح أيضاً أن أية استقلالية في محيط فرويد - وخاصة إذا اتسمت بالعدوانية واستعراض المزاجية- تقلقه كثيراً وتجرحه مباشرة في أنويته النبيلة مجبرة إياه على الخوض في نقاش مُبْتَسر»(٣٥).

امتعض فرويد من طموحات تاوسك الفكرية وفضّل عليه رجالاً مثل «أوتو رانك» الذي وصفته «لو» حينها بأنه «مجرد ابنٍ فقط ولاشيء سوى ذلك». تحدث فرويد مع «لو» حول رانك قائلاً: «لماذا يتعذر وجود ستة من الرجال الرائعين مثله في مجموعتنا بدلاً من واحد فقط؟» وتعلّق «لو» بدهاء على رغبة فرويد هذه معتبرة أنها «تُلقي بالشك حول تفرُّد الشخص المشار إليه»(٣٦).

إن النقطة الحاسمة في «مشكلة تاوسك» لاتكمن فقط في أنه ابن يكافح في سبيل نموه بل وفي أن استقلاليته كانت - جزئياً - عبارة عن واجهة. إن الكفوف التي منعته من الإبداع المطلق جعلت علاقته مع فرويد دقيقة. والأسوأ من كل هذا - من وجهة نظر فرويد- التصاق تاوسك الدائم بالمواضيع التي يشتغل عليها هو، بل إن تاوسك بدا قادراً بطريقة خارقة على مشاركة فرويد حتى في صياغاته الشخصية. وهذا ماألمحت إليه «لو» بقولها أن تاوسك يجبر فرويد «على الخوض في نقاش مُبتسر». إن شعور فرويد بعدم الارتياح تجاه تاوسك لاينبع فقط من كونه يمتلك عقلاً يوازي عقله بل لأنه يجرؤ أيضاً على استخدام هذه الملكة في مشاكل تشغل اهتمام فرويد نفسه إلى حدّ كبير. تتحدث إحدى مقاطع «لو» عن اضطراب فرويد:

«عند الظهيرة، وبعد أن أنهى تاوسك محاضرته. . ذهبنا معاً إلى الإجتماع. سبقتُ تاوسك وتمشيت مع فرويد الذي كان ينتظر في الشارع قلقاً (بسبب قرب أفكار المحاضرة من أفكاره هو بالذات)، وخلال المحاضرة مرّر لي فرويد سؤالاً كتبه: هل يعرف كل مايقوله حقاً؟»(٣٧).

في هذه النقطة يكمن مركز إشكالات فرويد مع تاوسك. وإن خوفه من استيلاء تاوسك على بعض أفكاره قبل أن ينتهي منها تماماً يساعد على توضيح الفائدة التي تقدمها له «لو» بإبقائها تاوسك تحت المراقبة. كان فرويد واثقاً من الجهة التي ستصطف فيها «لو» في النهاية ويشعر بعدم الارتياح إزاء شخص كتاوسك ذكي إلى حد مشاركته بعض مفاهيمه بالذات، إضافة إلى أنه لايحبذ وجود أي شك بأن تاوسك قد سبقه إلى فكرة ما ويكره الإضطرار للإعتراف بمساهمات تاوسك. ومرة أخرى نعثر في يوميات «لو» على إشارة صادقة لإدراك فرويد مشكلة علاقته مع تاوسك، فقد قدّم تاوسك تعليقاً في بداية إحدى الإجتماعات وفي نهاية المناقشة أشار فرويد إلى هذه الملحوظة الإيضاحية باستحسان ناسياً مباشرة من الذي تقدم بها، ثم اعتذر مُبتسماً عن خطأه»(٣٨).

امتلك فرويد القدرة على الإبتسام إزاء إيحاءات تاوسك الخنوعة معبراً عن عدم رغبته في إيفائه حقه، ولم يخرج الوضع أبداً من تحت سيطرته وكان قادراً على التخلّص من تاوسك نهائياً، أما من جهة تاوسك فإن هذا الصراع مسّ مركز كيانه تقريباً. امتلكت «لو» حداً من الرهافة جعلها ترى هذا الصراع من منظور الإشكالات الداخلية لتاوسك: «لقد أدركت الآن فقط كل أبعاد المأساة في علاقة تاوسك مع فرويد، إنه سيمسك دوماً القضايا ذاتها التي يشتغل عليها فرويد مع المحاولات ذاتها لحلها، ولايحدث هذا من باب المصادفة وإنما يشير إلى «جعله من نفسه ابناً» بقوة تعادل «كرهه للأب بسبب ذلك»، وكأنه - عبر التخاطر الفكري- سينشغل دوماً بالموضوع الذي ينشغل به فرويد دون أن يتخذ أية خطوة تُفسح له مكاناً خاصاً به. يبدو أن هذه الحالة تعود إلى مجمل الموقف، ولكنه - في النهاية- هو الذي فعلَ ذلك بنفسه»(٣٩).

عرفت «لو» تاوسك إلي الحد الذي يسمح لها بإدراك «مدى حاجته العملية إلى المنهج الذي يزاوله»(٤٠)، ولكنها بالغت في قدرته على السير فقط على خطى فرويد. فقد بدأ تاوسك في تلك الفترة بتقديم مساهمات أصيلة تماماً حين طبّق - للمرة الأولى- تبصّرات التحليل النفسي على فهم الذُّهانات (حافظ فرويد على مسافة من الاضطرابات الذهانية السريرية مقتصراً في عمله على الإضطرابات الأقل حدة، أي العُصابية)، مع ذلك، فقد أصابت «لو» في قولها أن تاوسك مستغرق في شؤونه الذاتية ومستبطن وطموح بإفراط إضافة إلى إخلاصه العميق لفرويد. لقد حدث الموقف برمته بطريقة تسمح لتاوسك بإلقاء كل اللوم على فرويد في إشكالاتهما الثنائية. أدركت «لو» أيضاً الظروف الصعبة التي يعمل تاوسك في ظلها: ضرورة التحضير لامتحاناته الطبية ومسؤولياته تجاه ولدَيه.

لقد ميزت «لو» أيضاً الحدّ الذي تصدر فيه اضطرابات تاوسك عن تنافره الداخلي «أراد أن يُعمي نفسه ويصمّ تعبيره الذاتي لوحده متعرضاً لأشد المعاناة من تحمل عبء نفسه»، وقد التصق بفرويد - جزئياً- بسبب نقص منابعه الداخلية، ومهما بلغت قدرته على التألق والاستقلال بقيت لديه «ثغرة في الإبداع» ملأها عبر التماهي مع الآخر (علاقة الابن - الأب) وهذا ولّد لديه دائماً وهم تحقيق الأسبقية». لقد امتلك تاوسك القدرة على الفهم السيكولوجي العميق للآخرين كنوع من الإحلال Displacement لتوقه الشخصي إلى أن يخضع هو بالذات للتحليل النفسي»(٤١)، ولذلك ربما وقع أحياناً في الإنخداع بالذات Self - deception كأي شخص آخر.

أحبت «لو» في تاوسك عجزه حيال كيانه الداخلي وكفاحه المؤلم لإستخدام فكره في السيطرة على آلامه. ورغم أنه كان متطلباً، إلاّ أن قدرته على التوهم جعلته محبباً، ولكن ذاته بقيت سجينة الماضي. كتبت «لو» عن تاوسك:

«لازالت فيه بقايا من تلك التناقضات المتضاربة بين ما أسماه فرويد «الحيوان المفترس Beast of Prey» (وهي التي - على الأقل- ساعدته على التدبير العملي

لحياته) وبين الحساسية الشخصية الفائقة إلى حدّ انحلال الذات Self - dissolu-tion. من المؤلم جداً مشاهدة إنسان يرغب في النظر إلى الجهة الأخرى ولكنه- بدلاً من ذلك- يفر هارباً. كان يخدع نفسه باستيهاماته حولي إذ يستحيل - على المدى الطويل- وجود علاقة تساعده حقاً حين يحتشد الواقع بأشباح الذكريات الأولية التي لم يتم تصريف شحنتها. إن نغمة ناشزة تترجع في كل شيء وهي تطنّ بغمغمات صادرة عن الداخل.

مع ذلك، فقد أدركت منذ البداية تماماً أن هذا الصراع بالذات - صراع الكائن البشري - داخل تاوسك هو الذي حرّك أعمق مشاعري. الأخ - الحيوان. أنت»[٤٢].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

# الفصـل الثالث

## انتحالات

-١-

لحسن الحظ- أو لسوئه- فإن العالم الخارجي لايتركنا أبداً وحيدين تماماً مع أنفسنا. في حزيران من عام ١٩١٤ أتمّ تاوسك دراساته الطبية وبدأت أخيراً مسيرته الجديدة. وكما قال فرويد لاحقاً في نعوته فإن تاوسك «بدأ يراكم خبرة معتبرة وتوصل إلى بعض النتائج الممتازة. لقد شكلت هذه النشاطات وعداً للطبيب الشاب الصاعد بالإشباع التام وتأمين وسائل الحياة المادية، ولكن الحرب انتزعته مباشرة وبعنف من كل ذلك». مع الحرب العالمية الأولى انهار كل مايحيط بتاوسك من جديد إذ تناقص عدد المرضى بشكل حاد وأصبحت مزاولة التحليل النفسي شبه مستحيلة، وتقلصت لقاءات مجموعة فرويد بسبب تشتت أعضائها. جمع تاوسك قبيل استدعائه للجندية، في شهر آب من عام ١٩١٥، أشعاره التي نشر جزء منها في عدة صحف، ولكن المجموعة الكاملة لم تنشر أبداً.

- أما ابنا تاوسك فقد أرسلا إلى مدرسة داخلية في بوهيميا وتزايدت صعوبات «مارثا» في تحمل نفقات تعليمهما بعد وفاة والدها في غمرة جيشانات الحرب وصعوبة الحصول على عمل آخر، وقد رثت أم ڤيكتور لحالتها ودعتها للسكن معها في زغرب حيث يمكن تأمين الطعام بسهولة أكبر. أصيب والد ڤيكتور بنوبة دماغية في شهر أيلول من عام ١٩١٥. أما ڤيكتور فلم يكن يمتلك حتى ثمن رغيف واحد من الخبز. كتب لمارثا في تلك الفترة: «أشعر أنني لست أهلاً لتحمل

بؤس عائلتنا، إنني أحافظ على وجودي الجسدي ذاته عن طريق تعبئة قواي الأخيرة، لأستطيع مساعدة الآخرين. إنني أسمح لعربة القدر هذه أن تمر فوقي، وسوف نرى بأي هيكل عظمي سأبدأ حياتي الجديدة -للمرة الألف- بعد الحرب»(*).

في شهر تشرين أول من عام ١٩١٥ تم تعيينه كطبيب نفسي عسكري في لوبلين Lublin التي كانت جزءاً من روسيا رغم احتلال القوات النمساوية لها. وكان بإمكانه معالجة بعض المرضى الخاصين إضافة إلى عمله العسكري، ووجد وقتاً للكتابة أيضاً. ورغم درجة البؤس التي حاول أن يصوّرها في رسائله إلى مارثا، فقد امتلك المنابع الداخلية لينتج أفضل كتاباته التحليلنفسية خلال فترة الحرب الشاقة تلك. في الربيع التالي في ٢٥/ ٣/ ١٩١٦. توفي والده فأبرق لأهله قائلاً «السلام لهذا الرجل شديد الحنكة». عمل تاوسك بكثافة جعلته مقيداً من الصباح إلى الليل. كتب لمارثا في وقت لاحق من ربيع ذلك العام «أعمل منذ الثامنة صباحاً حتى السابعة مساءً حيث أصل مرحلة الإنهاك التام»(**).

في مراهقته، تجاوز تاوسك الأعراف الإجتماعية، وخلال خدمته العسكرية تصرف ببطولة حقيقية حماية للفارين من خدمة الجيش الامبراطوري النمساوي. لقد زجت الحرب بالفلاحين الذين لايعرفون إطلاقاً معنى «التجنيد الإلزامي». وهكذا ألفى شبان عاجزون مضطربون أنفسهم معرضين لإطلاق النار عليهم بسبب رغبتهم البدائية البسيطة في الزحف عائدين إلى بيوتهم طلباً للحماية. كتب تاوسك مقالة بليغة حول سيكولوجيا الفارين من الجيش[1] تعتبر اليوم إحدى أقدم التطبيقات لاستخدام اكتشافات التحليل النفسي في القانون. وعرّض تاوسك نفسه للخطر مراراً بسبب لطافته وغيريته في سلوكه المدافع عن هؤلاء الأشخاص، واستمتاعه بالفرصة السانحة للتصرف دون اعتبار للأعلى منه.

لقد تعهد تاوسك بإنقاذ الناس مستخدماً تشخيصات الطب النفسي لخدمة البقايا الإنسانية. ورغم فظاظته كان قادراً على التصرف وفقاً لرقته الإنسانية، فدافع

---

* ١٩١٥/٩/٣٠.

** ١٩١٦/٥/١٣.

- على سبيل المثال- عن شاب يافع كان سيعرض على محكمة عسكرية لأنه لم يساهم في إطلاق النار على مجموعة كاملة من سجناء الأعداء، ونجح في إنقاذ حياته بإثبات أن مثل هذا الشاب الذي تربى على أرفع معايير الحياة المتحضرة لايُتوقع منه المساهمة في تنفيذ مثل هذا الحكم (وبعد سنوات عديدة قابل أصغر أبناء تاوسك هذا الرجل- واسمه فريتز ڤايس - في امريكا الجنوبية. كان يعلق صورة تاوسك على الحائط وكله شعور بالعرفان تجاهه). ولعل فرويد قد أشار إلى هذا النوع من الشجاعة حين قال في نعوته «إنه لشرف كبير له أنه خلال الحرب رمى بنفسه بإخلاص وإهمال تام للنتائج في معارضة المظالم العديدة التي - لسوء الحظ- وقف العديد من الأطباء صامتين إزاءها أو حتى شاركوا فيها».

رغم كل هذا، تلاشى مرضى تاوسك الخاصين واستمرت مشكلة مساعدة عائلته كمصدر تنغيص له. في شهر كانون أول من عام ١٩١٦ نقلته إدارة الجيش من لوبلن إلى بلغراد على مسرح المعارك الصربية. وفي بدايات عام ١٩١٧ طُرد ابناه من المدرسة (هيجو بسبب تورطه في مغامرة شبان، وماريوس بسبب خلاف مع الأب الكاثوليكي الذي يدرس الديانة إذ كرر أمامه بفظاظة ماسمعه من المدرس اللوثري عن المشاكل المالية التي وقع فيها رئيس أساقفة «مينتس Mainz» في القرن الخامس عشر). في عام ١٩١٨ وانطلاقاً من ثقتهم الكبيرة بوضعهم العسكري في صربيا، سمح النمساويون لعائلات الضباط أن تقيم معهم، وهكذا انضم ابنا تاوسك إلى والدهما في بلغراد في صيف عام ١٩١٨. أثناء الحرب، تمكن تاوسك من زيارة ڤيينا عدة مرات ليناقش - غالباً- إحدى مقالاته الجديدة، فقدّم لجمعية ڤيينا في إحدى المرات مقالة هامة عن ذهانات الحرب، ومقالة أخرى عن «الآلة المسيطرة في الفصام» أسست بمفردها لشهرته في الطب النفسي. ويبدو أن علاقته مع فرويد قد حافظت على مستواها السابق. ولابدّ أن عمل تاوسك نال إعجابه إذ أن خدمته العسكرية لم تؤثر على إنتاجه العلمي المتنامي، وفي ظل الوضع المنكمش لمجموعة ڤيينا التحليلنفسية لاح اتساع مكانة تاوسك في مستقبل حركة فرويد. قال فرويد في نعوته: «إن المساهمات العديدة لتاوسك.. تميزت بالملاحظة الحادة

والحكم العميق والوضوح الخاص في التعبير». إن «الوضوح» موضع تقدير فرويد الدائم.

من جهة أخرى، استمر عمل تاوسك في الإقتراب إلى حد الخطورة من عمل فرويد شخصياً. ففي تلك السنوات كان فرويد أيضاً يعمل بنشاط على وضع الخطوط العريضة لمفاهيم جديدة تتعلق بمشكلة الذهان، وكان - في السر- مدمّراً تجاه تفكير تاوسك. في ٣١/ ٦/ ١٩١٥ كتب لـ «لو»: «إن اهتمامك بعمل تاوسك يساهم في جعلك تتآلفين مع موضوع النرجسية، أما بالنسبة لي فتبدو تراكيبه مبهمة تماماً»[٢].

قبيل نهاية الحرب حصل فرويد على مصادر غير متوقعة للدعم. فالحرب العالمية الأولى - كالثانية فيما بعد- قد حرضت اهتمام الطب النفسي بمفاهيم التحليل النفسي، وأصبحت الإشكالات الوجدانية المتعارضة مع واجبات الجندي وعُصابات الحرب مصدر إزعاج للسلطات العسكرية. وبتشجيع من سكانها، اجتمع المحللون النفسيون في مدينة بودابست في ٢٨ و ٢٩/ ٩/ ١٩١٨ (وهو أول اجتماع عالمي لهم منذ عام ١٩١٣). شكل مؤتمر بودابست نقطة تحول بالنسبة للتحليل النفسي وأحس جميع الحاضرين حينها بذلك، إذ رحب موظفو المدينة بالمحللين وحاز فرويد أيضاً على دعم عائلة هنغارية ثرية جداً.

أتى تاوسك إلى المؤتمر من بلغراد وقدّم مقالة عن «التحليل النفسي وأهلية الحكم»، وخلال المؤتمر توعكت صحته إلى حد أنه تقيأ، وسبّب مرضه ضجة حقيقية وقتها، ولايعرف أحد سبب توعكه. ذكر فرويد في نعوته أن تاوسك «الذي عانى طويلاً من اعتلال الصحة فيزيولوجياً ظهرت عليه في بودابست علامات الإضطراب العصبي الاستثنائي».

في اجتماعات بودابست، تقدم الدكتور «هيرمان نونبرغ» باقتراح يدعو إلى خضوع جميع محللي المستقبل للتحليل النفسي الشخصي. ولايجب أن ننسى أنه في تلك الأيام لم يكن يوجد تدريب رسمي لتأهيل المحللين النفسيين وأن معاهد

ومنتديات عصرنا الراهن لم تكن قد انطلقت بعد، أما حالياً فأصبح التحليل النفسي الشخصي للمرشحين لممارسته مركز عملهم. وقبل اقتراح نونبرغ بخمسة عشر عاماً اكتفى فرويد بالتلميح في كتاباته إلى أن المشاكل الوجدانية للمحلل قد تتعارض مع تقدم مرضاه. ورغم أن فرويد نصح مرة - حين تقدمت به السن كثيراً- أن يخضع المحللون للتحليل النفسي كل خمس سنوات، فإنه في ذلك الوقت اقتصر على ذكر الفوائد التي يجنيها المعالج من «التطهير» التحليلنفسي، واقترح فقط على المرشحين اليافعين جداً القادمين إليه طلباً للنصح أن يحللوا أنفسهم.

ولكن التحليل النفسي الشخصي لأغراض تدريبية بدا أقل جاذبية بالنسبة للجيل الذي التحق بفرويد قبل الحرب. ورغم الصعوبة المطلقة للتمييز بين التحليل النفسي العلاجي والتدريبي، فيهدف الأول- نظرياً- إلى تحرير المعاناة النفسية، أما الثاني (التدريبي) فيهدف إلى إعداد المريض لممارسة هذه المهنة. ورغم أن فرويد تحدث أحياناً بصيغة توحي بأن المرضى عصابيون والمحللين طبيعيون»، إلا أنه لم يعمل أبداً وفقاً لهذا التقسيم. إن اقتراح نونبرغ يتضمن أن المحللين أيضاً لديهم عوائق وجدانية يمكن إزالتها من خلال الخضوع للتحليل النفسي.

وعنى اقتراح نونبرغ أيضاً أن الطرق غير الرسمية التي تتبعها المجموعة في التعليم عبر التحدث مع فرويد ومع بعضهم لاتشكل تأهيلاً كافياً لمزاولة مهنة التحليل النفسي. كان نونبرغ - الذي يصغر تاوسك بأربع سنوات- قد اجتاز مؤخراً علاقة علاجية قصيرة مع أحد معاصري تاوسك وهو «بول فيدرن Federn» إذاً، في حال الموافقة على هذا الاقتراح، من سيكون أهلاً لتحليل تاوسك أو فيدرن سوى فرويد بالذات، وتكمن المشكلة في أن خضوعهما للتحليل لديه لن يؤدي إلا إلى زيادة تعقد روابطهما المعقدة أصلاً معه. لأن الذهاب إليه بهذا الهدف يعني إخضاعاً لهذين الرجلين يزيد كثيراً عما قدّماه حتى الآن. أما بالنسبة للجيل الأفتى والمنضمين الجدد والأبعد شخصياً عن فرويد فإن الأمر أكثر سهولة.

لابد أن نونبرغ تقدم بهذا الشرط انطلاقاً من ثقته بتجنيد فرويد الشخصي له، فهذه الفكرة شكلت إحدى الآمال المستقبلية لفرويد. لم يكن نونبرغ في ذلك

الوقت شخصية بارزة - كما أصبح فيما بعد- لأن طبعه المشاكس يتعارض مع المزاج الذي يفضله فرويد. ولأن مسيرته في مجال التحليل لاتؤهله لتقديم مثل هذا الاقتراح الهام في اجتماع عام، فلم يستطع تأمين الموافقة على اقتراحه، ولذلك أيضاً لم يشكل هذا الرفض إذلالاً له. لقد رُفض اقتراحه - كما أوضح بعد سنوات عديدة- «لأن رانك وتاوسك عارضاه بقوة»*(٤).

لعل أوتو رانك، وهو - مثله كمثل تاوسك- عضو من المجموعة القديمة التي لاتتخيل الذهاب إلى محلل آخر سوى المعلم نفسه، لم يكن راغباً في التورط بعلاقة أبعد مدى مع فرويد، إضافة إلى أن الخضوع للتحليل كان أمراً نافلاً بالنسبة لأولئك الذين يعرفون نتاج فرويد إلى هذا الحدّ من الصميمية.

وبتصويتهما ضد هذا الإقتراح يصبحان في غنى عن مرحلة اختبار أو «ترهبن»(٥). على كل حال، فإن رانك معروف في التاريخ الفكري، وإن ذكر نونبرغ لمعارضة تاوسك لهذا الاقتراح واقتران إسمه مع اسم رانك يشكل دليلاً إضافياً على أهمية رأي تاوسك. كان تاوسك - بالنسبة لنونبرغ- شخصية عظيمة.

رقّي تاوسك- نظراً لخدمته في الجيش- إلى رتبة Oberarzt (وهي توازي رتبة ملازم أول «في الجيش الامريكي»)، وتلقّى - كما ورد في نعوته - «ثناءً رسمياً». بعد مؤتمر بودابست بفترة وجيزة، وفور أن سُمح لولديه بالإنضمام إليه، انهارت الجبهة اليوغوغسلافية تماماً، وفرّ الضباط تفادياً لوقوعهم أسرى حرب، وهكذا عاد تاوسك إلى ڤيينا مساء ٤/ ١٠/ ١٩١٨ وحاول مباشرة أن يستأنف مهنته التحليلنفسية.

-٢-

عاشت ڤيينا في تلك الفترة مرحلة من الفوضى الاقتصادية، فقد تلاشت امبراطورية آل هابسبورغ ولم تعد ذلك المركز العظيم للامبراطورية القديمة وتحولت إلى بقعة مهجورة تقريباً، بقية منكمشة من ماضيها، وأصبح الحصول على الطعام

* تمّ تبنّي هذا الإقتراح في مؤتمر «بادهامبورغ» في عام ١٩٢٥.

مشكلة حقيقية. نذكر- مثلاً- أن عائلة فرويد تزودت بالطعام عن طريق الأتباع والمرضى، أما الآخرون فاعتمدوا على أصدقائهم في الريف. والحصول على الفحم تطلب كفاحاً حقيقياً. كانت شقة فرويد أبرد من غيرها لأن أفراد العائلة فضلوا - حفاظاً على خصوصياتهم- العيش في غرفهم المنفصلة على التجمع في غرف مركزية[٦]. وكان شتاءا عامي ١٨- ١٩١٩ و ١٩١٩ - ١٩٢٠ هما الأكثر قسوة، وقد زاد الطين بلّة أن قيمة النقود بدأت تتلاشى بسبب التضخم المتزايد، وارتفعت الأسعار بسرعة أكبر من ارتفاع أجور فرويد وهذا جعله بدون رأسمال، وحين توقف التضخم كانت مدخرات كل حياته قد تبخرت عملياً.

لقد شملت صعوبة الحياة جميع سكان ڤيينا، وخاصة أولئك الذين لايملكون مهنة مستقرة. كان وضع تاوسك حرجاً على نحو خاص ولابد أنه أحس بالوهن إذ كان عليه- وهو في سن الأربعين تقريباً - أن يعيش حياة طالب مدقع في محاولة لمساعدة عائلته.

ونظراً لكونه محللاً نفسياً ألفى تاوسك نفسه في مواجهة شديدة الصعوبة مع هذه الظروف. وفي تلك الأيام، لم يكن المحلل يمارس العلاج النفسي المحدود الذي يستغرق عدة جلسات خلال فترة زمنية قصيرة إضافة الى ممارسة التحليلات النفسية الشاملة (كان التحليل في تلك الفترة يعني استرخاء المريض على سرير المحلل ستة جلسات أسبوعياً ولمدة تقارب ستة أشهر أو سنة). أما في هذه الأيام فالوضع مختلف تماماً، إذ يقوم المحللون النفسيون بانتظام باستخدام مهاراتهم المستقاة من خارج المعالجة التحليلية الصارمة، ولكن التتلمذ على يد فرويد في ذلك العهد عنى ممارسة التحليل النفسي فقط طوال مرحلة العلاج التحليلي. واعتبرت ممارسة العلاج التحليلي من قبل المرشح لعضوية جمعية ڤيينا أمراً متعارضاً مع خضوعه للتحليل التدريبي حتى مرحلة متأخرة (١٩٣٨). لم يشعر فرويد طوال حياته بأنه حقق الانتصار ولذلك طالب أتباعه بالتفاني المطلق في سبيل التحليل النفسي.

- إذاً، فالمريض الذي يبحث عن علاج نفسي قصير المدة لن يقصد - على الأرجح - محللاً فرويدياً. وفي ظل الوضع الإجتماعي المضطرب كانت قلة من المرضى في مستوى يسمح لهم بالخضوع للتحليل النفسي الرسمي. ورغم أن العلاج التحليلي كان أقل طولاً منه اليوم، إلا أنه تطلب حداً أدنى من الأمن الاقتصادي والسياسي. إضافة لكل هذا، كان على المرضى أن يتجهوا إلى محلل معين من خلال فرويد بالذات، وهكذا وجد تاوسك نفسه معتمداً على عطف فرويد وقبوله الشخصي له، ولم يكن قادراً على الدفع سوى المرضى الأمريكيون، أما الآخرون فإن قيمة نقودهم - في حال دفعوا- تصبح ضئيلة في المستقبل القريب.

تعرض تاوسك والعديد من أصدقائه وزملائه للمشاكل ذاتها، ولكن معظمهم لم يكن في وضع حساس مثله. قدم بول فيدرن مثلاً إلى التحليل النفسي من الطب الداخلي، ولذلك عاد بسهولة خلال تلك الأزمة الى ممارسة مهنته الطبية.

نظراً لتدني أجور العمل في المشافي، بحث تاوسك عن منصب أكاديمي في الطب النفسي رغم ازدرائه الشديد لهذا الحقل. كان الطب النفسي القييني وصفياً وشكلانياً ويفتقد الفهم الدينامي للصراعات الداخلية (وهذا الأمر أصبح ممكناً مع منهج فرويد)، إضافة إلى أن تاوسك شارك فرويد في ازدواجية المشاعر تجاه الطب النفسي إذ رغب في الحصول على منصب جامعي رغم عدم احترامه له.

على قاعدة كتاباته أثناء الحرب عن الإضطرابات الذهانية أحس تاوسك بأنه مؤهل لمثل هذا المنصب. كتب فرويد في نعوته: «إن نشاطاته السريرية التي ندين لها ببحوث قيّمة في الذهانات المتنوعة (مثل السوداوية والفصام) بررّت آماله المشروعة وأهلّته لتبوأ المنصب الذي تقدّم له للعمل كمحاضر في الجامعة Dozentur). كان بمقدور تاوسك الحصول على منصب في الطب النفسي في بلغراد أو زغرب في أي وقت يشاء، ولكنه، وقد جرّب من جديد الحياة في بلد ناءٍ، لم يكن مستعداً

للتخلي عن طموحاته في شقّ طريقه في ڤيينا، ولعل عمله محاضراً في جامعة ڤيينا بداية لمسيرة جديدة في حياته، ولكن الحصول على هذا المنصب كان صعباً في حال المحافظة على العلاقة مع فرويد لأن التحليل النفسي لم يكن مقبولاً في الحلقات الجامعية في ذلك الوقت.

امتلك تاوسك طموحاً آخر معارضاً للأول- بمعنى ما- شجعه عليه إبداعه في كتابة المقالات أثناء الحرب، فقد ذهب إلى فرويد- بعد شهر تقريباً من عودته- وطلب أن يحلله نفسياً وكان أمله كبيراً بأن يقبل فرويد طلبه. وبغض النظر عن آراء الأكاديميين فيه، كان فرويد أعظم عالم نفس في عصره. لقد خلّف تاوسك وراءه أعمالاً أساسية جعلته يحس بأنه مؤهل لهذا الإمتياز إضافة إلى أنه بدأ لتوه في تأليف كتاب في الطب النفسي. أدرك تاوسك أنه لايزال يعاني من بعض الإشكالات الشخصية غير المحلولة ولم يكن يتصور ذهابه إلى محلل آخر سوى فرويد.

لقد عارض تاوسك مؤخراً حركة نونبرغ الداعية إلى إلزامية خضوع جميع محللي المستقبل للتحليل التدريبي، ولعل موقفه من هذا الموضوع عبّر عن قلقه من عدم قبول فرويد لتحليله. فإضافة لإدراكه باستمرار إشكالاته الشخصية الداخلية، لابد أنه أدرك أن حضوره مصدر تنغيص لفرويد. لاحظت «لو» مبكراً ومنذ مؤتمر ميونيخ عام ١٩١٣ أن فرويد «يقُصيه بوضوح»(٧)، فقد عارض صياغات تاوسك حول النرجسية واعتبرها «مُبهمة»، ولكنه امتدح أحدث أعمال تاوسك عن الفصام(٨). ربما تمكّن فرويد من إخفاء أحساده القديمة بسبب «لو»، ثم إن هذه العلاقة قد انتهت منذ خمس سنوات. كان تاوسك في هذه المرحلة - بالنسبة للعالم الخارجي- قد عاد من الحرب فاقداً لكل شيء ويحتاج للمساعدة.

رفض فرويد طلب تاوسك. ولابد أن تغطية ماأضمره هذا الرفض قد تطلب بعض الوقت لأن الحقيقة العمياءلم تكن خافية على أحد. حدّث تاوسك أخته يلكا عن هذا الموضوع في ڤيينا ودافع فرويد عن رفضه أمام تلاميذه الآخرين، فأوضح

لنونبرغ مثلاً أنه رفض تحليل تاوسك لأنه «كلب مربوط بسلسلة» وأنه خاف من تفاقم المشكلة القائمة بينهما وتحولها إلى شجار مفتوح داخل الجمعية إن هو وافق على تحليله، وعبّر عن خشيته من أن «ينبح» تاوسك عليه . لقد هدّد تاوسك بالتهام فرويد[٩] . ورغم أن رفضه قد زاد من توتر علاقته مع تاوسك، كان فرويد لايزال مقتنعاً بقدرته على إبقائه ضمن الحظيرة، وهكذا حوّل مريضاً إلى تاوسك بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩١٨ ولكنه مريض عاجز عن الدفع .

حاول فرويد أن يتوصل إلى تسوية مع تاوسك فأوصاه بالذهاب إلى طبيبة نفسية أحدث منه عهداً بما يزيد على خمس سنوات وهي الطبيبة «هيلين دويتش» التي تعهدها فرويد بالتحليل منذ بدايات خريف ذلك العام، وعندما بدأ تاوسك يتردد إليها بقصد العلاج في شهر حزيران من عام ١٩١٩ كانت قد أمضت ثلاثة أشهر من تحليلها على يد فرويد . ورغم خبرتها الكبيرة في الطب النفسي، كان تاوسك مريضها التحليلي الأول . لقد شكّل قرارها بالإنضمام إلى فرويد مكسباً لجماعته في ڤيينا .

رتبت هيلين أمورها بحيث تخضع للتحليل على يد فرويد في ربيع عام ١٩١٨ . وعندما تطرقت إلى هذا الموضوع للمرة الأولى مع فرويد سألها عن موقفها في حال أرسلها إلى محلل آخر وأجابت بأنها لن تذهب إلى أي محلل آخر، وفي النهاية وافق فرويد على تحليلها في خريف ١٩١٨ . لقد برزت هيلين دويتش - كونها امرأة- بسرعة، إذ لم يكن في مدرستها الطبية سوى سبع نساء حصلت ثلاث منهن فقط على الشهادة . في تلك الأيام مارست قلّة من الطبيبات مهنة الطب النفسي ولم يقبل فرويد بتدريب سوى قلة من النساء مع أن التحليل النفسي أصبح فيما بعد مجالاً تستطيع النساء فيه الوصول إلى القمة . وعندما وافق فرويد على تحليل الطبيبة النفسية الهنغارية- رادو ريفيزتس Révész - تشجعت هيلين على طلب تحليلها هي أيضاً . لقد حلّت هيلين مكان تلك الطبيبة وأخذت ساعتها التحليلية .

حين تعهدها بالتحليل في خريف عام ١٩١٨، لم تكن هيلين دويتش وافداً جديداً تماماً على حلقة فرويد، إذ كان من حقها- خلافاً للآخرين الذين يتوجب عليهم الحصول على إذن شخصي من فرويد للإنضمام إلى جمهور محاضراته الخارجي- الحضور أوتوماتياً كونها عضو في الهيئة العيادية لڤاغنر ياورغ (مثلها كمثل تاوسك). استمعت هيلين إلى إحدى محاضرات فرويد في قاعة محاضرات ڤاغنر ياورغ منذ مرحلة مبكرة تعود إلى عامي ١٩١٤- ١٩١٥، وقد تعرفت إلى أفكار فرويد للمرة الأولى حين قضت عاماً (١٩١١) في ميونيخ وهي طالبة لدراسة الفصام بإشراف إميل كرايبلين «Emil Kraepelin» الشهير (أدخل كرايبلين مقداراً كبيراً من التنظيم إلى الطب النفسي، ولايزال الأطباء النفسيون الحديثون يعملون حالياً وفي أذهانهم تحديداته، ومع ذلك اعتبره فرويد مجرد «رجل فظّ»). إلى ميونيخ، أرسل إليها أحد أصدقائها الڤيينيين (وهو الدكتور جوزيف راينهولد) نسخة من كتاب فرويد «تفسير الأحلام» وكانت تعمل حينها مع فصاميّ مختلط. وعندما استخدمت هيلين مفاهيم فرويد لفهم حالة هذا المريض تساءلت إحدى الممرضات عمّن أكثر جنوناً بينهما رغم أن هيلين أحست أنها قادرة - للمرة الأولى- على فهم صراعات مريضها.

مع عودتها إلى ڤيينا، عرفت هيلين المزيد من عمل فرويد. دعاها فرويد في عام ١٩١٦ إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسي لمناقشة مقال شديد الصعوبة كتبته لو أندرياس سالومي*.

بدأ اسم «هيلين» يزحف تدريجياً إلى نشاطات المجموعة وأصبحت تطرح آراءها الخاصة هناك منذ بداية عام ١٩١٨ وكانت إحدى المناقشات في أمسية مكرسة لنقاش مقالة تاوسك عن «الآلة المسيطرة» في الفصام (١٨/ ٦/ ١٩١٨).

---

* نتساءل فقط إن كان فرويد مدركاً لنقاط التشابه بين «لو» و «هيلين». أما بالنسبة لهيلين فمن المؤكد أنها اعتبرت «لو» امرأة منافسة ناجحة.

-٣-

بخضوعها للتحليل على يد فرويد، أدركت هيلين فوراً أن عليها أن تغادر موقعها في عيادة ڤاغنر ياورغ. كان ڤاغنر ياورغ شخصية عظيمة في حياتها (خلافاً لكرايبلين الذي اعتبرته معلماً مملاً جداً). ورغم سخريته من اهتمامها الفائق بفرويد*، كان يحترمها كطبيبة نفسية وحثها في عام ١٩١٣ على الرجوع إلى ميونيخ للإطلاع على ماوصل إليه كرايبلين في الحدود النفسية. نذكر مرة أخرى أنّ عيادة ڤاغنر ياورغ شكلت القبضة القوية للطب النفسي في ڤيينا، وهناك بقيت هيلين مدة سبع سنوات ابتداء من عام ١٩١٢.

في ذلك الوقت لم يكن متاحاً للنساء استلام مواقع سريرية واقتصر تعيينهن على المواقع النظرية. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى والتحاق الأطباء النفسيين الذكور بالخدمة العسكرية وظروف الحرب الاستثنائية ارتقت هيلين إلى مرتبة مساعد مسؤول القسم النسائي واحتل، أوتوبوتسيل Otto Pötzl» منصب مساعد مسؤول قسم الرجال (أصبح «بوتسيل» فيما بعد أستاذاً في الطب النفسي في جامعة براغ ثم خليفة لڤاغنر ياورغ في ڤيينا). ورغم عدم إمكانية تعيينها رسمياً في منصب «مساعد مسؤول» - كونها امرأة- فقد أعطاها ڤاغنر ياورغ عند مغادرتها لعيادته ورقة تقول بأنها قد أدّت مهام هذا المنصب**. وخلال الحرب، تحملت هيلين مسؤولية تشخيص حالات المرضى لتقرير ضرورة إدخالهم إلى المصحات النفسية، وقد أنجزت- إضافة إلى هذه المهمات العيادية- بعض الكتابات العلمية فنشرت - مثلاً- مقالاً عن تأثير الغاز في إتلاف جزء من الدماغ البشري.

اجتذبت هيلين اهتمام فرويد كتلميذة محتملة لأنها - بالضبط- عضو في عيادة ڤاغنر ياورغ إضافة إلى اهتمامه الفائق بأي خارجيّ Out Sider يفد إليه.

---

* كأن يقول مثلاً لإحدى مريضاتها: «هل أدخلت الدكتورة دويتش في ذهنك فكرة أنك ترغبين في إنجاب طفل من والدك؟».

** - في الشهادة المؤرخة بتاريخ ١٢/ ١٠/ ١٩١٨ بيّن ڤاغنر ياورغ أنها كانت مساعد «تقريباً» وذلك لتغطية لاقانونية المنصب الذي احتلته.

أدركت هيلين- بمجرد خضوعها للتحليل على يد فرويد- أن عليها أن تغادر العيادة، لأن فرويد نظر إلى الطب النفسي كعدوٍّ له نتيجة لعدائية العالم الخارجي تجاه أفكاره مما دفعه إلى التوجّه صوب مجموعته الصغيرة والشعور بالعداء تجاه أي شخص لايقطع روابطه الأخرى. رغب فرويد - من جهة- في أن تنْفذ تعاليمه إلى العيادة، ولكنه أحس - من جهة أخرى- باستحالة خدمة إلهين في آن واحد. لقد أغضبه رفض العيادة له فنأى بنفسه بعيداً عن الطب النفسي، ورغم ذلك أراد بإلحاح تغيير الجو الرسمي.

أحست هيلين دويتش بأن موقف فرويد إزاءها هو موقف إما / أو، وقد عبّر بعض تلاميذ فرويد عن اضطرارهم للانسحاب من التحليل النفسي لأن لهم اهتمامات في حقول أخرى. ولكن- في حالة هيلين- فإن ضغط العيادة هو الذي دفعها إلى مغادرتها، إذ عاد الدكتور بول شيلدر Paul Schilder من الحرب (وهو صديق حميم لها)، ومع معرفتها بتفضيل ڤاغنر ياورغ له وإمكانية حصوله - كونه رجلاً- على منصب أكاديمي ( أصبح فعلاً- فيما بعد- أستاذاً في جامعة ڤيينا) وإكراماً له - إضافة إلى طموحاتها مع فرويد - فقد غادرت العيادة وأصبحت من أنصار فرويد وعملت مساعداً في عيادة «كاربلوس Karplus» العصبية لأن علم الأعصاب أقل تهديداً لفرويد كونه لايتداخل مع التحليل النفسي فضلاً عن قربه من الإهتمامات الشخصية السابقة لفرويد الذي عمل في هذا المجال قبل إكتشافه للتحليل النفسي.

علاوة على نجاحها المهني، عاشت هيلين دويتش حياة شخصية سعيدة، تعرفت «هيلين روزنباخ» (اسمها قبل الزواج) في عام ١٩١١ على طبيب أمراض داخلية في ميونيخ هو الدكتور «فيلكس دويتش» وتزوجت منه قبيل حصولها على شهادتها الدراسية في العام التالي وأنجبت منه طفلاً في عام ١٩١٧، وعندما خضعت هيلين للتحليل على يد فرويد كان زوجها بمرتبة محاضر Dozent في الجامعة وهذا مارفع من أهمية انضمامهما في عيني فرويد الذي كفل لهما معيشتهما

- كجزء من جهده لكسبهما معاً- عن طريق تأمين عمل للدكتور فيلكس في English Occupation Staff. فيما بعد، ساهم فيلكس في تأسيس الطب السيكوسوماتي (الجسدي- النفسي). تعرف فيلكس وهيلين إلى تاوسك منذ عام ١٩١١ حيث قام جوزيف راينهولد (وهو أحد شاهدي زواجهما) بتعريفهما على صديقه الحميم ڤيكتور تاوسك. وقد غيّر راينهولد (الذي أرسل إلى هيلين نسخة من «تفسير الأحلام» مجرى حياته فانضم إلى حلقة فرويد مفضلاً التحليل النفسي على الفلسفة، ولكنه أحس بعد فترة بأن جوّ حلقة ڤيينا التحليلية شديد الضيق ولذلك فرّ بعيداً عن الإختناق التدريجي الذي شعر بأنه يجرفه (إن الحفاظ على الذات قد يجري في قنوات منفصلة). رفض راينهولد فيما بعد- الإعتراف بالخطر النازي ولم يدرك ذلك إلاّ في وقت متأخر جداً بالنسبة له). اندفع راينهولد في السنوات السابقة للحرب وراء أفكار فرويد مثله كمثل تاوسك تماماً. أمضى تاوسك وهيلين دويتش برفقة هوتشغارت وراينهولد ساعات عديدة في مناقشة قضايا مهنية رغم النفحة المعادية للنساء عنده (ربما بسبب تجربته مع مارثا) فسخر أحياناً من تعارض نجاح هيلين المهني مع دورها كزوجة. يشكل دخول تاوسك في علاقة تحليلية معها في شتاء عام ١٩١٨ ترتيباً مختلفاً تماماً للأدوار بينهما.

في عام ١٩١٥، تعرضت «نادا» الشقيقة الصغرى لتاوسك والتي كانت في مدرسة في ڤيينا، لبعض الصعوبات في علاقتها مع خطيبها ولذلك أرسلها تاوسك الذي يكنّ لها حناناً فائقاً إلى هيلين دويتش بقصد العلاج. أوصتها هيلين بقطع علاقتها مع فتاها لأنها لاتحبه بشكل حقيقي، ولكن «نادا» التي لم تكن مهيأة بعد لإتخاذ مثل هذه الخطوة، توقفت عن زيارة هيلين بعد عدة جلسات. إن مافعلته هيلين لم يكن تحليلاً نفسياً منهجياً أبداً ولذلك تذكرت نادا بمرارة - بعدما ينوف على خمسين عاماً- سرعة دويتش في الحفر عميقاً في أغوارها- وهو دافع نمطي تميز به تلاميذ فرويد. في شهر حزيران من عام ١٩١٩ أوصى فرويد بأن يحلّل تاوسك على يد هذه الطبيبة النفسية الموهوبة، ومع هذه التوصية توجب عليه أن يقدّم بعض الإيضاحات عن حالته إضافة إلى الأسباب التي تمنعه من قبول تحليله بنفسه،

فأخبرها بأنه يحس بالكفّ في حضور تاوسك ويشعر بالقلق وعدم الارتياح معه- كما ذكرت «لو» تماماً- وهذا التنغيص يفوق طاقته على الإحتمال. وخلافاً لما حدث في شيخوخته المتقدمة لاحقاً إذ سمح لابنته «آنا» بأن تُلقي مقالاته بدلاً عنه في الإجتماعات، فإنه، في عام ١٩١٩ كان لايزال يأتي إلى الجمعية بأفكاره المتدفقة.

أخبر فرويد هيلين بأن وجود تاوسك في الجمعية، والذي يتيح له أن يأخذ إحدى أفكار فرويد ويطورها قبل أن ينجزها فرويد تماماً(١١)، يخلق لديه انطباعاً بشيء «خارق Uncanny». وقد لاحظت «لو» مدى نفور فرويد من الإضطرار للخوض في «نقاش مبتسر»، ولذلك فإن التوتر بين الرجلين في لقاءات الجمعية سيزداد لو وافق فرويد على تحليل تاوسك. عبّر فرويد عن تذمره لهيلين لأن تاوسك لايكتفي بتلقي الأفكار فقط بل يتعداها إلى الإقتناع بأنها نتاجه هو وحده وإن خوض صراع معه حول حقوق الملكية والأسبقية في إبداع فكرة ما أمر يرفضه فرويد تماماً. إذن فقد استمر الوضع الذي وصفته «لو» فيما مضى مع التعقيد الإضافي النابع من أن تاوسك قدّم أفضل نتاجاته خلال الحرب وهذا ماشجعه على توقع المزيد من تقدير فرويد. أوضح فرويد فيما بعد لتلميذ آخر بأنه لن يكون قادراً على نشر سطر واحد - لو وافق على تحليله- دون اعتقاد تاوسك بأنه قد سرق منه(١٢). كان تاوسك الشخص الوحيد في المجموعة المتألق إلى حد منافسة فرويد.

إن موضوع «السرقات الأدبية» يشغل بال جميع الكتّاب. هل يمكن لكاتب أن يشعر ولو لمرة واحدة بأنه اعترف تماماً بكل ديونه الفكرية؟ ألا يعجز الطلاب أحياناً عن الإعتراف بالأطر المفهومية التي قدّمها لهم أساتذتهم؟ يمتلك جميع الناس أفكاراً كامنة أو غير ناضجة وقد يقتبس بعضهم من فرويد ولكن ليس في الأماكن الصحيحة. كان المزيد من الإكتشافات بانتظار فرويد الذي قد ينجزها بطريقة مقنعة إلى حدّ يدفع تاوسك إلى الإعتقاد بأنه أول من فكّر بها فيوسّع مفاهيم فرويد بربطها مع مادته السريرية دون أي تمييز بين نصيبه هو ونصيب فرويد منها.

إن الخوف من السرقات الأدبية ينتاب حتى كتّاب الإبداع. قال همنغواي أنه قد تعرض دائماً لهذه المشكلة «يقوم كتّاب آخرون بسرقة مادتي»[١٣]. وفي العلوم أصبح موضوع الأسبقية في الإكتشاف شديد الأهمية. إن موضوع الإبداع - وبالتالي حقوق الملكية- طبيعي تماماً في أي مجموعة علمية. ترى من اكتشف الإرتقاء من خلال الإنتخاب الطبيعي أولاً «داروين» أم «والاس»؟

ومايزيد الأمر سوءاً أن قنوات «الإنتحال» - على الأرجح - غير واعية، فيمكن بسهولة أن نخطىء في تحديد مصادر أفكارنا دون أن يمس ذلك بنزاهتنا إطلاقاً. إذ أننا جميعاً نرغب بحرارة في نسيان ديوننا الفكرية. علاوة على ذلك، فإن علم نفس الأعماق حقلٌ لايمكن البرهنة إلا على جزء قليل منه بشكل موضوعي لأن التجديدات الرئيسية فيه تأتي من كيفية تصورنا لمجرى العمليات الذهنية، بينما ترتبط صراعات الأسبقية في حقل العلوم الطبيعية - على الأقل- باكتشافات أكثر موضوعية.

-٤-

أحب فرويد دائماً أن يداعب أفكاره لسنوات عديدة قبل أن ينشرها وقد أشار مراراً إلى إحجامه عن نشر كتاب أو مقال أو حتى فكرة منفردة واشتكى من اضطراره - بعد تجمع الطلاب حوله- إلى النشر بسرعة زائدة أما في سنوات العزلة فكان بمقدوره أن «يحمل» بأفكاره طويلاً دون تدخل من العالم الخارجي (يستخدم فرويد في رسائله صوراً تتعلق بالإخصاب). لقد نما إبداع فرويد في ظل الوحدة ولكنه - عندما حانت لحظة التوصيل- احتاج إلى التلاميذ. وبخصوص الأفكار التي لم يصقلها تماماً بعد، كان يخشى من أن يستولي عليها تاوسك وينضجها لحسابه قبل أن يرسمها فرويد في ذهنه. إن الإبداع عند فرويد عملية هضمية أما عند تاوسك فهو من النوع الإنفجاري دائماً، وثمة جوهر واقعي يبرر مخاوف فرويد تجاه تاوسك. يمتلك فرويد - على الأرجح- إدراكاً داخلياً لفكرة ما قبل فترة طويلة من قدرته على صياغتها بدقة.

إن طريقة فرويد الخاصة بالعمل تتعرقل بحضور تاوسك. كان فرويد تملكياً - بحكم الضرورة جزئياً- حيال أفكاره، فبين طلابه من سرق بعض أفكاره. وفيما يخص تاوسك، فإنه لم يكتف بأن يعكس الأفكار التي عرضها فرويد أمام الجمعية - وهو الدور الذي لعبته «لو» بامتياز- بل امتلك من الذكاء ماأهّله لتمثل هذه الأفكار وتطويرها لحسابه الخاص، وخشي فرويد من أن تبدو له وكأنها من بنات أفكاره. وفي مواجهة إلحاح تاوسك في طلب التقدير ورغبته بأن يكون ابناً محبوباً إضافة إلى حاجته للمساعدة العلاجية، أراد فرويد فقط أن يجد الهواء ليتنفس. لم يكن راغباً في تحليل شخص قد يتجادل معه. ولكن هيلين دويتش لم تكن قادرة على أن تشكل الخيط الواصل بينهما لأنها حديثة العهد في حلقة فرويد.

إذن فقد رفض فرويد تحليل تاوسك - وكان نزيهاً قدر المستطاع بالنسبة لأسبابه- وأرسله إلى طبيبة نفسية تعهدها مؤخراً بالتحليل، إن هذه الإحالة مدعاة زهوٍ لهيلين دويتش بينما شكلت إهامة موجعة لتاوسك لأنها - رغم خبرتها كطبيبة نفسية- محللة نفسية مستجدة وكلاهما يعرف أن تاوسك - الذي ينتمي إلى الجيل الأقدم من المحللين الذين لم يخضع سوى قسم ضئيل منهم للتحليل- قد أنجز عملاً أفضل منها في هذا المجال. لقد وافق فرويد على تحليل أطباء نفسيين آخرين من ڤيينا(*)، وهذا يؤكد أن رفضه لتحليل تاوسك كان خاصاً به. لابّد أن يبدو لنا اقتراح فرويد بتحويل تاوسك الى هيلين في الوقت الذي تخضع فيه هي للتحليل عنده غريباً. لماذا وافق تاوسك على الذهاب إليها رغم عدم اضطراره لقول هذه الإهانة؟ في هذا المجال لعبت إشكالات تاوسك الشخصية دوراً تخريبياً لمجرى حياته.

لقد تنبأت «لو» بعجزه عن الاستقلال التام، وأدرك تاوسك بعضاً من عناصر ضعفه من خلال علاقاته مع النساء. ولأنه عاجز عن الإستقلال أراد من الآخرين

---

* في وقت لاحق من ربيع ذلك العام (١٩١٩)، وافق فرويد على تحليل شخص أقل تميّزاً حتى من هيلين دويتش وهو الدكتور «روبرت يوكل Jokl) وحلله فرويد مدة شهرين ونصف فقط بعد أن أوضح له مقدّماً أنه سيعهد به إلى شخص آخر حالما يقرر من هو الأنسب لتحليله. كان فرويد قد شرع بتحليل أجانب يدفعون أكثر ويضغطون وقته ولم يبق بمقدوره أن يمنح إلاّ جزءاً محدوداً من وقته لتحليل المحللين الڤيينيين.

ألا يعتمدوا عليه. لقد كتب لزوجته أنه لايستطيع أن يحب إلاّ الأشخاص «الأحرار»، أما الذين يعتمدون عليه فإنهم يجعلونه تابعاً وهذا يدفعه إلى الثأر لنفسه. إنه يستطيع - في علاقاته بالآخرين- أن يسيطر على ساديته دون خشية من تحطم حبه بالذات فقط عبر الإحتفاظ بمسافة عنهم، ولذلك جذبه عنصر الإكتفاء الذاتي لدى فرويد (وكذلك في حالة «لو»). لقد رفضه فرويد جزئياً، وهذا بالضبط مامنحه ذلك المركّب من الدعم والمسافة الذي جعله يشعر بالإطمئنان.

- ابتلع تاوسك الإهانة وذهب إلى هيلين بقصد التحليل. وبمقدور هيلين - نظراً لأن فرويد يحللها- أن تلعب دور الجسر الواصل بينه وبين فرويد، فهي ستستلقي على سرير فرويد التحليلي ستة مرات أسبوعياً - كحالة هو معها- وبالتالي فإن فرويد سيحلله من خلالها. ومرة أخرى يدخل تاوسك مع فرويد في علاقة ثلاثية عبر امرأة، إنها تقريباً القصة ذاتها التي جرت مع «لو»، وفي الحالتين تلعب امرأة جذابة دور القناة الواصلة بينهما. يعرف تاوسك أن المرأة لاتشكل تهديداً بالنسبة لفرويد وأنه يستطيع من خلالها أن يدافع عن نفسه. أما بالنسبة لفرويد فقد شكلت هيلين مصدراً للمعلومات المتعلقة بتاوسك تماماً كما كانت «لو» سابقاً.

استمر تحليل تاوسك مدة ثلاثة أشهر (من شهر كانون ثاني حتى اذار من عام ١٩١٩)، وهي فترة قصيرة جداً حتى في تلك الأيام. إن العلاج التحليلي النموذجي يتطلب من المريض أن يسترخي على السرير ويقوم بالتداعي الحر معبراً عن جميع أفكاره وآرائه في حضور محلل متكتم «كالمرآة.. ولايُظهر (للمريض) إلاّ مايراه منه (أي من المحلل)»[١٥]. أراد فرويد أن يعكس تلاميذه أفكاره وأعتقد أن للمرضى أيضاً هذا الامتياز. لقد سمح فرويد للآخرين بمثل ماسمح لنفسه.

على المحلل أن لايفرض موضوعاً معيناً بل بكتفي بأن يناقش المريض في تلك المواضيع التي يطرحها فقط. إن برودة المحلل وابتعاده وحياديته تسمح للمريض بأن يطور استيهاماته وآماله تجاه المحلل. إن هذه الإستيهامات والآمال تعكس صراعات

المريض وإشكالاته القديمة، ويشكل إسقاطها على المحلل مايسمى بظاهرة «التحويل» التحليلي، وعندئذ تصبح مهمة المحلل أن يساعد مريضه في تفسير الإرتكاسات وقيادته - عبر هذا الطريق - نحو تفهم عقلاني لإشكالاته، وهذا التفهم يمكّن المريض من تفكيك ارتكاساته الوجدانية المثبتة في الماضي.

يشكل «التحويل» من المريض تجاه المحلل الوسيلة الحاسمة في العلاج حسب منظومة الأفكار هذه ولكن هذا التحويل لم يحدث أبداً بين تاوسك وهيلين، ولعل السبب هو أن معرفته بها لاتقتصر على كونها زوجة وأمّاً لطفل بل تتعداها إلى معرفة شخصية جيدة تفوق معرفته بفرويد، ولهذا تبينت استحالة تحوّلها إلى شاشة حيادية بيضاء يستطيع أن يُسقط عليها صراعاته الوجدانية التي تعود إلى طفولته. وبدلاً من أن تصبح هيلين مرآة يصل تاوسك من خلالها إلى فهم ذاته فإنها شكّلت مجرد طريق واقعي يؤدي إلى فرويد.

كان اضطراب تاوسك في السابق جلياً ومرّ بمراحل من الإكتئاب واليأس التام وتعرض لأطوار الهياج الإكتئابي فاعتاد خلالها - مثلاً - على المضيّ في دار سينما إلى أخرى طوال فترة مابعد الظهيرة والمساء، وترافق ذلك مع اضطراب عمله وقراءاته سواء بقي منفرداً أو بصحبة أشخاص آخرين، ومع ذلك استطاع أن يتعامل مع التمزق الحادّ الذي عاناه خلال حياته واستمر دائماً في أداء المهمة الصعبة الملقاة عليه كطبيب نفسي وماتنطوي عليه من تحمل التوتر الوجداني يومياً.

والآن مع شتاء ١٩١٨ - ١٩١٩ - تعرّض إلى مجموعة جديدة من الإشكالات الدقيقة إضافة إلى قلقه تجاه ابنه ماريوس. لقد عانى تاوسك لسنوات عديدة من المصاعب المالية وهاهو الآن على مشارف الأربعين من عمره وحياته غير مستقرة كدأبها دوماً. ومع نظافته ومظهره البورجوازي يصعب تخمين مدى سعادته أو اضطرابه الداخلي. لقد ترهل جسمه قليلاً وأصبح مظهره يوحي بالسمنة واكتسب مشية ومظهر رجل في متوسط العمر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبغض النظر عن صراعاته الداخلية والأزمة الاقتصادية وعلاقاته المتوترة مع فرويد، فقد بدا وكأنه يشق طريقه في مهنته وأوتي القدرة - حسب رسالة بعثها لفرويد في ١/ ٣/ ١٩١٩- على رؤية سبعة مرضى يومياً (ستة منهم بأجر، والسابع مجاناً). دفع تاوسك أتعاب هيلين وفقاً للقاعدة التحليلية. اعتقدت هيلين أنه يعاني فقط من عُصاب يتركز جزء منه حول فرويد. ورغم أن تاوسك مريضها التحليلي الأول يُتَوقَّع منها - نتيجة لتجربتها السريرية الكثيفة- أن تستطيع تحديد العناصر الفصامية في اضطراباته في حال وجودها، فالفصام يظهر كجزء غريب لايستطيع المحلل تحديد هويته تماماً. نحن لاننفي طبعاً صعوبة اكتشاف الفصام في حالة شخص بمستوى ذكاء تاوسك.

لعل معرفة هيلين لم تكن بمستوى يؤهلها لتشخيص إشكالات تاوسك، ومن المؤكد أن فرويد لم يقدم لها أية تحذيرات خاصة. ولعل تاوسك كان واحداً من أولئك الأشخاص القادرين على أن يلعبوا دوراً يتجاوز إمكاناتهم النفسية متسترين وراء واجهة معينة. يكون الفصام أحياناً من النوع الغادر، وربما كان تاوسك يتصارع مع انفجاره. تكمن فوائد تشخيص حالة المريض في تحديد التوقعات الممكنة. . لم تظهر على تاوسك- خلال أشهر التحليل الثلاثة- أية ميول انتحارية ولم تفتر علاقاته مع الآخرين أو تتدهور أبداً، لقد ظل شخصاً دافئاً ونشيطاً ومرحاً واجتماعياً ومتواصلاً بشكل جيد مع الآخرين إضافة إلى موضوعيته وعلميته في عمله، ولايمكن لمن يتعرف إليه بحيويته ونشاطه ومحبته أن يخمّن ماضيه السوداوي.

خلال جلساته التحليلية، تحدث تاوسك بشكل دائم تقريباً عن فرويد، وبغض النظر عن المنشأ الأعمق لاضطرابات تاوسك، فقد تمركزت كلها الآن حول فرويد، ولكنه لم يثُر ضد فرويد بل اكتفى بالتعبير عن أسفه بسبب موقفه منه معتقداً أن المشكلة بينهما ناجمة عن صعوبات فرويد الشخصية لأنه سبقه إلى بعض الأفكار وأن فرويد يرفض الاعتراف بذلك. صحيح أنه لم يتهمه مباشرة بالإستيلاء على

بعض أفكاره، ولكن مضمون حديثه أن فرويد يعتمد عليه. لاشكّ أن تاوسك امتلك بعض الأفكار الخاصة به والتي قد تتوافق - في النهاية- مع مايفكر فيه فرويد. فعدا كونه محللاً نفسياً يدين لفرويد بالإطار العام لتفكيره، لم يعتبر تاوسك أبداً أنّ عمله مأخوذ من فرويد.

يعتقد بعض العظماء أن الحقيقة تكمن فقط فيما يفكرون به. لم يرحب فرويد كثيراً بالأفكار الإبداعية للآخرين لأنه أراد أن يتفحص بفكره هو كل شيء كجزء من إعادة صنعه للعالم، وتملّكته حاجة قوية للوصول إلى أية نقطة في عمله بطريقته الخاصة وعبر التطوير المستمر للمفاهيم التي أنجزها هو، ولذلك لم يتقبل أفكار الآخرين في صيغتها الأصلية إلاّ بعد تحويلها لتدخل ضمن طريقته الخاصة بالتفكير.

عالج جونز هذه السمة عند فرويد بحكمة معتبراً أنها دفاع ضد «سهولة التأثر بالآخرين»: «لقد امتلك فرويد بشكل فطري ذهناً مرناً ومتحركاً أتاح له أكثر التأملات حرية والإنفتاح على الأفكار الجديدة والأبعد احتمالاً. ولكن ذهنه يعمل وفقاً لهذه الطريقة شريطة أن تأتي الأفكار من داخله بينما يقاومها بقوة حين تأتي من خارجه وقدرتها محدودة على تغييره»(١٧).

لقد توجب عليه - حين يتعامل مع أفكار «غريبة» عنه- أن يتفحصها ويطورها بحيث تدخل ضمن بنيانه الفكري بالذات. كتب فرويد «أجد صعوبة في تحسس طريقي ضمن دروب التفكير غير المألوفة لديّ، ولذلك فإنني أنتظر حتى أعثر على نقطة احتكاك معها عبر ممراتي الخاصة المعقدة»(١٨). ولكن بمتابعته لهذه الممرات المعقدة وبعد مثل هذا الإنعطاف، هل يستطيع تذكر نقطة البداية؟. إن طريقة فرويد الخاصة في التفكير قد أزعجت تاوسك لأنها لاتتيح له أن يثق ولو لمرة واحدة من تحقيق ذاته بطريقة أصيلة.

إن مَيْل فرويد لنسيان مصادره ينسجم مع عجزه عن فهم وجهات النظر الأخرى، وقد اعترف مرة: «ليس من السهل عليّ. أبداً أن أتبع طريقاً جديداً في

التـفكيـر لايتـفق - علـى نحـو مـا- مـع طريقـي الخـاص، أولـم تقـدنـي بعـدُ طريقـي إليه»[١٩] . ولكن عندما ينتهي فرويد من هضم فكرة «غريبة» عنه، فإن شخصاً آخر- مثل تاوسك- قد يعتقد بأن إحدى مفاهيمه السابقة «المبهمة» مرّت بصمت بين يديّ فرويد بالذات.

إلى جانب مقاومته لأفكار الآخرين وعجزه عن فهمها إلاّ إذا اعتقد بأنه هو من اكتشفها، كان فرويد شديد الإهتمام تجاه استيلاء الآخرين على أفكاره، ومن نافل القـول أن نذكر صعوبة تحـديد السبّاق إلى هذه الفكرة أو تلك في جوّ حلقته الحـامي، وربما ناقش فرويد فكرة ما في ذهنه فقط، ولكنه - عندما يراها مطبوعة- قد يستنتج أن شخصاً آخر سرقها منه*.

إن إصرار فرويد على حقوق الملكية قد كفّ عمل تاوسك الذي حرص في مقالاته على ذكر كتابات فرويد وتسجيل التعليقات الشخصية التي تلقاها منه في هوامشه وهذا شكّل عبأً يُثقل عمله. مثلاً، أضعف تاوسك موضوع إحدى مقالاته التي نوقشت في الجمعية عبر اندفاعه الشديد لمناقشة بعض تعليقات فرويد الشفهية[٢٠].

-٥-

يصادف المرء موضوع «الإنتحال» في جميع مراحل حياة فرويد تقريباً. فلأنه طمح إلى الشهـرة العـالمية توجب عليه أن يخشى من انتزاع الآخرين لإحدى اكتشافاته الشخصية. مثلاً، في ثمانينيّات القرن السابع عشر- وقبل صدور أي

* اشتكى تاوسك منذ مرحلة مبكرة (عام ١٩١٣) لصديقه «إدواردو ڤايس Weiss» لأن فرويد يتجاهل أصالته ويعيق عمله عبر استيعابه لاكتشافاته ضمن منظومته الفكرية الخاصة. وفي تلك الفترة شكّك ڤايس في صحة إدعاء تاوسك لأنه لاحظ من تجربته الخاصة أن تاوسك يمتلك بعضاً من تلك السمة التي عزاها إلى فرويد، فقد اعتقد ڤايس أن تاوسك استولى على إحدى مقالاته قبل إنجازها النهائي. وانطلاقاً من اقتناعه بأن تاوسك يخلط المسائل أحياناً ويتصور أنه قال هذه الفكرة أو تلك، استنتج ڤايس خطورة كشف أفكاره أمامه. من جهة أخرى، تعرض ڤايس لتجربة شخصية مع فرويد في الثلاثينيّات إذ نسي فرويد إحدى مصادره وهي مقالة كتبها ڤايس بالذات[٢١].

عمل له في علم النفس- أضاع فرويد اكتشافاً ثانوياً عاماً لاستخدام الكوكائين كمخدر موضعي في عمليات جراحة العين، ولكن الأمر بدا له كضياع فرصة عظيمة، فقد أنهى بسرعة كتابة مقالة عن الكوكائين لأنه أراد زيارة مارثا في برلين. وأثناء غيابه أنجز طبيب ڤييني آخر ذلك الاكتشاف العظيم. كتب فرويد بعد مرور سنوات عديدة على تلك الحادثة: «إن خطأ خطيبتي منعني من أن أصبح مشهوراً منذ فتوتي. . ولكنني لم أحمل [لها]. . أية ضغينة بسبب هذه الإعاقة»[٢٢]. أحسّ فرويد - كتاوسك- بأن عليه أن يدفع ضريبة موهبته وأن عبقريته تتطلب تضحيات عظيمة. وقد تخيل فرويد أحياناً- كما جرى لاحقاً في صراعه مع تاوسك - أنه السبّاق إلى اكتشاف آخر إذ أوضح لأحد مرضاه - في عام ١٩٠٩ - أنه السبّاق إلى اكتشاف الكوكائين وأنه يستحق شرف هذا الاكتشاف[٢٣].

إن الخلاف الذي حدث في عام ١٩٠٤ حول الأسبقية يلقي مزيداً من الأضواء على خلافه مع تاوسك. ففي تسعينيات القرن التاسع ارتبط فرويد بصداقة حميمة مع «فيلهلم فليس Fliess»، وبعد أن فترت العلاقة بينهما ناقش فرويد إحدى أفكار فليس عن دور الثنائية الجنسية في الحياة الإنسانية مع أحد مرضاه (وهو هيرمان سڤوبودا Swoboda) الذي نقل هذه الفكرة بدوره إلى صديقه «أوتو ڤاينينغر Weininger»، وعلى حد تعبير فرويد «ضرب (ڤاينينغر) جبينه وأسرع إلى البيت فوراً لتأليف كتابه». لاقى كتاب ڤاينينغر نجاحاً هائلاً، وطلب فليس من فرويد تقديم تفسير لكيفية حدوث عملية السطو هذه على إحدى أفكاره[٢٤].

في جوابه، حاول فرويد أن يراوغ فأشار إلى كتّاب آخرين شددوا على دور العناصر الأنثوية في الذكور والعناصر الذكرية في الإناث معتبراً أن موضوع الثنائية الجنسية معروف منذأيام أفلاطون على الأقل. ولكن فليس نجح في تذكير فرويد أنه لعب دوراً أكبر مما اعترف به في استبعاد مفهوم «فليس» وأنه تناسى أيضاً نقاشاً قديماً معه حول «الثنائية الجنسية» فاضطر فرويد إلى الإعتراف برغبته في «سرقة إبداع» هذا المفهوم من فليس معتبراً أنه «لايمكن ترخيص الأفكار باسم شخص

معين» وكل مايستطيع فعله هو استرجاعها» إذا كان مهتماً «بحقوق الملكية والأسبقية»[٢٥]*.

لانعرف إن كان تاوسك قد سمع بأيّ من مسلسلي الكوكائين أو ڤاينينغر، ولكن لابد أنه سمع بالجدال الناشيء في عام ١٩٠٨ (قبل قدومه إلى ڤيينا بفترة قصيرة) حول كتاب من تأليف «ألبرت مول Moll» بعنوان «الحياة الجنسية للطفل». لقد اهتم «مول» بموضوع «الليبيدو الجنسي» على الأقل منذ صدور كتابه السابق في عام ١٨٩٨، واعتبره أعضاء جمعية فرويد منافساً وشخصاً قلّل من أهمية كتاب فرويد الصادر في عام ١٩٠٥ (ثلاث مقالات في النظرية الجنسية) ووجّه له آخرون تهماً مشابهة. ويكفي أن نذكر فقط عبارات الشجب التي قالها فرويد بحقه: إن دراسة مول «غير كافية ومتدنية المستوى، علاوة على ذلك فالكتاب برمته غير نزيه.. لأن اكتشاف الجنسية الطفلية تم على يد.. فرويد.. وقبل ذلك لم يرد أي ذكر لها في الأدب المكتوب.. لقد التقط مول أهمية الجنسية الطفلية من كتاب «ثلاث مقالات..» قبل أن يبدأ بتأليف كتابه. ولذلك تتخلل الرغبة في إنكار تأثير فرويد جميع صفحات الكتاب.. إنه شخص تافه وحقود وضيق الأفق» وختم فرويد كلامه قائلاً: «تحدث الطامة الكبرى إذا امتلك شخص خلو من الأفكار الأصيلة– مثل مول – فكرة جديدة ولو لمرة واحدة»[٢٧].

إن الاقتراب من عمل فرويد الشخصي يعني التعرض لخطر الإصابة بحنقه واعتبار أفكاره – كما جرى مع تاوسك– «مبهمة». عمل بيير جانيه، مثلاً، (وهو عالم أعصاب فرنسي)، على دراسة المعنى النفسي للأعراض في أواخر القرن التاسع عشر. واعترف فرويد بفضله وأسبقيته قائلاً في عام ١٩١٧: يستطيع جانيه «أن يدعي الأسبقية في النشر»، ولكن لأنه اتبع طريقاً مخالفاً لفرويد فإنه «توقف

* أقنع «فليس» أحد أصدقائه بأن يدين «سڤوبودا» علناً بتهمة «السرقة» ولذلك نشر رسائل فرويد حول هذا الموضوع دون إذن مسبق منه. ورفع سڤوبودا «دعوى تشهير ونشر رسائل بدون تفويض» على فليس. (اعتمد الكاتب الڤييني الساخر «كراوس Kraus» على قضية سڤوبودا في إحدى كتاباته). وكلّ سڤوبودا محامياً غير متمكن في قوانين التشهير الألمانية وإجراءات المحاكم ولذلك خسر القضية[٢٦].

عن فهم كتابات جانيه»[٢٨]. ادّعى جانيه في العشرينات أن فرويد انتحل أفكاره وحوّر مصطلحاته، ولهذا استاء فرويد: «إن بعض الكتاب الفرنسيين يشهّرون بي معتبرين أنني استمعت إلى محاضراتهم [أي جانيه] وسرقت أفكارهم»[٢٩]*.

في حين كان فرويد تنافسياً تجاه معاصريه في الحقول المجاورة وتلاميذه اللامعين - مثل تاوسك - فإنه مع حلول الحرب، كان يعتبر نفسه منذ فترة طويلة في مصاف أبطال الفكر. لقد وجّه التحليل النفسي- عبر تأكيده على خضوع الإنسان لقواه الداخلية اللاعقلانية- ضربة قوية لغرور الجنس البشري، وهذا دفع فرويد إلى مقارنة اكتشافه باكتشاف كوبر نيكوس (رغم ادعاء العلم الهيليني بوجود شيء مشابه عند اليونان) الذي ألغى اعتبار أرض الإنسان مركزاً للعالم. لقد جرح داروين أيضاً «الإفتخار بالذات» عند الجنس البشري حين رصد تحدّره من الحيوانات الأدنى[٣١]، علاوة على ذلك شعر فرويد بأنه تميز بعمله في حقله بمفرده في حين ساعدت آينشتاين، مثلاً، «سلسلة طويلة من الأسلاف تبدأ من نيوتن ومن تلاه. أما أنا فتوجّب عليّ أن أقطع كل خطوة في طريقي الخاصة عبر غابة متشابكة الأغصان»[٣٢]. قال فرويد - على سبيل الدعابة- «لقد اخترعتُ التحليل النفسي لعدم وجود أي أدب خاص به»[٣٣].

مع ذلك، فإن «عزلة» فرويد كانت - جزئياً- من نتاجه ومبالغ فيها. كتب فرويد «لايسعني التأكد مطلقاً من أن مااعتبرتُه خلقاً جديداً ليس نتاجاً لقنوات الذاكرة الخفية نظراً لقراءاتي واسعة النطاق في السنوات الأولى»[٣٤]. وتفادياً لميله إلى خطأ تذكر مصادره تجنب فرويد القراءة، فتجاهل متعمداً أعمال نيتشه المنافس المعروف له كعالم نفس اللاشعور والذي امتلك - حسب عبارات فرويد- معرفة بنفسه تزيد عن معرفة «أي انسان عاش على الإطلاق»[٣٥].

---

* تورّط فرويد في جدال آخر من هذا النوع مع ويليم ماك دوغال «Mc Dougall» الذي احتج في عام ١٩٣٦ لأن فرويد أخذ إحدى أفكاره «مصرّحاً بأنها نتاجه هو بعد أن مزجها مع فكره بشكل متين. . أنا واثق من أن البروفيسور فرويد لم يتعمّد الإستيلاء على نظريتي وأعتقد أنه ليس واعياً لفعلته هذه. . إنها هفوة عرضية للإنتحال ماقبل الشعوري»[٣٠].

اعتمد فرويد طرقاً خاصة لحماية نفسه ضد ميله لنسيان أسلافه، فيخرج أحياناً عن طريقه ليشير إلى سابقيه مؤكداً لامبالاته تجاه قضايا الأسبقية ومتقبلاً أسلافه برحابة صدر كتأكيد لأفكاره وكروّاد للتحليل النفسي، ولذلك بدأ فرويد العديد من كتبه ومقالاته بذكر جميع المؤلفين المعروفين وكل التراث العلمي حول موضوع بحثه قبل الانطلاق لإنجاز مساهمته الخاصة. إن هذه التقنية الخاصة بالعرض تخلق الأساس أيضاً لإدعاءاته الخاصة بالأصالة. رغب تاوسك أيضاً - مثله كمثل فرويد- في أن يتميز عمله بالأصالة، ولابد أنه تمنى لو تمّ اكتشاف جميع أفكار فرويد على يديه. تكمن إحدى المسرات الكبرى التي تقدمها التبعية لفرويد في إمكانية تخيّل التابع لنفسه في موقع مكتشف التحليل النفسي. ولكن طريقة فرويد الخاصة في الإحتواء البطيء للأفكار الغريبة عنه، حجبت عن تاوسك حق الإدعاء بالتوصل إلى أي شيء جديد.

لقد تشارك فرويد وتاوسك، إذن، في نقيصة واحدة. وينبع جزء من السحر الشامل في صراعهما من تشابه شخصيتهما إلى حد بعيد، وقد شعر كل منهما أن الآخرين يأخذون أفكاره دون الإعتراف بذلك ولدى كل منهما أسباب قوية تبرر هذا الإعتقاد، فبدا لفرويد أن كل مايفكر فيه تلاميذه من نتاجه هو في نهاية المطاف، أما من جهة تاوسك، فقد اعتبر أن فرويد سيضع في النهاية ختمه الخاص على جميع مساهماته مهما أبحر بذهنه بعيداً عنه. لقد شعر كل منهما بالكفّ في حضور الآخر وبالخوف من أن يحطم هذا الآخر تفرده وعبقريته. ولكن - نتيجة للصراع- فإن تاوسك هو الطرف الذي طلب العلاج.

اعتقدت هيلين دويتش - بسماعها شكاوي واتهامات الطرفين- بوجود الحقيقة في شعور كل منهما، ولكنها اعتقدت- في قضية الصراع الدائر بينهما- أن فرويد هو الذي بادر بالهجوم.

## الفصل الرابع
## أعقدُ من أحجية صينية

-١-

لقد حاولت هيلين دويتش طبعاً متابعة تحليلها الشخصي عند فرويد خلال فترة علاجها لتاوسك، وقد خضعت للتحليل - خلافاً لتاوسك- لأهداف تدريبية أكثر منها علاجية، ورغم ذلك دفعت لفرويد أتعابه (حوالي عشرة دولارات للساعة) وهو مبلغ يشكل تضحية كبيرة بالنسبة لها). وعندما تسترجع أحداث الماضي تشعر هيلين أن فرويد لم يهتم بها كمريضة بشكل خاص، إذ لاحظت سقوط سيجاره مرتين على الأرض بسبب الضجر والنعاس ولم يستيقظ إلاّ والسيجار يسقط من فمه، مع ذلك كانت علاقتهما إيجابية إلى حدّ الإكتفاء بالضحك إزاء الحادثة.

كانت هيلين دويتش - موضوعياً- طبيبة نفسية شابة واعدة بين النساء القليلات جداً في جمعية فرويد. وقد أولع فرويد- كما رأينا- في حالة «لو» - بالنمط النرجسي من النساء الجذّابات جداً للرجال (حسناء كستنائية الشعر)، وفي هذا المجال شغلت هيلين موقع «لو» أيضاً، وخرج فرويد معها عن عادته طلباً لودّها، وأحست من جانبها بوجود عنصر متطلب في سلوكه تجاهها واستجابت بكل التفاني الذي يمنحه الطالب الهائم لمعلمه، وكان تحويلها الوجداني إزاءه ضخماً إلى درجة الإقتناع مؤقتاً- مثلها كمثل المرضى الآخرين - بأن محلّلها مغرم بها (تتذكر هيلين أنها وقفت مرة أمام واجهة محل بعد جلسة تحليلية وتساءلت: ولكن ماذا ستفعل زوجة البروفيسور المسكينة؟).

لقد ندر الطعام في تلك الأوقات العصيبة ومرضت زوجة فرويد، ولذلك اعتادت هيلين على إحضار حليب الماعز لها بانتظام (حصلت عليه من زوج من الماعز ظلاّ يرعيان في حديقة عيادة ڤاغنر ياورغ) ووضعه على درج باب زوجة البروفسور وهي في طريقها إلى ساعتها التحليلية في المدخل المجاور.

اعتاد فرويد على التحدث مع مرضاه بحرية تفوق مايفعله محللو هذه الأيام (اعتبره بعض مرضاه ثرثاراً ومهذاراً). وغالباً مااضطر - بسبب مرض البروستات- إلى النهوض من مكانه والذهاب إلى الحمام عدة مرات أثناء الجلسة. وفيما يخص هيلين تركزت تفسيراته كلياً حول علاقتها الأوديبية مع والديها: حبها لوالدها ومعاداتها لأمها، وقد قرأت هيلين خلال فترة تحليلها كل مبتغاها من الأدب التحليلي، ففي هذه المرحلة، ومع تلميذة يحبها، لم يكن فرويد مهتماً بشعوذة بعض المحللين اللاحقين الذين يطفّلون مرضاهم ويثيرون لديهم المشاعر والتوقعات السحرية عن طريق وضع بعض القيود السخيفة في وجه فضولهم الفكري.

في خريف عام ١٩١٩، ومع مضي عام تقريباً على خضوع هيلين للتحليل، أعلن فرويد بشكل مفاجيء عن عودة مريض يهمه كثيراً ويحتاج مساعدته إلى ڤيينا. وقد كتب فرويد سابقاً عن القصة المرضية لهذا المريض بوصفه «الرجل الذئب» (لازال هذا المريض يجني الفوائد من كونه المريض الشهير في عيادة فرويد حتى يومنا هذا)، وأراد فرويد أن يمنح هذا المريض السابق الساعة التحليلية المخصصة لهيلين دويتش*. لقد فضل فرويد دائماً التعامل مع المرضى الذين يساعدونه في تحقيق اكتشافات جديدة، أما هيلين فلم تكن عصابية- من وجهة نظره- ولاتحتاج إلى المزيد من التحليل.

ختم فرويد تحليله لهيلين بتوصية واضحة مفادها الإستمرار في طريق التماهي مع أبيها (كانت الصغرى والمفضلة لديه) معتبراً أن علاقتها مع أبيها مفيدة

---

* بعد عدة سنوات، عاد «الرجل الذئب» إلى فرويد مرة ثالثة طلباً للعلاج فأرسله فرويد إلى الدكتورة «روث ماك برونشفيك» وهذا ماأثار استياء هيلين دويتش لأن «الرجل الذئب» قد أخذ ساعتها التحليلية سابقاً إضافة إلى تنافس هيلين مع روث.

لها (وبهذه التوصية يشجعها على أن تبقى من أتباعه هو كأحد البدلاء عن والدها). ورغم اعتراضها على قرار فرويد، فإن تحليلها الذي ابتدأ في شهر تشرين أول من عام ١٩١٨ قد انتهى خلال عام. لقد نالت هيلين، على كل حال، بعض التعويض من هذه التجربة إذ تحسنت علاقتها مع فرويد وتزايد عدد المرضى الذين يرسلهم إليها.

اعتمدت طريقة فرويد - في تلك الفترة - على تفكيك خيوط مشاكل المريض وإعطائه لمحة عن لاشعوره ثم تركه ليكتشف الحلول بنفسه، وبغض النظر عن محدودية هذا الاسلوب في الشفاء فإنه يساعد المريض في محافظته على استقلاليته ويساعد حركة فرويد التي تزداد قوة بقدر مايكتسب من تلاميذ.

لقد كسب فرويد - من خلال تلك السنة التحليلية - تلميذة ثمينة ستبقى أمينة طوال حياتها لحركة التحليل النفسي. برزت هيلين بسرعة بين أفضل محللي الحركة إذ أثار تحولها إلى محللة نفسية أفضل مواهبها سواء كمعلّمة أو كمعالجة، وكتبت خلال حياتها في أمريكا - إضافة إلى المقالات العديدة التي كتبتها خلال الحرب العالمية الثانية - كتابها المؤلف من جزأين «سيكولوجيا النساء» والذي طبع مرات عديدة ونشر في دزينة من البلدان. وتبدو سيرة حياة هيلين الشخصية مخالفة لآراء فرويد النسائية التي عرضتها في كتابها. وبعيداً عن التصاقها وتبعيتها لفرويد، كانت هيلين فعالة ومستقلة كطبيبة نفسية ومحللة. رغم أنها ظلت منفعلة ومتلقية تجاه فرويد ومفاهيمه التي بذلت قصارى جهدها لجعلها شعبية.

- ناقش فرويد موضوع «سيكولوجيا النساء» بحرص استثنائي، وظلت «الأنوثة» - كما كتب - بالنسبة له لغزاً وأحجية، ولذلك تنحصر أغلب كتاباته حول «سيكولوجيا الذكورة» وترادف كلمة «مريض» الضمير «هو»[٢] في كتاباته حتى بدايات الحرب العالمية الأولى. ورغم خجله وانسحابيته في علاقاته مع النساء، كان متسامحاً إزاء طلباتهن المتزايدة للمساواة مع الرجال، وعارض وجهة النظر التي تدعو إلى استبعاد النساء مبدئياً من عضوية جمعيته. لقد مَثْلَنَ Idealized فرويد

النساء ولاتوجد في سيكولوجيته أية فكرة عن أمّ أو ابنة سيئة، ولكن تلميحاته الشهيرة حول النساء (تلك التي تتحدث عن شعور المرأة بالحسد تجاه قضيب الرجل) تشير إلى وجود بعض التفاخر الذكوري لديه خاصة وأنه لم يتحدث أبداً عن حسد الرجال للطاقات التناسلية عند المرأة، ولايجد المرء في عالمه سوى نساء راغبات في التحول إلى رجال.

اعتقد فرويد أن المرأة تمتلك أدراكاً «أعمق للعمليات الذهنية اللاشعورية»[٣] ولكنه تذمر من «غموضها» وأكدّ في مرات عديدة «دونيتها» العقلية وعدم قدرتها على التصعيد وضعف أناها الأعلى[٤] إلى حد اعتبارها عدوّة للحضارة رغم مشاركته للمرأة في السخط على القيود التي تضعها الحضارة في وجه التعبيرات الغريزية[٥]، ونرجح أنه احتقر النساء اللواتي وُضعن في موقع سلبي تاريخياً انطلاقاً من كرهه للضعف والتبعية.

ولكن هذه التأملات حول جذور موقف فرويد تجاه النساء يجب أن لاتُعمي أبصارنا عن قدرته عن معايشتهن بشكل جيد في سياق الحياة اليومية فتبخيسه الداخلي للأنوثة يعكس المعايير الحضارية لعصره ولايتعارض مع لباقته المتميزة مع النساء ومحافظته على السلوك اللطيف لابن القرن التاسع عشر.

لقد عرف فرويد كيف يكسب ودّ هيلين دويتش، ويعبّر إرساله لمريض مثل تاوسك إليها عن احترامه الكبير لقدراتها ورغبته في إطرائها. وفي تلك الأيام كان تدريب المحليين أقلّ تنظيماً مما هو الآن وكل مايحتاجه المحلل هو أن يحوز رضى فرويد عنه. وقد أصبحت هيلين عضواً في جمعية ڤيينا حالما بدأت تحليلها على يد فرويد، وخلافاً للوضع الحالي حيث نشأت طريقة منظمة للإشراف على المرضى الذين يعالجهم محلل غير متمرس، لم يكن يوجد هيئة رسمية للإشراف التحليلي واعتاد المحللون على طلب النصيحة من فرويد بين وقت آخر رغم أنه شجع أتباعه على استخدام أحكامهم الشخصية والثقة بمعرفة مواد الحالة التي يعالجونها[٦].

يبدو فرويد - من وجهة نظر عصرنا الراهن- لافرويدياً إلى حدّ بعيد، فبينما

دافع- لأغراض دعائية- عن عدم تشوش المحللين بالأساليب الإيحائية والتربوية، نجد أنه - واقعياً- لم يدخر أياً من الوسائل الممكنة في علاجه لحالات معينة. وفي حين أعلن - في كتاباته- أن تقنية التحليل النفسي أصبحت محدّدة ودقيقة مثل أي فرع متخصص آخر في مجال الطب(7) وقارن التحليل بالعملية الجراحية، فإنه - في الممارسة العملية- لم يكن دوغمائياً تجاه اسلوبه. لقد وضع خطوطاً إرشادية قادته تجربته إلى ضرورة إتباع محللي المستقبل لها، والأهم من ذلك أنه أرادهم جيّدي الفهم.

كان فرويد لاأرثوذكسياً تماماً بطريقة قلما ينتبه إليها أتباعه حالياً والذين يلتزمون بتعليماته الإسلوبية المكتوبة أكثر من التزامهم بممارسته الحية التي قد تبدو اعتباطية تماماً، فقد أوتي الجرأة - مثلاً- على تحليل أشخاص يعيشون معه في بيته*، وحلّل أيضاً أزواجاً وزوجاتهم**، رغم توصياته الرسمية بضرورة عدم معرفة المحللين لمرضاهم اجتماعياً وعدم تحدث المرضى عن علاجهم، أما هو فحلل - في نهاية العشرينات - خمسة مرضى نظاميين تربطه بثلاثة منهم علاقة حميمة (إحدى المرضى تلميذته المفضلة «روث برونشفيك» وزوجها «مارك» وشقيقه «دافيد»)، وتدخل أحياناً بشكل فعال في حياة مرضاه الخاصة (الدفاع عن اختيارات زواج معنية)، وطلب من بعضهم ترجمة مقالاته الخاصة، وكلّف بعضهم بقراءة مقالاته المنشورة حول «قصص مرضية».

ولعلّ إقدامه على تحليل ابنته الصغرى «آنا Anna» يعطي توضيحاً استثنائياً للإمتيازات التي سمح لنفسه بها مع إدانته قيام أي محلّل آخر بمثل هذا الفعل. حلّل فرويد ابنته «آنا» في فترة نهاية الحرب العالمية الأولى، وتحدث في رسائله بانفتاح تام حول هذا التحليل الذي أصبح سراً عاماً في أوساط مجموعة ضيقة من حلقته المقرّبة(8). ربما وُجدت أسباب قوية من وجهة نظره دفعته إلى ذلك، ولكنّ- آخذين بالإعتبار كل الجدال الذي جرى في السنوات التالية حول ماهية الأسلوب التحليلي

---

* «إيفا روزنفليد» مثلاً.

** الزوجين «جيمس واليكس ستراشي».

الدقيق- حرية فرويد في تحليل ابنته تدفع إلى التشكيك في طقوس العلاج والتدريب التحليليين.

حتى بالنسبة لتلك الأيام، يبدو إرسال تاوسك إلى هيلين دويتش في وقت خضوعها للتحليل على يد فرويد أمراً مستغرباً. لم تتساءل هيلين عن الأسباب التي حدت بفرويد إلى إرساله تاوسك إليها وافترضت - ببساطة- أنه لن يقبل الذهاب إلى أي محلّل آخر خاصة وأن فرويد لجأ إلى كسب ودّها عن طريق إظهار عدم احترامه لتلاميذه الأقدم. خلق فرويد بعض المشاكل بين تلاميذه بإعرابه عن تقدير أحدهم على حساب الآخر، وقد مرّ معنا ازدراؤه للجيل المبكر من المحللين الذين انضموا إليه قبل الحرب العالمية الأولى بفترة طويلة. وانطلاقاً من التماهي بالمعلم، ازدرت هيلين أولئك التلاميذ الذين توجهوا إليه في ظل عدم قدرته على الإختيار. افترضت هيلين أن تاوسك - الأبرز بين التلاميذ - يشارك فرويد موقفه منهم.

من وجهة نظر هيلين، قدم إليها تاوسك كمريض بحاجة للعون، ومن الطبيعي تماماً أن يفد إليها عبر فرويد طالما أن جميع المحللين يعتمدون عليه في الحصول على المرضى. وقد بلغت ثقة فرويد بها حداً جعله يرسل إليها في وقت لاحق من ذلك العام مريضاً من عائلته بالذات. ولم يخطر لها، بالتأكيد، في ذلك الوقت احتمال أن يغار فرويد من تاوسك.

- أيّاً تكن دوافع فرويد في إرسال تاوسك إليها أو دوافع تاوسك إلى تقبل هذا الإذلال، فقد تبين أن هذا الترتيب لاجدوى منه، فمع تعرفها إلى الطرف الآخر في الصراع مع فرويد (أي تاوسك)، وبسبب تأثرها بعبقريته، أصبحت ساعاتها التحليلية مع فرويد مليئة بالأحاديث عنه، وتأثر بذلك مسار تحليلها الشخصي، ولذلك دعا فرويد أي ايقاف هذا الوضع الخاطىء برمته بعد ثلاثة أشهر من بدايته (قبيل نهاية شهر آذار من عام ١٩١٩). أوضح فرويد لهيلين أن تاوسك أصبح يتداخل مع تحليلها هي وأنه قبل الذهاب إليها أملاً بالإحتكاك مع فرويد من خلالها وأن نجاحه في سحرها يعرّض تحليلها للخطر. لقد وضعها فرويد من جديد في موقف إما / أو (كما فعل سابقاً حين توقع منها أن تغادر عيادة ڤاغنر ياورغ).

تصرف فرويد كعاشق متطلب وأرادها إلى جانبه كلياً، ولذلك خيّرها بين أن تنهي تحليلها لتاوسك أو أن تقطع تحليلها عنده، وهذا لايشكل في الواقع - بالنسبة لهيلين- تخييراً حقيقياً بل أمراً. وانطلاقاً من مشاعرها الإيجابية الضخمة تجاه فرويد، وقفت إلى جانبه دون تردد وأنهت مباشرة تحليلها لتاوسك. وفي تلك الأيام، لم يكن الإيقاف الفوري للعلاج التحليلي موضع شبهة كما هي الحال اليوم، ولذلك اكتفت هيلين بإبلاغ تاوسك برأي فرويد وقرارها الشخصي وكانت تلك آخر مرة تراه فيها كمريض. استمع إليها تاوسك وتقبّل الأمر وهو متأكد من مصدر رفضه، ولم يخفف من أثر الضربة التي تلقاها من فرويد عرضها الضمني متابعة تحليله بعد انتهاء تحليلها عند فرويد (ولعل فائدتها بالنسبة إليه كمحللة تنتهي بمجرد انتهاء تحليلها عند فرويد).

ربما فكّر فرويد في إرسال تاوسك الى هيلين كنوع من التسوية، ولكنّ هذه التسوية لم تجدِ نفعاً وأحسّ أن عليه وضْع حدّ لها، وفي تلك الفترة كان إدراك أبعاد العلاقة التحويلية بين المحلّل والمريض أقلّ مما هو الآن بكثير (نستنتج هذا أيضاً من إقدام فرويد على تحليل ابنته آنّا)، فلو تمّ إرسال تاوسك إلى هيلين في وقت خضوعها للتحليل عند فرويد الآن لتبيّن فوراً أنه سيعزّز انشغال تاوسك بفرويد باعتباره محللاً لمحللته.

-٢-

على ضوء العلاقة السابقة بين فرويد وتاوسك، من السهل أن نرى بوضوح هذا الترتيب المخرب، فقد أغرى فرويد تاوسك- سواء بشكل واعٍ أم لا- على الدخول في علاقة ثلاثية جديدة (كما حدث سابقاً مع «لو»، وعبر هذه العلاقة يتنافس الرجلان مستخدمين امرأة كجسر يصل بينهما، مع فارق أن فرويد يستطيع أن يتحكم تماماً بسير العلاقة في هذه المرة. لقد انتقم فرويد - من خلال هيلين - من العلاقة الغرامية السابقة التي ربطت تاوسك مع «لو» وحقق الإنتصار، وأراد فرويد أن يجد المبررات للتخلص منه بعد ذلك إذ أنه لم يستطع مقاومة الرضى الذي يبعثه

فيه إبعاد تاوسك وأحسّ بأن الأفضل له أن يفعل ذلك من بعيد (بشكل غير مباشر).

في الثلاثين من شهر آذار من عام ١٩١٩، وقبيل انتهاء فترته التحليلية، كتب تاوسك إلى فرويد طالباً منه تحليل ابنه الأكبر «ماريوس» وضمّن رسالته اثنين من أحلام ابنه مع التماس بالقبول قائلاً إن الأسباب التي جعلت فرويد يرفض تحليله لاتنطبق على ابنه. ولكن فرويد رفض أيضاً هذا التحليل بالوكالة وبدا له أن تاوسك أصبح مصدر إزعاج متزايد. لقد انتهى أمر تاوسك بالنسبة لفرويد بغضّ النظر عن مدى صعوبة تقبل هذا الأمر من قبل تاوسك (كما تكشّف فيما بعد).

غني عن القول أن فرويد كان منشغلاً بمواضيع أخرى تتعدى تاوسك، فقد أسس في شهر حزيران من عام ١٩١٩ دار نشر خاصة جديدة تتولى نشر الكتابات التحليلنفسية، وتعرضت زوجته في ربيع ذلك العام لنزلة رئوية حادة، وأصيب أحد أتباعه المؤثرين في هنغاريا بالسرطان، إضافة إلى الأزمة الإقتصادية والإجتماعية العامة التي ألقت بوزرها على فرويد مثله كمثل سكان ڤيينا الآخرين.

مع ذلك فقد ازداد نشاطه التحليلي بعد الحرب بحيث عالج تسع أو عشرة مرضى يومياً في شهر حزيران من عام ١٩١٩. كتب فرويد إلى أحد مؤيديه السويسريين في السادس عشر من شهر شباط: «في النهاية، فإن الحالة العامة هنا بائسة تماماً ولابّد أن يصيبنا جزء من ذلك، ولكنّ قضيتنا تزدهر»[٩]. في الربيع، كتب فرويد مقالة جديدة وأعاد صياغة مقالة أخرى تركها على طاولة مكتبه منذ فترة وهي «الخارق Uncanny». شكلت الفترة التالية لنهاية الحرب العالمية الأولى نقطة تحول حاسمة في تاريخ حركة التحليل النفسي تشابه تلك النقلة التي حدثت مع فرويد سابقاً حين خرج من عزلته وأسس مدرسته الخاصة قبيل دخول تاوسك إلى مسرح الأحداث، فمع مؤتمر بودابست (عام ١٩١٨) انتشر فكر فرويد للمرة الأولى في وسط أوروبا على يد موظفين رسميين في دولة.

بنهاية الحرب، أصبح بمقدور الطلاب الأجانب التفكير في التوجّه إلى ڤيينا لدراسة التحليل النفسي، ولو عاش تاوسك عاماً آخر لانحلّت إشكالاته المالية. وتكشف مراسلات فرويد عن مدى «الطلب الحبيس» للعلاج التحليلي. وصل أول

أجنبي من لندن في خريف عام ١٩١٩ ومع نهاية ذلك العام «أصبح سيل الأجانب متواصلاً»[١٠]. واعتباراً من هذه الفترة فصاعداً لم يعد ممكناً الإستخفاف بفرويد الذي أصبح مشهوراً في كل أنحاء العالم.

مع هذا النجاح غيّر فرويد إحدى أركان حياته، فقد استحوذت عليه سابقاً- حسب ارنست جونز- «فكرة الموت المبكر»[١١] اعتماداً على بعض هراءات دراسة المعاني السحرية للأعداد والتي اخترعها فليس واعتقد فرويد - بناء عليها- أنه سيموت في الحادية أو الثانية والستين من عمره (أي في عام ١٩١٧ أو ١٩١٨)، ونلاحظ هذا التخوف لدى العديد من النابغين. ولأن فرويد بقي حياً بعد هذا التاريخ، تعززت لديه مشاعر الخلود وأصبح- مع سيل الأجانب المتدفق نحوه- أشبه بـ «زيوس». ولكن- واقعياً- فإن السنوات الإنتاجية الباقية له محدودة، وهذا ماجعله يعمل مستعجلاً وكأن بندقية مصوبّة إلى ظهره. لقد أُسدل الستار على جزء من حياته ولم يعد بمقدوره التوقف لأن آخرين يعكرون مياهه. كانت متطلبات تاوسك أكبر من طاقة فرويد (إضافة إلى حساسيته الشديدة تجاهه). إن تاوسك تبعيّ بشكل عصابي تجاه فرويد الذي فضّل التخلص منه بدل المخاطرة بابتلاعه من قبله خاصة وأن الإستغناء عن مؤيد قديم مثل تاوسك أمر سهل في ظل تدفق الدماء الجديدة من كل أرجاء العالم.

حاول تاوسك - في تلك الفترة- تنظيم حياته، ولكنّ الشك الذي خلفته مرحلة الحرب جعل ثقته بطاقاته محدوداً، فبحث عن بعض السلوى بصحبة امرأة طالما أن علاقته مع فرويد وصلت إلى نهاية قاتلة، ولكن إصلاح علاقته مع «مارثا» أصبح مستحيلاً (لقد كرهت التحليل النفسي وحياة زوجها وأعماله إلى حد كتابة المقالات ضدها. وبقدر مانعلم فإن تاوسك لم يحدثها إطلاقاً عن مشاكله مع فرويد).

عاش تاوسك في بلغراد- قبيل نهاية الحرب- مع أرملة صربية شابة جميلة تدعى «كوزا لازارڤيس» تعرّف إليها في الشارع حيث كان يقودها جنديان نمساويان بتهمة التهجم على الغزاة النمساويين، وقد حدثها تاوسك باللغة الصربية فأعربت

له عن براءتها من التهمة، وباعتباره ضابطاً ذا رتبة أعلى طرد الجنديين وأطلق سراحها على مسؤوليته، وعرفاناً بالجميل دعته كوزا التي تقيم في شقة واسعة بمفردها إلى الإقامة معها كحامٍ لها. ومع تطور الحالة الى علاقة غرامية مع تاوسك ساءت سمعتها بين مواطنيها لأن ڤيكتور ضابط في جيش المستعمرين. ولكن دفاعه المتكرر عن الصربيين ضد السلطات وضع حداً في النهاية لاستيائهم.

كانت كوزا شهمة طيبة القلب وإنسانية، وقد وعدها تاوسك بالزواج. ورغم انتمائها إلى الأرستوقراطية الصربية كانت عديمة الثقافة وبالكاد تجيد القراءة والكتابة، ولكنها استطاعت - بغناها ونفوذها - أن تؤمن لڤيكتور فرصة التدريس كأستاذللطب النفسي في جامعة بلغراد أو زغرب بعد الحرب، وقد فضّل تاوسك في البداية جامعة بلغراد بسبب ميله نحو الصرب أكثر من الكروات، ولكنه- بمجرد عودته إلى ڤيينا - تأكد من استحالة زواجه من كوزا التي بدت له رائعة وقت إقامته في بلغراد، وداعبته آمال العمل كمحاضر في جامعة العاصمة النمساوية.

بغض النظر عن المبررات العقلية لتردده في الزواج من كوزا، فإنها تتوافق مع نمط الصعوبات التي يعانيها حين يسمح لامرأة بالإعتماد عليه. وهذا الأمر حدث مع امرأة أخرى من قبل (إضافة إلى مارثا) إذ أنشأ علاقة غرامية في برلين مع راقصة تدعى «لي روزن» (اعتمدت رسمياً في المحكمة كإحدى أسباب الطلاق من مارثا)، وأثناء غرامه بها أحس تاوسك بسعادة شديدة. في ڤيينا، أصبحت «لي» ممثلة شهيرة في Burg - Theater رغم ضآلة جسمها ويهوديتها التي أبعدتها عن أدوار القمة النسائية الشعبية آنذاك.

وقد رافقت تاوسك في زياراته لهيلين وفيلكس دويتش قبل الحرب. ورغم علاقته الشفافة والدافئة معها، فقد تراجع أمام موضوع الزواج بها خوفاً من أن يستنزفه إعجابها به، وعندما قطع علاقته بها أصيبت بنوبة اكتئاب حادة كادت تودي بها. وحدث الأمر ذاته مع امرأة أخرى هي الدكتورة «إلسي زيمرمان» إذ انهارت تماماً حين فشل تاوسك بالزواج منها.

لقد نوى تاوسك الزواج مرة أخرى ولكنه هو الذي أصيب بالإكتئاب الشديد لأن المرأة التي خطبها نامت مع أحد مرضاه في «لوبلين Lublin» خلال الحرب، وعبّر حينها عن أفكار شديدة التشاؤم تجاه الحياة وأحس بأنه، بعد خيانة خطيبته، لايستطيع الثقة بأحد. وتبين بالنتيجة، على هذا النحو أو ذاك، أن تاوسك عاجز عن إقامة علاقة دائمة مع امرأة محددة. ولكي نتقصى المصادر الطفلية لهذه المشكلة لابد أن نعرف المزيد عن علاقته مع أمه، فقد علّمنا فرويد استقصاء الأنماط الطفلية البدئية في حبّ الراشدين. نعرف أن أمّ تاوسك كانت من النوع المضحي المنكر لذاته، ولابد أنها شجعت - بتغذيتها المفرطة وعنايتها بطفلها - المطالب النهمة لدى ابنها الناشىء (تضحي الأم بنفسها أحياناً إلى حد يشل علاقات ابنها مع النساء الأخريات، فعبر شحنه بمشاعر الذنب تجاهها دون إعطائه أرضية ملموسة للإمتعاض قد تتركه أمام خيار وحيد هو المحافظة على مسافة تفصله عن النساء في المستقبل). نتصور أيضاً وجود مشاعر اتحاد مازوشي عميق مع أمه التي اعتبرها ضحية لأبيه، وربما دعّمت هذه الحالةُ علاقته المعذبة مع فرويد.

تركزت جلّ عواطف تاوسك- في الجزء الواعي من حياته - حول شقيقته «يلكا Jelka» ويدرك كل من عرف تاوسك أن «يلكا» لعبت دوراً محورياً في مشاعره تجاه النساء. من الناحية الجسدية، كانت يلكا تشبه تاوسك: جميلة، ذهبية الشعر، تجمع الذكاء والأنوثة الجنسية بطريقة عجزت عن جمعهما «مارثا». تزوجت يلكا زواجاً تعيساً من طبيب في يوغوسلافيا ثم هجرته وذهبت إلى ڤيينا حيث شجعها تاوسك على الطلاق منه (وقد شكّل هذا صدمة حقيقية لأخلاق أفراد العائلة الباقين في يوغوسلافيا).

وبعد أن ساعدها ڤيكتور على التحرر من زواجها المرعب، أحبت أحد أصدقائه وهو عالم لغات (فيلولوجي) نمساوي يدعى «إرنست غانز» كان يدرّس اللاتينية واليونانية ويعيش مع شقيقه التوأم (كاميلو) الذي يعمل محامياً للضرائب. تزوجت يلكا من إرنست وعاشت سعيدة في بيت الشقيقين. كان «كاميلو» من النمط المرح خلافاً لشقيقه التأملي والأكثر جديّة. عاش أفراد الأسرة متوافقين وتردد

ڤيكتور لزيارتهم بصحبة صديقاته، وقد أعجب يلكا من بينهن على الأخص صديقته «إلسي زيمرمان». ورغم أن يلكا تشكل حباً عائلياً بالنسبة لڤيكتور، فإنه لم يشعر بالحاجة الى الهرب منها وظلت علاقته بها رقيقة وودّية (نذكر هنا أن معظم النساء اللواتي اختارهن كنّ داكنات البشرة بمقدار شقارها).

بعودته إلى ڤيينا، تأكد تاوسك من استحالة زواجه من كوزا ورجوعه إلى يوغوسلافيا. ومع نبذ فرويد له وفشله في متابعة تحليله، حاول أن يُدخل امرأة أخرى في حياته وهي عازفة بيانو في فرقة موسيقية تصغره بستة عشر عاماً وتدعى «هيلدا لويقي»(١٢). وعندما تعرف إليها تاوسك وجّه رسالة إلى كوزا طالباً إنهاء التزامه بالزواج منها. أدركت كوزا أنه عاد إلى محيطه السابق في ڤيينا وتقبلت مبرراته.

لعل الحقيقة الأكثر أهمية في حالة هيلدا أن تاوسك تعرف إليها بوصفها مريضة قصدته للعلاج. إن زواج المحلل من إحدى مريضاته يعني اقتراف الجريمة القصوى بحق مهنته. ويجدر بالذكر هنا أن قلّة قليلة من المحللات - إن وُجد أصلاً- قد تزوجن من أحد مرضاهن بينما نجد، في الجهة المقابلة، عدة أمثلة بارزة عن محللين تزوجوا من إحدى مريضاتهم* (ربما تتم هذه الزيجات وفقاً للمبدأ العام الغلاب في قصص الأساتذة وتلامذتهم، أو - بشكل أهم- على الأرضية ذاتها التي تجعل الرجال يتزوجون نساء أصغر منهم عمراً). وفي فترة لاحقة من تاريخ حركة التحليل النفسي حدثت أمثلة أشدّ بروزاً، ولا يصعب أن نخمن مقدار الإزعاج الذي سببته مثل هذه الحوادث لفرويد في عام ١٩١٩، فقد استهجنها من حيث المبدأ- حتى ولو كان فيها خير الطرفين- بسبب درجة الضرر الذي تلحقه بحركة التحليل النفسي، رغم أنه- في العشرينات- شجع أحد أبرز المحللين الأمريكيين على الزواج من إحدى مريضاته السابقات(١٣).

---

* مثلاً، الزوجة الأولى لرايخ، والزوجة الأخيرة لبيرنفيلد، والزوجة الثالثة لرادو، وإحدى زوجات بنيشل، كلهن مريضات سابقات لأزواجهن.

يصعب أن نعرف الأثر الذي تركه صراع تاوسك مع فرويد والنهاية المفاجئة لتحليله عند هيلين على علاقته مع هيلدا التي تعرف إليها بعد توقف تحليله، وربما شكّل تباهيه بحبه لها قناعاً يخفي وراءه حالة الحزن والتعاسة التي يعيشها، (ليس مستغرباً أن يصرّف مريض صراعاته الوجدانية في الخارج بعد مثل هذه الضربة المفاجئة) وربما شكلت هيلدا بديلاً عن هيلين المفقودة. على كل حال، لقد رفضت شقيقته يلكا أن تدخل في هذه اللعبة. ولعلنا نرى في اختيار تاوسك لإحدى مريضاته بريق السخط المتزايد على فرويد.

لقد تشكل تمرّد تاوسك ببطء، وإن مجرد الإبتعاد جغرافياً عن ڤيينا خلال الحرب حرره مؤقتاً من التوازن القلق لعلاقته السابقة مع فرويد، فبعيداً عن ڤيينا أصبح أكثر موضوعية تجاه معلمه وتفكك ارتباطه به وزادت قدرته الإنتاجية. ولكن مع عودته إلى ڤيينا مركز عالم فرويد جرّب تاوسك من جديد صعوبة التعامل مع فرويد أثناء الإقامة في مدينة واحدة خاصة وأن استقلاليته خلال الحرب جعلته أكثر تطلباً، وواجهه فرويد برفض شخصي يصعُب تبريره منطقياً.

لقد أحس فرويد لسنوات عديدة بالمنافسة الضمنية التي يخوضها تاوسك ضده. في المقالة الأولى التي عرضها تاوسك أمام جمعية ڤيينا أشار إلى أفلاطون وأرسطو معتبراً - على نحو خاطىء - الثاني معلماً للأول، فردّ عليه فرويد مباشرة: «أفلاطون ليس خليفة أرسطو، إنه أكبر منه سناً، وهو تلميذ سقراط»(١٤). لقد تواجدت بذرة التمرد دوماً عند تاوسك الذي بدأ علاقته مع فرويد بالمنافسة والمزاحمة (يعبّر اعتقاد تاوسك بحاجة فرويد للاستيلاء على أفكاره عن تبخيسه لمعلّمه). أما التفاني الإنفعالي لتاوسك فلم يشكل مصدر قلق لفرويد الذي كان مقاتلاً مثل تاوسك تماماً. ورغم دماثته وإغوائه للنساء، تصرف تاوسك بسادية مع الرجال. لقد اهتم فرويد بتاوسك بدرجة أقل من اهتمام الأخير به (اهتمام التلميذ بالاحتكاك بمعلمه يفوق اهتمام المعلم بالإحتكاك بتلاميذه).

يحمل موقف فرويد من تاوسك سمات عُصابية في طياته، فمقابل كره الإبن لبديل الأب، لابد أن يشعر الأكبر سناً (بديل الأب) بالحسد تجاه شاب أفتى منه،

ويجب أن لانكتفي بعرض «عقدة أوديب» من جهة الإبن فقط، ونتساءل: كيف يتصرف الأب تجاه كره ابنه القاتل؟ وماهي - في التحليل الأخير - نيّة والد أوديب تجاه ابنه؟ . لقد انشغل فرويد بقضية الموت التي تعني أن أي رجل قد يشكل خطراً محتملاً يهدده، وطالما أنه تمنى الموت لابنائه بالذات - باعترافه هو - فلا نستغرب أن يحسد تلاميذه على شبابهم[١٥]. لقد رأى فرويد في تاوسك مجرد خطر يهدده شخصياً ولذلك عجز عن إدراك اضطراب تاوسك ومدى حاجته للمساعدة. واستغرق في الموضوع إلى حدّ أبعده عن الموضوعية.

-٣-

بحلول عام ١٩١٩ حدثت سلسلة من عمليات التمرد على سلطة فرويد بين تلاميذه. فانقطعت علاقة آدلر ويونغ علنياً معه واعتبرهما - من جانبه - «هرطقيّين»[١٦]. وخلافاً لنجاحه مع «بناته» بالتبني، تعرض للمشاكل مع «أبنائه» في التحليل النفسي. إنّ العمل مع عبقري من طراز فرويد قد يكون مصدر إحباط شديد (وخاصة للرجال)، لأنه يشكل جرحاً في إحساسهم بالاستقلالية، كما أن الإقتراب منه يفرض توتراً شديداً على وتر تسامح المرء مع سلبيته بالذات.

لقد شجع فرويد، بمعنى ما، تمرّد تلاميذه عليه، فعبر طلبه استسلامهم المطلق - وهو ماقد يعطونه لفترة ما - أثار لديهم الحاجة الى الثورة. رغب تلاميذ فرويد الذكور في الحصول على حبّه، ولكنه منحهم ذلك فقط بقدر مايخصون أنفسهم كأفراد مبدعين. ومع أنه أرادهم مرايا تُسقط أفكاره، إلاّ أنه - في أعماقه التي تنفر من الذين يكررون أفكاره دون أن تعديل - لم يكن يحترم تابعيه الأذلاء. لقد بحث عن البريق والإستقلالية - ولو بحدود ضيقة - عند تلاميذه. وعلى هذا النحو أثار فرويد ضد نفسه - بطرق غير مباشرة - تلك الصراعات التي شوشت أغلب حياته العلمية.

إن فعل التمرد وإعلان الإستقلالية جعل من تلاميذ فرويد أشباهاً له في هرطقيته العظيمة التي اجتذبت حوله الأشخاص الذين يشاركونه الحاجة الى

الاستقلالية. وفي تحدّيهم له، عبّر تلاميذه المنشقين عنه- وخاصة أولئك الذين أسسوا مدارس خاصة بهم - عن مدى إخلاصهم لفرويد.

لم يقنع تاوسك بأن يبقى مجرد أحد حواريي فرويد لأن الجانب المبدع به سيظل مُحبطاً بدون التمرد عليه. وقد شكّل خطراً على فرويد بقدر منافسته له، وبحلول عام ١٩١٩ اكتسب فرويد خبرة جيدة في التعامل مع المدّعين الجسورين، وأشار إلى رغبة آدلر ويونغ في «أن يصبحا بابوات أيضاً»[١٧]، ولعلّ تاوسك تخيل نفسه أحياناً في موقع مشابه لآدلر أو يونغ رغم أن فرويد لم يتقبله أبداً بهذه الصورة. ونذكر أن تاوسك لم يرتبط أبداً بعلاقة حميمة مع فرويد - أسوة بآدلر أو يونغ أو رانك- وأن العداء الشديد قد استحكم بينهما، إلاّ أن تاوسك توفي قبل أن يتخذ الخلاف أية أبعاد نظرية رئيسية.

يعلمنا فرويد أن على كل رجل أن يقتل أباه بمعنى ما. ولكن الرجل الموهوب بحاجة إلى آباء بدلاء، ولابدّ أن عبقرية فرويد شكلت مثالاً أعلى للإبداع في نظر تاوسك. وإن كان النضج يعني الحلول محلّ الأب وبدلائه، فلابد أن يبزّ الابن تلك النماذج في بعض المجالات. ولذلك كافح تاوسك لكي ينضج بمنأى عن فرويد محاولاً أن يفصل اكتشافاته السيكولوجية عن شخصية صاحبها ليقنع نفسه بأنه يتماهى مع التحليل النفسي كعلم وليس مع فرويد شخصياً. ولكن في تلك الأيام كان يصعب التمييز بين كتابات فرويد وشخصيته والإخلاص للتحليل النفسي عنى الإخلاص لفرويد شخصياً والعكس بالعكس. وبغض النظر عن مدى الجهد الذي بذله تاوسك للتمييز بينهما، فإنه نجح في ذلك جزئياً فقط. إن فرويد - المحلل الأول- هو الذي نبذ تاوسك بعد أن أنجز الكثير لصالح قضية التحليل النفسي.

رغم صعوبة تحديد الخط الفاصل فإن تاوسك أصرّ عليه بطريقة تثير دهشتنا، وفي الحقيقة، فإن فرويد هو الذي أجبره على ذلك. وحدثت مشاكل تاوسك جزئياً بسبب التعارض بين طموحاته وقدراته (كما هو الحال مع رجال موهوبين آخرين)، وتوجب عليه في سن الأربعين أن يقف على قدميه ويكتشف قدرته على الإبداع

بمعزل عن فرويد. حاول تاوسك أن يبرر أسباب رفضه لقيادة مدرسة جديدة- كما فعل آدلر ويونغ - على أساس أن الجدال العلني مع فرويد والشهرة المرافقة له هي طريقة رخيصة للخروج عليه لأن مجرد إعلان القطيعة معه يكفي لتحقيق الشهرة. إن هذه الإعتبارات تبين - جزئياً، في أحسن الأحوال- عجز تاوسك الذاتي عن تحقيق التحرر التامّ.

خلف كل تلك العناصر الجريئة والمتوقدة في حياة تاوسك (كرهه لأبيه، صراعه مع والد زوجته، تذمّره من عدم استقلالية مارثا عنه)، وخلف كل ذلك الكفاح الصاخب من أجل الحرية، تكمن رغباته السلبية العميقة، فالتحدي - مثله كمثل الطاعة- قد يشير إلى التبعية. وتتجلى إحدى واجبات النضوج في مواجهة قضية التماهي مع الأب، وماأن يتم إنجاز هذه المهمة حتى تنتفي الحاجة الى الصراع المستمر من أجل التحرر من التبعيات المختلفة. ويحدث هذا الأمر عادة في مرحلة المراهقة، ويختار بعضهم البحث عن آباء بدلاء أكثر موهبة ومجاراتهم في قدراتهم الإستثنائية، ولكن يتوجب في النهاية أن يتوقف حتى الرجال المتميزون عن البحث عن أشخاص يعجبون به وينافسوهم. وفي التحليل الأخير، لماذا يكره الابن أباه؟ أليس لأنه يحبّه كثيراً ولا ينال منه كل مايريده.

تحكّمت بتاوسك نزوعات هائلة للتبعية إن لم نقل للوقوع في موقع الضحية. كان خضوع الأبناء لآبائهم نمطياً في عائلات تلك الأيام، وتتضمن رسائل تاوسك القليلة الباقية والموجهة إلى فرويد تعداداً صبيانياً تقريباً لعدد المرضى الذين عالجهم والآلام المبرّحة التي شفاهم منها. في الواقع، يجب أن يلوم تاوسك نفسه فقط بخصوص تلك الآمال التي توخاها من فرويد. وربما اعتمد تاوسك بقوة على فرويد في تلك السنوات بسبب إحساسه العميق باحتمال أن ينبذه فرويد، وقد حمته قوة فرويد من عواقب ميوله السلبية التي تدخلت بشكل فظ في علاقاته مع النساء.

كان من الأنجع لتاوسك لو أنه اختار الإبتعاد عن فرويد. لماذا لم يذهب الى مدينة أخرى - كبرلين مثلاً- يمارس فيها مهنته؟ وهي حالة طبيعية في تلك الأيام إذ

حدثت حركات انتقال واسعة من جمعية تحليلية إلى أخرى بسبب عدم الإرتياح لهذه المجموعة أو تلك. أو: لماذا لم يعد إلى يوغوسلافيا للعمل كطبيب نفسي؟، ورغم الصعوبات المرافقة لكل من هذه البدائل فإن عدم اختياره إحداها يبيّن قوة الحاجة للتبعية عند تاوسك، وهي الحاجة التي وجهها نحو فرويد. من جهة أخرى، فإننا - جميعاً- نعيش في عوالم مغلقة إلى حدّ ما، ويستطيع الغريب أن يلوّث البركة الصغيرة التي يسبح فيها شخص آخر بسهولة. قد ينظر الأمريكي المعاصر الذي يمتلك وهم التنوع الهائل لخيارات الحياة إلى هزيمة إنسان عاش في وسط أوربا منذ خمسين عاماً باستخفاف واضح، أما بالنسبة لتاوسك فإن الطب النفسي هو المهنة الثالثة التي ينطلق بها والثانية التي يخضع فيها لتدريب قاسٍ، وهاهو الآن - وبعد تأييده لفرويد في هجومه على التنظيم المراتبي Statusquo للطب النفسي - يجد نفسه فجأة وقد فقدَ فرويد- ذلك المعلم العظيم الذي عمل بإلهامه خلال السنوات العشر الأخيرة - ولا يصعب علينا تفهّم نفور هذا الرجل من أن يبدأ من جديد مرة أخرى. إن إخلاص تاوسك واحترامه الشديد لفرويد يتنافى مع عمره ومواهبه، وإن عجزه عن الخروج عليه والابتعاد التام عنه يرجع إلى عدم ثقته بقدراته الخاصة على الاستقلال. لقد أصبحت علاقته مع فرويد «تكافلية»، وشكّل فرويد عنصراً أساسياً في عمله. إن مشاركة فرويد في عمله رفع أتباعه الى أفضل مستوياتهم الإبداعية ولكنه «طفّلهم» تجاهه شخصياً. وليس من باب الصدفة ورود تلك الحكاية عن خصْيِ تاوسك لنفسه.

لقد أُجبر تاوسك - عندما نحّاه فرويد جانباً - على اكتشاف أن ارتباطه بفرويد يخفي عجزه عن النمو باتجاه الرجولة المستقلة (رغم إدراكه الدائم بأن فشله في اقامة علاقة مستقرة مع امرأة يعود إلى عدم قدرته على تحمّل تبعية شخص آخر، وكانت تبعياته الشخصية مشبعة بالقلق). لقد هرب تاوسك- بجريه بين ذلك العدد الهائل من النساء المختلفات - من سلبيته الداخلية بالذات.

كان تاوسك عاشقاً دائماً، إنه - حسب وصف «لو أندرياس سالومي» - «مقاتل بقلب رقيق» وقد مرّ في جميع علاقاته المتعاقبة مع النساء - وأغلبهن

يهوديات* - بمرحلة من الإندفاع العاطفي الشديد يتلوها تراجعٌ خائف. ومع النساء، عبّر بحرية عن حاجته للتبعية والتمرد الذي توقظه هذه الحالة بداخله ولذلك هجر النساء واحدة تلو الأخرى (ولكنه عجز عن الهرب من فرويد). ورغم توقه للزواج وهدوء الحياة العائلية، فإنه لم يستطع الاحتفاظ بمشاعر دائمة تجاه أي من النساء اللواتي أحبهن.

لانعرف تماماً مدى إلمام فرويد بمشاكل تاوسك مع النساء، فقد اكتفى - عندما أرسله إلى هيلين دويتش - بذكر الأسباب التي تمنعه من تحليله شخصياً، ولابدّ أن موقف تاوسك المتقلب والمتحرر مع النساء قد وقف حائلاً أمام محبة فرويد التطهري والفيكتوري له**. كان الليبيدو عند تاوسك ينشد دون كلل مايبدو وكأنه حاجة للتحقق يستحيل إشباعها وراثياً، ولعله بحث - في لاشعوره - عن شقيقته يلكا، ولابدّ أنه لاحق صورة في داخله، ولذلك فإن بحثه لم يصل إلى نهاية معينة.

في وسط أوروبا أيضاً، تعرّض شخص آخر معاصر لتاوسك (يصغره بأربع سنوات) للصراعات المحورية ذاتها، ورغم عدم كونه «دون جواناً» إلاّ أن «فرانتز كافكا» سبّب الإحباط للنساء بسبب عجزه عن الزواج رغم اعتباره له «الارتهان بأفضل صيغة حاسمة لتحرير الذات والإستقلالية»، ولكنه - كما هي حال تاوسك- عجز عن القيام به: «منذ اللحظة التي قررتُ فيها الزواج جافاني النوم وصار رأسي يشتعل ليل نهار والحياة فقدت اسمها. . أنا أترنح يائساً. إنه الضغط العام للقلق والضعف واحتقار الذات» «كان الدافع وراء محاولتي الزواج اللتين أقدمتُ عليهما صحيحاً ودقيقاً: إن تأسيس بيت يعني أن يصبح المرء مستقلاً»[١٨]. . ولكن كافكا خاف من أن يشعر أطفاله تجاهه كما يشعر هو حيال والده الذي لايزال شامخاً باعتباره العملاق الجبار الذي عرفه في طفولته (لم يستطع

---

* أقام تاوسك علاقة غرامية مع كل من لوسي ڤون ياكوبي، وإلزاجير وسالم، وسونيا دورويلوڤيتس، إضافة الى من أتى ذكرهنّ سابقاً.

** في عيادة فرانكل - هوتشقارت، حاول تاوسك إثارة الأعضاء التناسلية لامرأة أزيل مبيضاها بواسطة قضيب كهربائي، وذلك لمعرفة مدى احتفاظ هذه الأعضاء بالحساسية الجنسية.

كافكا الإنفصال عن أبيه). ولذلك أخفق كافكا في تحقيق الحرية (انعتاق الذات) التي تاق إليها. يتساءل المرء - إزاء حالتي تاوسك وكافكا - عن الدور الذي لعبه ارتباطهما بأبويهما في حياتهما «وهو الدور الذي نادراً ماتعرضا له). ويبدو أن كلاً منهما عانى من شرخ في حياته العاطفية. كانا ذكرين مكتملي الرجولة ونشيطين طالما لايوجد التزام نهائي لأن الإلتزام يحيي المخاوف من صورة الأم «الخاصية». ولعلّ الزواج هو المعادل اللاشعوري للخصاء لأنّه يمنع استخدام القضيب بحرية بعد أن أصبح ملكاً لشخص آخر (الزوجة).

رغم أن فرويد لم يُعان من هذه الإشكالات الواضحة مع الزواج إلا أنه أيضاً لم يتعرض إلاّ نادراً لارتباطه مع أمه التي وصف حبها بطريقة غير واقعية الى حدّ يدفع إلى التشكيك بها*. ولم يعترف فرويد أبداً بمدى تبعيته لها. كانت أمه- في الواقع- (خلافاً للمرأة التي تزوجها) قوية ومكتفية ذاتياً، وهو النمط الأولي للمرأة الذي أصبح له سلطان عليه فيما بعد. واللافت للانتباه في حالة فرويد - مكتشف عقدة أوديب - أن أمه كانت الطرف الديكتاتوري مقابل أبيه العطوف والمسرف. ورغم ذلك لعب الأب دوراً استثنائياً في تكوين ذهن فرويد (كما هي حال تاوسك وكافكا أيضاً)، وعندما توفي والده عن ثمانين عاماً، كتب فرويد - في أربعينياته- أن هذه الخسارة قد «ثوّرت روحي»[٢٠] وفتحت الطريق أمام اكتشاف نظرية تحقيق الرغبة في الأحلام**. لقد لعبت الأمهات في نظريات فرويد أدواراً صغيرة جداً خلافاً للآباء الذين ضخّم أهمية ارتباط الطفل بهم.

إن السبب المباشر لانتحار تاوسك هو - بالتأكيد - عجزه عن إتمام الزواج

---

* «تحقق الأم إشباعاً لامحدوداً عبر علاقتها بابنها. هذه العلاقة - من بين جميع العلاقات الإنسانية - هي الشكل الأكثر كمالاً وتحرراً من ازدواجية المشاعر الوجدانية»[١٩].

** ربما يمكن هبوط الحياة الجنسية عند فرويد بهذه الخسارة للأب (انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب)، وقد كتب فرويد ذاته عن شخص آخر «علنياً كان أعظم متمرد يمكن تخيله، ولكنه من جهة أخرى، وفي مستوى أعمق، كان الأكثر خنوعاً بين الأبناء الى حدّ أنه - بعد موت والده- حجب عن نفسه متعة النساء بسبب إحساسه الحادّ بالذنب تجاهه»[٢١].

بـ«هيلدا لويفي» التي تعرف إليها وبدأ استعداداده للزواج بها خلال الأشهر الثلاثة الفاصلة بين توقف تحليله وانتحاره (وهي فترة لانعرف عنها الكثير)، ولاننسى احتمال نكوصه دائماً عند وقوعه في الحب. لقد رفض فرويد تحليله، وتوقف تحليله عند هيلين دويتش، قبل أن يستطيع التغلب على مشكلته الدائمة مع النساء.

لن نعرف أبداً مادار في خلد تاوسك، ولاتتعدى محاولتنا تفسير بعض الخيوط الرئيسية التي ساهمت فيما وصل إليه. «الحياة أعقد من أحجية صينية»(٢٢) - على حد تعبير كافكا-. نعتقد أن تاوسك واجه- قبيل زواجه المزمع مباشرة- ذلك القلق والرعب اللذين تعرض لهما سابقاً مرتين على الأقل، ولابد أنه ذُعر لما يخبئه زواجه من هيلدا إذ لم يكن بمقدوره تصور أن يحيا طوال عمره مع امرأة واحدة رغم أنه أحبها حباً جماً يمنعه من تسبيب تعاستها (كما حدث مع لي روزن وإلسي زيرمان أو حتى مارثا)، ولعله تخوف - من جهة أخرى- من نبذها له (كما جرى في العلاقة التي خاضها في لوبلين). لقد أصبحت حياته- بكل مافيها- أشدّ إيلاماً وتعذيباً من الموت وشكّل الموت تهديداً أقلّ من الحياة التي يحياها، لذلك اختار تاوسك الإنتحار.

# الفصـل الخامس

## عَظَمة الإنجاز

-١-

نستطيع أن نجمع بعض شذرات الأيام الأخيرة في حياة تاوسك رغم انقضاء خمسين عاماً على وفاته. ففي صبيحة اليوم التالي (الأربعاء ٢/ تموز/ ١٩١٩) كان عليه أن يستخرج رخصة بالزواج. ويوم الأربعاء له معنى وجداني خاص عند المحللين النفسيين إذ خُصصت أمسيات هذا اليوم لاجتماعات جمعية التحليل النفسي في ڤيينا*. أما بالنسبة لتاوسك فلم يستطع تحمل الحضور مع مجموعة فرويد في ذلك الأسبوع، ولذلك بعث برسالة إلى فرويد يوضح فيها أسباب تغيبه:

«البروفيسور الأجلّ..

أرجو أن تعذرني لتغيبي عن اجتماع اليوم لأنني منهمك في حلّ الموضوع الحاسم في حياتي ولاأريد أن أميل - عبر احتكاكي بك- إلى تمني اللجوء إلى مساعدتك. ربما أتحرر قريباً وأصبح أقدر على الإختلاط بك. أنا أنوي أن أظهر في أقلّ حالة عصاب ممكنة.

وإلى ذلك الوقت، أعبّر لك عن تمنياتي القلبية الحارة.

**المخلص**

**تاوسك**

**ڤيينا ١٩١٩/٧/٢**

* لاتزال جمعية بوسطن للتحليل النفسي تحافظ على تقليد الإجتماع في أمسيات الأربعاء حتى الآن.

لقد أدرك تاوسك أزمته ولم يجرؤ على الذهاب إلى الإجتماع خوفاً من طلب معونة فرويد مرة أخرى، فقد أراد تجنب التعرض للرفض من جديد خاصة وأن اجتماعات الأربعاء شكلت - على امتداد سنوات عديدة - مسرح صراعاته مع فرويد.

أمضى تاوسك فترة مابعد ظهيرة الثاني من تموز بصحبة ابنه ماريوس الذي قدم لزيارته من مدينة «غراتس Graz» وهو منهمك بمشاكله الشبابية الخاصة مع ربيعه السابع عشر. ورغم الحب الهائل والإعجاب اللذين يكنّهما ماريوس لأبيه فلم يلاحظ سوى بعض إمارات القلق عليه. تعشى ماريوس مع أبيه في تلك الليلة وعرف أنه سيذهب في وقت لاحق إلى حفلة موسيقية تؤدي فيها «هيلدا لويڤي» دور عازفة مرافقة.

ترك تاوسك ابنه بعد أن نصحه بعدم السماح للمبادىء شديدة الصرامة بأن تتحكّم في سير حياته «أشار - في الظاهر - إلى عداء مارثا تجاه الكحول، ولكنه حاول أن يُبعد ابنه بطريقة لبقة عن الأحكام الصارمة لأمه متجنباً أن يُثقل الحمل على ابنه الفتي)، كما حضّه - وفي ذهنه إشكالاته الشخصية - على الاستقلال وعدم الإفراط في محاكاة الآخرين. ولعله قصد عبر هذا التلميح أنّ ابنه لم يعد بحاجة للإعتماد على أبويه مبرراً بهذا فشله كأب. أما كلماته الأخيرة لابنه فكانت: «لاتقلق بشأني».

في ذلك المساء، كتب تاوسك رسالة إلى شقيقته المفضلة الباقية في يوغوسلافيا «نادا» شاكراً إياها على السجائر (كان يدخن بغزارة) ولحم الخنزير اللذين أرسلتهما إليه، وأخبرها أيضاً بخطوبته الوشيكة، وقد ظهر بعض التشاؤم في تلك الرسالة التي وصلت إلى أخته بعد وفاته. ويتضح أنه لم يكن قد قرّر الإنتحار حتى تلك اللحظة. إن انتحاره ليس متعمداً مسبقاً. بل متكوّن فيه مسبقاً بمعنى ما.

لانعرف ماذا حدث تماماً بين تاوسك وهيلدا في تلك الليلة، ولكننا نرجح

أنها لم تفعل شيئاً يثير قلقه بشكل خاص وأنه تأكد بأن معضلاته سترافقه حتى النهاية مع أنه وقع في غرام هيلدا - جزئياً- هرباً من تلك المعضلات فهي أمله الوحيد والرباط الأخير الذي يشدّه إلى الحياة. لقد استخدمها ليحرر نفسه من فرويد، وربما اكتشف في تلك الليلة انسداد سبل النجاة أمامه. ورغم توقه الهائل للحب، اكتشف عجزه عن حب هيلدا.

إن ارتباطه مع فرويد قد استنزف طاقته الوجدانية وأخفق تاوسك في حلّ هذا الصراع. وكما حدث معه من قبل، أحبّ بحماس شديد ثم تغيرت حالته بسرعة. وقد تواجه في وقت متأخر من ذلك الأربعاء مع التزامه بالزواج. ورغم رغبته الخاصة في النجاح مع هذه المرأة بالذات، عرف بأنه اختبر هذه الحالة من قبل مضافاً إليها تخلّي فرويد عنه في هذه الفترة. مع الساعات الأولى من صبيحة يوم الخميس (٣/ ٧/ ١٩١٩)، قرر تاوسك أن يقتل نفسه، فكتب وصية تحتوي قوائم مفصلة بجميع ممتلكاته، وهي (القوائم) آخر ماتبقى لديه لبناء خلوده*؛ وقد ثبّت قراره الخاص بجانب مفردات بضائعه الدنيوية تلك. ثم كتب رسالتين مهرهما بختمه ووضعهما على طاولته إحداهما موجهة لهيلدا والأخرى لفرويد. وكان يشرب حين كتبهما «سليڤوڤتس» (وهو المشروب اليوغوسلافي القومي). بعد ذلك، لفّ حبل إحدى الستائر حول رقبته وصوّب مسدسه الحربي الى صدغه الأيمن ثم ضغط على الزناد. إننا هنا إزاء رجل قرّر أن ينهي حياته بشكل قطعي، فإضافة إلى تهشم جزء من رأسه شنقَ نفسه أثناء سقوطه.

أبلغ أحدهم شقيقته يلكا بالنبأ، فأبرق زوجها إلى مدينة غراتس قائلاً أن ڤيكتور مريض بحالة خطرة، ورغم أن ماريوس كان قد وصل لتوه إلى البيت، فإن مارثا انطلقت مباشرة بصحبة ولديها. كتب ايرنست غانس برقية أخرى تُرسل بعد ساعة وتخبرهم بموت ڤيكتور ولكن هذه البرقية قد تأخرت لسبب ما، ولذلك لم تعرف مارثا بما حدث إلا عند وصولها إلى بيت يلكا في ڤيينا.

* إن كتب تاوسك التي ملأت تسعة عشر صندوقاً شكلت الجزء الأهم في ممتلكاته. أما وثيقة تأمينه على الحياة فقد استهلكها تضخم مابعد الحرب.

حاول ماريوس خلال يومين رؤية فرويد لأنه الوحيد - برأيه- القادر على ايجاد تفسير لما حدث مع والده، وقد سُمح له بمقابلته لفترة قصيرة في مكتبه في الخامس من تموز. رآه فرويد في الوقت الفاصل بين مريضين، وأدرك الشاب حجم الإمتياز الممنوح له عبر الدخول إلى حرم فرويد. كان فرويد متحفظاً بعض الشيء وجرى اللقاء بطريقة رسمية وتقليدية. وربما امتنع فرويد عن الإفضاء له بما لديه بسبب صغر سن ماريوس (سبعة عشر عاماً). على كل حال، أوضح له فرويد بأنه استلم رسالة انتحار من والده وأنه سيعيدها إليه حال عثوره عليها.

تمّ إعداد مراسم الدفن في المقبرة المركزية في السادس من شهر تموز ولم يكلَّف أحد بإلقاء كلمة عنه- - لاقسيس ولاحاخام- سوى القبر فقط. كان هوغو (ابن عم تاوسك - شقيق مارثا) مذهولاً إلى حدّ أراد فتح الكفن فلم يصدق أن تاوسك - الذي اعتبره تجسيداً للحياة - قد مات.

في ظروف التوتر، لاتُحسن العائلات التصرف بأفضل مالديها. فقد اغتاظ إيرنست غانس من مارثا بسبب إذعانها لهيلدا ودعوتها إلى مشاركتها المكان الأول معتبراً أن صدور هذه الدعوة من قبل أمّ طفليه لخطيبته لمدة قصيرة تنمّ عن عدم احترام للمتوفي. إن وفاة مثل هذا الرجل لابد أن تصدم الجميع وتخلّف فراغاً ما. وفي الأيام القليلة السابقة للدفن، حاولت هيلدا أن تكون ودودة مع ابني تاوسك ولكن إحساسها الشخصي بالذهول جعل جهودها تبدو مزيفة.

لايتذكر ماريوس الآن كيف عادت إليه رسالة والده إلى فرويد، فقد زار عائلة فرويد مرة أخرى ويظن بأن «آنا فرويد» هي التي أعادت إليه تلك الورقة الثمينة إضافة إلى عدة رسائل أخرى من والده. وربما نستغرب قيام فرويد بتسليم ماريوس هذه الرسائل، فما الذي سيفعله بها هذا الصبي؟ لقد رغب فرويد في إنهاء تخلصه من ڤيكتور تاوسك وليس مساعدة ابنه أبداً. ولكن ماريوس لم يتصور أن هذا التصرف غير مناسب بحق والده، بل- على العكس- احتفظ بوصيّة والده إلى فرويد مدة خمسين عاماً باعتبارها دليلاً على العلاقات الجيدة التي ربطت والده مع فرويد. قال تاوسك في رسالته:

«عزيزي البروفيسور . .

أرجو أن تساعد خطيبتي الحبيبة الآنسة هيلدا لوبُي (II كورنرغاس 2)، إنها أعزّ امرأة دخلت حياتي، وهي لن تطلب منك الكثير ففي داخلها طاقة كبيرة على السعادة، ولكنها تُبدي أعراضاً وتماهيات قهرية. إنها نبيلة ونقية ولطيفة تستحق عناء تقديم النصائح الجيدة لها.

أشكرك على المعروف الجمّ الذي قدمته لي والذي أعطى معنى لحياتي خلال السنوات العشر الأخيرة. إن عملك مبدع وعظيم. إنني أغادر هذه الحياة وكلّي إدراك لكوني أحد أولئك الذين شهدوا انتصار إحدى أعظم الأفكار التي توصل إليها الجنس البشري.

إن انتحاري ليس نابعاً من السوداوية، بل إنه أكثر صحية وأفضل مأثرة في حياتي الفاشلة. لاأتهم أحداً وقلبي خالٍ من الضغينة، وكلّ مافي الأمر أنني أموت - بطريقة ما- أبكر من الوقت الطبيعي.

أحيي جمعية التحليل النفسي وأتمنى لها الخير بجماع قلبي. أشكر جميع الذين ساعدوني عندما احتجت لذلك. إن من يستحقون هذا العرفان سيعرفون ذلك بأنفسهم.

أتمنى لك طول الحياة ودوام الصحة والعافية والقدرة على العمل.

**أحييك بحرارة**

**المخلص**

**تاوسك**

**أرجو أيضاً أن تعتني بولديّ بين الفينة والأخرى.**

**ڤيينا ١٩١٩/٧/٣»**.

توصل تاوسك - عبر قراره بقتل نفسه- إلى مصالحة داخلية ولم يبق لديه- بعد توجيه مشاعره العدوانية تجاه الداخل- سوى مشاعر الحب للآخرين. إن اقترابه من الموت جعله هادئاً يؤكد على مدى ماكسبه من فرويد. ولايصعب تخمين

ماترمي إليه هذه الرسالة التي بدأها بـ «Lieber prof (أي البروفيسور العزيز)» خلافاً للورقة التي أرسلها مساء الأربعاء وبدأها بـ «البروفيسور الأجلّ»، فرغم إعلان حبه لفرويد خلت رسالته من عبارات الودّ المزيفة. أخيراً: لقد وقّع رسالته باسم «تاوسك» لأنه لم يكن «ڤيكتور» بالنسبة لفرويد في أيٍّ من الأوقات.

ربما رغب تاوسك بقتل نفسه كحيوان بريّ، ولكنّ ماخلّفه وراءه كان هادئاً ومصعّداً. نحن هنا إزاء الجانب الفعال والطموح في موته: تعطشه للخلود. لقد حقق عظمته عبر هذه الرسالة رغم أن إمضاءه السريع يشير إلى رجل يرى صورته وهي تتلاشى.

تحمل هذه الرسالة معنى إضافياً آخر هو عدائيتها المطلقة- على نحو ما- تجاه فرويد، فهي تشير – حسب السياق الذي وردت فيه- إلى فكرة: «تظن بأنني أرغب في قتلك، أما الحقيقة فهي أنني أحبك ومعجب بكَ». إنّ مجرد الكتابة إلى فرويد يعني توجيه اللّوم إليه على المشكلة التي رافقته طوال حياته.

في مسرحية «الشفق» يقول ڤولفغانغ (وهو «بديل أنا» تاوسك alter ego) وقبل سنوات عديدة من تفكير تاوسك بالإنتحار: «كلما تملكني شعور بالذنب أكتبُ رسالة جميلة إلى شخص ما». لقد نجح تاوسك في تحويل هذه الأفكار القهريّة المتكررة إلى نوع من التضحية في سبيل التحليل النفسي لمدة تقارب أحد عشر عاماً. إن رسالته هادئة جداً وعادية ولكنها لم تكشف سبب انتحاره وتركت فرويد في ظلام دامس حول دوافع ذلك الفعل.

استخدم تاوسك في المرة الأخيرة أيضاً امرأةً كمعبر إلى فرويد، وانصب اهتمامه في رسالته على مصلحة الآخرين الذين طلب من فرويد أن يعتني بهم بدلاً منه فأوصاه بهيلدا التي ربما حدّثه عنها سابقاً (ولكننا نستبعد هذا الاحتمال نظراً لأنه كتب له عنوانها حتى يستطيع الاتصال بها)، ولعلّ هيلدا لم تقابل فرويد مطلقاً رغم هذه التوصية ونلاحظ أن قنوات الاتصال بين الرجلين قد تراجعت بشكل محزن مع مرّ السنين، فمن لوأندرياس سالومي، إلى هيلين دويتش، وأخيراً هيلدا لويفي.

أحجم تاوسك عن ذكر دوافع انتحاره في رسالته لفرويد تاركاً إياها لغزاً، أما في وصيته التي حررّها في ذلك الصباح الأخير من عمره، فقد أضاء، على الأقل، دوافعه الشعورية: «إنني أغادر حياتي التي تخربت أساساً منذ طفولتي والتي فقدت معناها تماماً الآن طالما أنني لاأستمتع بها. إنّ موهبتي أقلّ من أن تشكل سنداً لي. إن إدراكي لعجزي عن الدخول بسرور في زواج جديد وأنني لاأستطيع سوى إبقاء نفسي مع خطيبتي في خضم الصراعات والعذابات هو الدافع الشعوري الحقيقي لانتحاري.

وداعاً ياأمي وإخوتي وأخواتي وأصدقائي. ياولديَّ العزيزين عيشا حياة أفضل مما فعلتُ. إنسوني جميعاً في الحال فقد خدعتكم بلعبي دوراً لستُ أهلاً له».

نعود إلى الوراء لنتذكر رسالة كتبها في عام ١٩٠٥ وتحدث فيها عن تأنيب أحد أصدقائه له بسبب تغييره لمهنته معتبراً أنه شخص عادي تماماً لاتختلف مؤهلاته عن غيره. لقد ضحى تاوسك بالكثير أملاً بأن يصبح مبدعاً ولكنّ قدراته لم تكن ضخمة بما يكفي في تنافسه مع فرويد.

كي ينال السلام، توجب على تاوسك أن يمحي أثره، ولذلك أوصى بإحراق جميع أوراقه دون قراءتها (نذكر عرضاً أن كافكا فعل الشيء ذاته)، وقد أمضى هوغو - ابنه الأصغر - يوماً كاملاً لتنفيذ هذا الطلب.

عيَّن تاوسك «كاميلوغانس» منفذاً لوصيته، وعيَّن المحلل النفسي إدوارد هيتشمان وصياً على ولديه. كان هيتشمان طبيباً داخلياً محترماً تعرّف إلى التحليل النفسي من خلال صديقه القديم بول فيدرن وعمل طبيباً لعائلة فرويد لبعض الوقت. طلب تاوسك من هيتشمان مساعدة ولديه العُصابيَّين تقريباً بواسطة التحليل النفسي. لقد بحث تاوسك عن خلاصه وخلاص من أحبهم عبر التحليل النفسي، فعندما تعرضت شقيقته «نادا» لبعض الإضطرابات نصحها بالعلاج التحليلي، وطلب معونة فرويد في حالة هيلدا. اعتبر تاوسك أن التحليل النفسي

ليس مجرد منهج لعلاج المشاكل الذهنية والروحية بل إتماماً للتربية والحلّ الأخير لمشاكل الجنس البشري*.

ماذا نستخلص - بعيداً عما كتبه تاوسك عن دوافعه للموت- من مجرى حياته ومأزقه الأخير؟ رغم تعدّد الدوافع التي تصب في مجرى العزلة الداخلية القاسية التي تسبق فعلاً من هذا النوع، فإننا نستطيع إلقاء الضوء على بعض القوى التي حررت هذه الفظاعة المفرطة من عقالها. إنّ كَرَب تاوسك ودور فرويد في ذلك أصبحا واضحين بالنسبة لنا. لقد أخفقت حياته بشكل مضاعف: في بيته، وفي مهنته، ودفعه خوفه من تدمير حياة امرأة جديدة (بسبب عجزه عن إقامة علاقة غيرية Heterosexual دائمة) إلى رفض حياته المقبلة مع هيلدا. قال أحدهم: «لايتخلى أحد عن حياته إلاّ إذا فقدَ الأمل بالحب»[٢].

إنّ حالة الهياج الشديد التي عاشها تاوسك دفعته إلى قتل نفسه بوسيلتين: إطلاق النار على رأسه، والشنق. وهذا الإنتحار المضاعف يتلاءم مع طرفي صراعه المركزي: إخفاقه مع هيلدا، وعلاقته المحبطة مع فرويد، ولذلك نتفهم تفضيله لقتل نفسه بشكل مضاعف بدلاً من هيلدا وفرويد**.

علمنا التحليل النفسي أن الانتحار ينبعُ من عدوانية لاتجد تصريفها في الخارج. وأول من أعلن ذلك هو ڤيلهلم شتيكل Stekel الذي قال: «لايقتل أحد نفسه إلاّ إذا رغب تقبل شخص آخر، أو - على الأقل- تمنّى له الموت»[٣]. إن الإنتحار جريمة بحق الذات، القاتل والمقتول فيها متحدان في شخص واحد، ومن خلالها يتماهى المنتحر مع الذين يكرههم ويكفّر عن الرغبات المكروهة لديه. كتب فرويد بعد عدة أشهر فقط من موت تاوسك: «ربما لايحصل المنتحر على الطاقة

---

* لاتزال هذه النظرة العامة قائمة حتى الآن. أعلن أحد المحللين مؤخراً (عام ١٩٦٥) أنه: «يُمكن - عبر الإستخدام الدقيق للتحليل النفسي- بناءُ عالم جديد وحضارة جديدة والوسائل الكفيلة بإحياء الغرب»[١].

** حسب ميلا بابنهايم (وهي إحدى زميلات تاوسك) فإن تاوسك اختار الانتحار وفق الطريقة التي وصفها أستاذهما في الطب الشرعي باعتبارها الطريقة الأضمن للموت المحقق. لقد طبق تاوسك إذن ماتعلمه بطريقة ما.

الذهنية اللازمة لقتل نفسه إلا إذا كان - في الدرجة الأولى - يقتل في الوقت ذاته موضوعاً قد تماهى به. إنه يحوّل - في الدرجة الثانية- ضد ذاته رغبة بالموت تتجه نحو شخص آخر»[٤] إن الشخص الميت لايمكن أن يقتلُ، والشخص الميت لايمكن أن يموت. وقد يكون الانتحار وسيلة للسيطرة على القلق والوصول إلى أفضل مافي الوجود*.

لابدّ أن تاوسك خشي من رغبته الشخصية بالحياة، ولذلك اندفع إلى تنفيذ قراره بطريقة حاسمة تماماً. ومن المعروف أن الكثير من الأشخاص يبقون أحياء بعد محاولاتهم الإنتحارية وإشباع حاجتهم العابرة لتدمير الذات. وفي الحقيقة، تؤدي معظم محاولات الإنتحار غرضاً علاجياً إذ تهدف إلى السيطرة على أشخاص آخرين إشباعاً لرغبات معينة. وفي مثل هذه الحالات تكون «اعتبارات الموت- على النقيض - في حالتها الدنيا»[٥]. إن العديد من الأشخاص الذين يقدمون على الإنتحار لايريدون فعلاً أن يموتوا أو لايعتقدون بأنهم سيموتون حقاً إثر محاولتهم. ويتبين أن عدداً محدوداً من محاولات الإنتحار يجري في ظروف تجعل الموت محققاً»[٧]. أما في حالة تاوسك، فإن عناصر لفت الإنتباه أو التمثيل أو حتى الصراخ طلباً للمساعدة، كانت أقل أهمية من الدافع النقي المطلق للموت.

ثمة رابط موضوعي بين الشخصين اللذين أراد تاوسك موتهما وهو أن فرويد تركه وحيداً في ورطته مع النساء. لقد رفض فرويد مساعدته عن طريق تحليله نفسياً، وأحس تاوسك- المستعد لأن يصبح ابناً محبباً لفرويد - بأنه رماه بعيداً. ورغم ذلك لم يكن يوجد - من جهة تاوسك- مايدفعه إلى الإنتحار بسرعة. صحيح أن جزءاً كبيراً من حياته ارتبط مع كونه محللاً نفسياً، إلاّ أنه افتقد قوة الإرادة أو احترام الذات اللازمَيْن لمقاومة تنازله عن إنسانيته تجاه فرويد.

تواجه تاوسك مع مهمة البدء من جديد في مهنة جديدةوللمرة الثالثة في حياته. ولكنه ألفى نفسه عاجزاً عن ترك التحليل النفسي أو التوقف عن كونه محللاً

---

* «إن الإنتحار - بالنسبة لمن يُقدم عليه - هو محاولة للحياة أو لإنقاذ الذات، وربما يهدف منه صاحبه إلى تجنب حالة مرعبة أكثر كاقتراف جريمة أو الجنون»[٦].

نفسياً مع المحافظة على خصوبته في الوقت ذاته إضافة إلى فشله في كفاحه للإبداع كمحلل، ولذلك لجأ إلى قتل نفسه لإنهاء خلافه مع فرويد وتأكيداً على ذنبه الشخصي باعتبارها الطريقة الوحيدة للتخلص من تعاليم فرويد الذي تمادى في تماهيه به ولم يعد أمامه سوى قتله من خلال انتحاره. من جهة أخرى، فإن رفضه للبديل «السهل» بالخروج عليه وتأسيس مدرسته الخاصة ينسجم مع استقامة معلمه (فرويد).

من السهل- نظرياً- ملاحظة الدلائل المبكرة على فشل بعض الأشخاص في حياتهم المقبلة. ومع ذلك، فعند النظر إلى نقاط الإنعطاف في حياة أي شخص لايبدو أياً منها حاسماً بقدر مايتجلى عند إعادة رؤية حياته بعد حدوث ذلك الإنعطاف، ومن الصعب تقرير أي الحكمين - التأملي اللاحق للحدث، أم المعاصر له- أكثر صحة. لقد عانى تاوسك - حقاً- من صراعات خطيرة طوال حياته وظهر مزاجه وأفكاره الإكتئابية حول الموت على الأقل منذ نظمه للشعر الغنائي، ولكنه رغم ذلك فاز بحب نساء عديدات وبإعجاب زملائه وعرفان مرضاه بجميله. إن الآلام الهائلة والأولية تعمل ضد صاحبها بشكل حاسم في النهاية فقط.

حين شرع فرويد في التحرر منه، كان تاوسك قد أصبح مستعبداً. إذن، كيف كانت ردة فعل فرويد - وهو في الثالثة والستين- إزاء موت تلميذه البارز؟

-٢-

تمثل نعوة فرويد وجهة نظره فيما جرى، ورغم أنها مُهرت في الأصل بتوقيع «هيئة التحرير» فإنها ظهرت لاحقاً ضمن مجموعة أعمال فرويد التي جُمعت تحت إشرافه المباشر، وهذا يؤكد أنه اعتبرها من نتاجه حتماً*. تلّخص هذه النعوة بشكل ممتاز مجمل التغيرات التي طرأت على حياة تاوسك ومساهماته الخاصة في التفكير التحليلنفسي:

---

* أنا مدين هنا لرسالة بعثها لي جيمس ستراشي بتاريخ ٢٨/٦/١٩٦٧.

«من بين الضحايا- وهم قلّة، لحسن الحظ- الذين استُدعوا للحرب من ضمن صفوف حركة التحليل النفسي، يجب أن نعدّ الدكتور ڤيكتور تاوسك. هذا الرجل الموهوب بشكل قلّ نظيره هو أخصائي في الأمراض العصبية، وقد أنهى حياته قبل أن يتم توقيع السلام. كان الدكتور تاوسك - الذي بلغ الثانية والأربعين من عمره فقط- أحد أعضاء الحلقة المقربة من أتباع فرويد لأكثر من عشرة سنوات.

لقد عمل تاوسك (المحامي في الأصل) قاضياً في بوسنيا لفترة معتبرة، ولكنه- بتأثير التوتر الذي أحدثته مشاكله الشخصية الحادة- هجر مهنته وتحول نحو الصحافة التي تنسجم مع ثقافته العامة الواسعة. وبعد أن عمل كصحفي في برلين لفترة توجّه إلى ڤيينا وهو يعمل في هذه المهنة، وهنا تعرف إلى التحليل النفسي وقرر مباشرة أن يكرس نفسه لخدمته بالكامل. ورغم أنه رب عائلة تجاوز سن الشباب، فإن الصعوبات الكبيرة والتضحيات التي يتطلبها تغيير جديد لمهنته (خاصة وأن المهنة الجديدة التي اختارها تستلزم إعداداً يستمر سنوات قبل أن يكسب عيشه منها) لم تثنه عن عزمه، وقد بدأ بالدراسة المملة للطب فقط كوسيلة تمكنه من مزاولة التحليل النفسي.

قبيل اندلاع الحرب العالمية نال تاوسك شهادة الطب من الدرجة الثانية، وبدأ يعمل كأخصائي بالأعصاب في ڤيينا، وخلال فترة قصيرة نسبياً كوّن خبرة جيدة وأنجز بعض النتائج الرائعة. هذه النشاطات شكلت وعداً للطبيب الشاب الصاعد بإشباع طموحاته وتأمين وسائل المعيشة، ولكنّ الحرب انتزعته بعنف من خضمّ عمله إذ استُدعي إلى الخدمة الميدانية مباشرة ورُقّي فوراً إلى مرتبة أعلى. لقد أدى واجبه الطبي بإخلاص في مختلف مسارح الحرب التي شهدها سواء في الشمال أو في البلقان أو - أخيراً - في بلغراد، وتلقى ثناء رسمياً عن خدمته. إنه لشرف كبير أنه خلال الحرب رمى نفسه بإخلاص وإهمال تام للنتائج في معارضة المظالم العديدة التي - لسوء الحظ- وقف العديد من الأطباء صامتين إزاءها أو حتى شاركوا فيها. إن التوترات التي تخلفها خدمة عدة سنوات في حقول المعارك لابد أن تسهم في تضخيم الأثر النفسي الحاد والمخرب على رجل حيّ الضمير كتاوسك. وفي

مؤتمر التحليل النفسي الأخير الذي عقدناه في بودابست في شهر أيلول من عام ١٩١٨ - وهو المؤتمر الذي جمع المحللين من جديد بعد عدة سنوات من التفرق - ظهرت على الدكتور تاوسك - الذي عانى طويلاً من صحته الجسدية المعتلة- علامات على اضطرابات عصبية غير عادية. وبُعيد المؤتمر - في الخريف الماضي- أنهى خدمته العسكرية وعاد إلى ڤيينا حيث تواجه للمرة الثالثة (وهو في حالة الإنهاك الذهني) مع تلك المهمة القاسية وهي بناء وجوده من جديد وفي ظل أسوأ الظروف داخلياً وخارجياً. إضافة لذلك، فإن الدكتور تاوسك الذي ترك وراءه ولدين تفانى في سبيلهما كان مُقدماً على زواج جديد. وحين لم يعد باستطاعته التعامل مع المتطلبات العديدة التي فرضها عليه الواقع الفظ وهو معتل الصحة، فقد أنهى حياته في صبيحة الثالث من شهر تموز.

كان الدكتور تاوسك عضواً في جمعية ڤيينا للتحليل النفسي منذ خريف عام ١٩٠٩، وهو معروف لقرّاء هذه الصحيفة من خلال مساهماته العديدة التي تميزت بالملاحظة الحادة والحكم العميق ووضوح التعبير، وتبين كتاباته عمق أعداده الفلسفي الذي استطاع - لحسن الحظ- أن يدمجه مع المناهج العلمية الدقيقة. إن حاجته القوية إلى بناء مواقفه على أساس فلسفي وتحقيق الوضوح المعرفي ألزمته بصياغة المشاكل الصعبة المطروحة ومحاولة التوصل إلى العمق الكامل والمعنى الشمولي لها، وربما مضى أحياناً - في غمرة اندفاعه الشديد للبحث- بعيداً في هذا المضمار، وربما لم يكن قد حان الوقت لوضع مثل هذه الأسس العامة لعلم التحليل النفسي الفتي. إن اهتمام التحليل النفسي بالقضايا الفلسفية (التي أظهر تاوسك موقفاً خاصاً تجاهها) يبشر بخصوبة متزايدة. إن إحدى أعمال تاوسك الأخيرة، وهي مقالة تدور حول موضوع التحليل النفسي لوظيفة «الحكم Judgement» (قُدمت لمؤتمر بودابست ولم تنشر بعد) تشكّل دليلاً على هذا الإتجاه الذي جذب انتباهه.

إضافة إلى موهبته الفلسفية وانجذابه نحوها، امتلك تاوسك قدرات استثنائية خاصة في علم النفس الطبي فأنجز أعمالاً هامة في هذا الحقل أيضاً. إن نشاطاته

السريرية التي نُدين لها ببحوث قيّمة في الذُّهانات المختلفة (أي: السوداوية والفصام) تبرّر آماله المشروعة بالحصول على منصب «محاضر» في الجامعة (وهي الوظيفة التي تقدّم إليها).

إن جميع الذين عرفوه يثمنون عالياً شخصيته النزيهة وشرفه (تجاه نفسه وتجاه الآخرين) وسموّ طبيعته التي تميزت بالكفاح في سبيل النبّل والكمال. أما مزاجه الانفعالي فعبّر عن نفسه في الإنتقادات الحادة - والحادة جداً في بعض الأحيان- التي تواكبت - رغم ذلك- مع موهبة لامعة في العرض. إن هذه الصفات الشخصية شكلت جاذبية كبيرة لأشخاص عديدين ونفّرت - أحياناً- بعض الآخرين منه. مع ذلك فالجميع متفقون في الانطباع المتولّد لديهم عن أهمية هذا الرجل.

أما موقفه من التحليل النفسي حتى آخر لحظات حياته فيتضح من الرسائل التي خلفّها وراءه وعبّر فيها عن إيمانه غبر المحدود بالتحليل النفسي وأمله بأن يجد الاحترام اللائق به في فترة قريبة، ولاشك أن هذا الرجل الذي فقده علمنا وأصدقاؤه في ڤيينا في فترة مبكرة قدّم نصيبه لتحقيق هذا الهدف. إن ذكراه مشرفة في تاريخ حركة التحليل النفسي وصراعاتها الأقدم»(٨).

يرى فرويد - إذن- أن الظروف الخارجية هي التي أنهت حياة تاوسك. ورغم وصفه للتوترات التي عاش تاوسك في ظلها، فإن فرويد لم يربط مشاعر تاوسك الداخلية مع فاجعة عالم الحرب بشكل واقعي لأن المشاكل الواقعية- كما يعرف فرويد جيداً - تلعب دوراً مفرجاً بشكل مدهش للاضطرابات الداخلية. وعندما ألقى تبعة موت تاوسك على الحرب، لم يكن فرويد مخادعاً بشكل واعٍ، فقد رغب حقاً بالإقتناع بأنه لم يساهم في مأساة تاوسك الأخيرة. ربما صُعق فرويد بالوفاة غير المتوقعة لتاوسك ولكنه لم يسمح لنفسه بالتعبير عن الحزن.

لانعرف ما الذي كتبه فرويد لتلميذه ابراهام وفرنزي عن هذه الحادثة لأن المقاطع الخاصة في مراسلاته لم تُنشر، ولكن بحوزتنا مقطعاً صغيراً من رسالة

موجهة إلى «بفيستر Pfister» بتاريخ ٧/١٣ (أي بعد عشرة أيام من وفاة تاوسك) ينسجم تماماً مع أفكار النعوة: «لقد انتحر الدكتور تاوسك. كان رجلاً موهوباً بشكل استثنائي، ولكنه أحد ضحايا القدر، ضحية متأخرة للحرب. هل تعرفه؟»[٩].

في الخامس عشر من شهر تموز من عام ١٩١٩، ذهب فرويد مع مينا - شقيقة زوجته - لقضاء عطلته الصيفية، وبقيت زوجته في البيت. لقد سافرت مينا بصحبته دوماً باعتبارها أكثر من مجرد رفيقة فكرياً. انتظر فرويد مرور شهر تقريباً على وفاة تاوسك قبل أن يكتب إلى «لوأندرياس سالومي» (في الأول من شهر آب). سيذكر التاريخ فرويد بوصفه أحد أعظم مدبجي الرسائل في العالم. لقد خصص وقتاً منتظماً لكتابة كومة من الرسائل - أثناء عمله - يتواصل عبرها مع أتباعه في جميع أنحاء العالم (استاء فرويد من يونغ لأنه أقل إخلاصاً لفنّ كتابة الرسائل).

وفي رسالته إلى سالومي، خدع فرويد نفسه بإنكار تحمله لأية مسؤولية إزاء موت تاوسك. لو أدرك فرويد لدوره في حادثة تاوسك، لما كتب النعوة أبداً ولاأعاد رسالة الإنتحار تلك إلى ابن تاوسك. مع «لو» عبّر فرويد بحرية أكبر عن ارتياحه لذهاب تاوسك: «إن المسكين تاوسك - والذي خصصتيه بصداقتك لفترة- قد وضع حداً نهائياً لحياته في الثالث عن شهر تموز الماضي. لقد عاد من هول الحرب منهكاً. ومحاولاً إعادة بناء وجوده الذي فقده خلال تأدية الواجب العسكري، وفي ظل أسوأ الظروف، فقد أدخل امرأة جديدة في حياته كان سيتزوجها بعد اسبوع لو لم يقرر شيئاً مختلفاً. إن رسائله الوداعية إلى خطيبته وإلى زوجته الأولى وإليّ متشابهة في عاطفتها وتبين صفاءه الذهني وتلقي باللائمة على قصوره الشخصي وحياته غير الناضجة دون أن تلقي أي ضوء على عمله الأخير. في رسالته، أكد لي إخلاصه الراسخ للتحليل النفسي وشكرني. . الخ. . ويصعب تخمين مايخفيه وراء كل ذلك. إذن فقد كان يتصارع - خارج حياته اليومية- مع شبح والده. أعترف بأنني لاأفتقده حقاً فقد اعتبرتُه عديم الفائدة منذ فترة طويلة ومصدر خطر

مستقبلاً. لقد أتيحت لي فرصة إلقاء عدة نظرات على البنية التحتية التي تقف عليها تسامياته الفخورة ورغبت من وقتها بإسقاطه من حسابي لو لم ترفعي من شأنه في نظري. كنتُ مستعداً طبعاً، وفي كل الأحوال لمساعدته، ولكنني كنتُ عديم الحيلة تماماً إزاء التفسخ المزمن الذي ظهر مؤخراً في جميع علاقات ڤيينا. لقد نجحتُ دوماً في إدراك موهبته المتميزة التي لم تستطع أن تُترجم إلى إنجازات ثمينة تتلاءم معها».

إن رسالة فرويد تصدمُنا حتى لو لم نتابع مأساة تاوسك عن كثب. ولسوء الحظ، فإن الرقابة حذفت من هذه الرسالة (في النسخة التي نُشرت مؤخراً[١٠]) المقاطع الأشدّ إزعاجاً - كما فعلت بجميع رسائله الأخرى-. ونحن نقرّ بأن الرسائل هي وسيلة اتصال بين كاتبها ومتلقيها ونرجح وجود فرضيات خاصة غير معروفة بشأن تاوسك بين فرويد و «لو». كان فرويد نزيهاً في التعبير عن مشاعره وجريئاً بخصوص أسوأ صفاته - وهذا عرّضه للإنتقادات الواسعة- واعتزّ باستقامته وتطابق أقواله مع قناعاته.

بغض النظر عن خلفية رؤية فرويد لعلاقته مع تاوسك، فإن هذه الرسالة الموجهة إلى «لو» تبدو لاإنسانية، وحين نقارنها مع رسالة تاوسك الأخيرة إليه، نجد صعوبة في تصديق أن فرويد استطاع التعبير عن مثل هذه الأفكار. وخلافاً لنعوته الرسمية والإطراء العام الذي تنطوي عليه، فإن فرويد - في السر- لم يشعر إزاءه إلاّ بالشفقة. يبدو أن فرويد الذي وقف حياته على معرفة النفس قد اهتم بما هو «مفيد» لدراساته أكثر من اهتمامه بما هو مفيد للحياة البشرية. إن تفانيه في خدمة قضية التحليل النفسي أجاز له هذه القسوة*.

في شبابه، وقبل تأسيس التحليل النفسي، لم يكن فرويد متحجّر القلب على هذا النحو عند مواجهة مأساة إنسانية. كتب في سن السابعة والعشرين رسالة

* ربما أومأ هانس ساخس إلى انتحار تاوسك عندما كتب: «لقد رأيتُه [أي فرويد] عندما وصلته الأخبار عن انتحار شخص ربطته به علاقة حميمة لعدة سنوات، واستغربت عدم تأثره إزاء مثل هذه الحادثة المأساوية»- ساخس: فرويد المعلم والصديق ص ١٤٧.

حسّاسة ومليئة بالمشاعر بمناسبة انتحار أحد أصدقائه[١١]. لقد امتلك فرويد كل المواهب النفسية لكاتب عظيم، ولكنه- مع تقدمه في السنّ والإنتصار المتزايد للجانب العلمي فيه على الفنان- فإن إنسانيته أصبحت صارمة. وقد كتب فيما بعد «لقد أصبح التحليل النفسي حياتي بأكملها بالنسبة لي»[١٢].

لقد أصاب فرويد تماماً عندما شكّك بما يختفي وراء السطح الظاهري لرسالة تاوسك الانتحارية، ونرجح أنه ارتاب بما يقبع خلفها. مع ذلك فإنه تجنّب - قدر المستطاع- إلقاء اللوم على نفسه وكتب إلى «لو» طالباً تأييدها له. ونعتقد - في حدود معلوماتنا - بأنه أخطأ حين ظنّ بوجود رسالة ثالثة إلى مارثا، ولعله أراد بذلك نشر مسؤولية انتحار تاوسك على أكبر عدد من الأشخاص المحيطين به (تماماً كما فعل حين مهر نعوته بتوقيع «هيئة التحرير» بدلاً من اسمه). ونرجح أنّ فرويد لم يطلع على الرسالة الموجهة إلى هيلدا ولا على الرسالة المزعومة الموجهة إلى مارثا لأنه لم يعرف الحافز الشعوري الذي أعلنه تاوسك في وصيته، أم أن فرويد لم يرغب في تقبل تلك الرواية عن انتحار تاوسك؟

لقد امتدحت نعوةُ فرويد مواهبَ تاوسك ومساهماته العديدة، ولكنه امتدحه بظاهر يده حين شدّد على الذهن «الفلسفي» لتاوسك، فقد كافح فرويد لعزل علم النفس عن التداعيات الماورائية وإشادته على أساس تجريبي. ونُقل عنه قوله في عدة مناسبات أنه «يمقتُ الفلسفة بجماع قلبه». ورغم أنه شخصياً حلّق إلى ارتفاعات مجردة فقد استخدم عبارة «تأمُّل» دائماً لشتم فكرة جديدة*.

كتب فرويد إلى «لو» بشكل ملغّز لأن وفاة تاوسك بدت لغزاً. فما الذي عناه بقوله أن تاوسك يشكل «خطراً مستقبلياً» رغم أنه لم يصل بعدُ إلى مرتبة الناجحين مثل آدلر أو يونغ. ولكي تُبرَّر مخاوف فرويد من تحريف التحليل النفسي على يد

---

* للتوسع في موضوع الإزدواجية الوجدانية تجاه الفلسفة والنظرية الإجتماعية عند فرويد انظر كتابي: فرويد: الفكر السياسي والإجتماعي ص١٠١.

تاوسك بعد موته يجب أن تستند على دور فعلي أكبر من الذي لعبه تاوسك - رغم ألمعيته - حتى ذلك التاريخ ضمن التحليل النفسي. إذن، فقد شكّل تاوسك مصدر إزعاج وخطر على فرويد شخصياً أكثر من كونه منافساً حقيقياً في عالم التحليل النفسي. وقد نظر إليه بالتأكيد - عندما اعتبره عديم الفائدة - من زاوية خدمة عظمته الشخصية وليس العلم إذ لو ظلّ تاوسك حياً لازدادت مساهماته التحليلية، ولكن فرويد أُغري بالمطابقة بين شخصه والقيمة الموضوعية لأن التحليل النفسي من إبداعه. إن أي شخص يضع أناه الخاصة في عمله مُعرَّض لمشاركة فرويد بعضاً من حساسيته تجاه النقد.

ثمة شيء خارق حقاً في علاقة فرويد وتاوسك، إذ يبدو تزامن انتحار تاوسك مع ابتداء فرويد في صياغة مفهوم «دافع الموت» وكأنه استمرار لارتباطهما معاً، وفي الرسالة التي أخبر «لو» فيها بانتحار تاوسك يومىء فرويد إلى ارتياده منطقة جديدة في «موضوع الموت»: «فكرة مذهلة تنبثق من الدوافع». ورغم اهتمامه السابق بعلم نفس الموت على عادة الأدب الألماني، فإن فرضيته الواضحة عن وجود غريزة تدميرية أولية جاءت مباشرة بعد انتحار تاوسك، ونتساءل إن كان تاوسك قد سمع - أو حدس- بها من فرويد، فهل تصرف وفق أحدث، أو مجرد براعم، أفكار فرويد. أو لعلّ مفهوم غريزة الموت شكل إنكاراً- بطريقة أخرى- لمسؤوليته عن انتحار تاوسك(١٣).

-٣-

فوجئت «لو» بتصوير فرويد البارد لوفاة تاوسك، ولكن رسالتها الجوابية جاءت روعة في الدبلوماسية الحاذقة مع فرويد معبرة - في الوقت ذاته- عن تقديرها المستمر لشخصية تاوسك. لقد تأخرت في رسالتها حتى الخامس والعشرين من شهر آب وهو الذكرى السنوية لوفاة نيتشه: «لقد فاجأتني رسالتك تماماً. مسكين تاوسك. لقد أُغرمت به واعتقدتُ أنني أعرفه ولكن فكرة إقدامه على الإنتحار لم تخطر لي مطلقاً (إنّ الإنتحار الناجح، وليس مجرد المحاولات أو

التهديد بها، يصعقني باعتباره دليلاً على العافية وليس العكس). في الواقع، لاأستطيع حتى تخمين الطريقة التي اختارها لانتحاره (إن الحصول على السم سهل جداً بالنسبة له كطبيب) وأستطيع أن أتخيّل - إن اختار سلاحاً ما - أنّ موته هذا هو الإشباع الحسّي الأقصى له باعتباره المعتدي والمعذَّب في آن، وهنا تكمن مشكلة تاوسك وخطره وسحره أيضاً (بعيداً عن التحليل النفسي قد أدعوه «مقاتلاً شرساً بقلب رقيق»). إنني أتفهم تماماً ماكتبته عن عدم افتقادك له وأشاطرك الشعور بأنه يشكل «خطراً مستقبلياً» عليك وعلى القضية التي جنّد نفسه لخدمتها بتلك البطولة والحماس والإخلاص. لقد عرف هواجسي نحوه وخشيتي من إصراره على نيل منصب جامعي في ڤيينا. وفي شهر آذار الماضي أراد أن يأتي لزيارتي في ميونيخ ولكنني عارضتُ ذلك وأهملتُ رسالته الأخيرة (أسوة بالكثير غيرها من قبل). لقد أصاب حين كتب لي منذ عام: «لاأحد يقبل بالجلوس إلى طاولة مع حطام إنسان، حتى أنت لاتقبلين». فعلاً، لاأحد- حتى أنا- يقبل ذلك. إن المعذَّب الحقيقي- إضافة إلى كونها المحبوب الحقيقي- هو شقيقته يلكا- لو أني أعرف عنوانها واسم زوجها لوددتُ الكتابة إليها، ولكنه غاب عن ذاكرتي»[١٤].

رغم تأثر «لو» الى حدّ كبير بتفسير فرويد لشخصية تاوسك، فإنها أفلحت في نقل مركز الثقل من تحليل أسباب وفاته إلى جدارته بأن يُحبّ، وأكدت - بعد أن وضعت عبارتها ضمن قوسين- بأنّ تاوسك - بعيداً عن التحليل النفسي- مقاتل شرس بقلب رقيق، وقصدت بعبارتها: إنك يافرويد، أنت وعلمُك والتحليل النفسي، قد تمتلكون تصنيفاً ما لحالته، ولكن- إنسانياً- فإن أفضل صفاته جعلته عرضة للتضحية بنفسه. إن عالم الراشدين قد يشلّ أفضل صفاتنا الإنسانية، لقد ركزت «لو» على عاطفته الشديدة تجاه أخته يلكا وليس على صراعه مع «شبح الأب». كانت ثقة تاوسك بشخصيته أقل من ثقته بذكائه. ولاحظت «لو» في تعليق ثانوي في رسالتها أنه «حتى مثل هذا الطبع القوي يصبح عاجزاً. حين يواجه عمالقة الداخل المتطرفين».

من الواضح أن تاوسك قد تحوّل نحو «لو» طلباً للمساندة حين انقطع تحليله في شهر آذار. ورغم شعورها بعدم الرضا لتركه يواجه قدره منفرداً، ورغم تخفيفها من حدة موقف فرويد تجاهه ككائن بشري، فإنها تأثرت بفكرة فرويد عن خطورة تاوسك المستقبلية وتقبّلتْ إطراءه لها حين عبّر عن تحمّله الطويل لتاوسك بسبب صداقته مع «لو». كانت مغرمة - وليست عاشقة - له وتخلت عنه بسرعة ولم تدافع عنه كما يجب، وهذا يجعلنا نستنتج حتماً بأنها استخدمت تاوسك في سبيل علاقتها مع فرويد، وأنها اتخذته عشيقاً باعتباره أفضل ثاني رجل. وحسب آخر كاتب سيرة لحياتها، فإن «لو» (التي أصبحت محللة نفسية ممارسة) لم تكتب لفرويد أي كلمة أخرى عن تاوسك حتى وفاتها في عام ١٩٣٧.

لم يتبسط فرويد مع «لو» في إيضاح الطريقة التي اختارها تاوسك لموته، ولم يناقش هيلين دويتش مختاراً حول ماحدث. عندما توفي تاوسك كانت هيلين في الريف وقالت لفرويد فيما بعد لعله من الأفضل لو استمرت في تحليله ولم تبعده فلربما بقي حياً. فراوغ فرويد في ردّه على تساؤلها المليء بالندم: «ولكنك قمت بالاختيار الصحيح، لقد اخترتِ صالحك». بعبارة أخرى، لقد أعطاها الإذن بعدم الشعور بالإثم أو الحزن، ولعله حاول - من جهة أخرى- حمايتها من الشعور المفرط بالذنب.

لعبت هيلين دويتش في تفكك تاوسك دوراً يفوق ماأدركته حينها. طبعاً، لم يكن بمقدور هيلين- نظراً لحداثتها وانعدام خبرتها كمحللة- أن تعرف مقاصد فرويد من استخدامها كواسطة vis - a - vis مع تاوسك. وإن الأثر العميق الذي تركه فيها انتحار تاوسك لايختلف - في الحقيقة - عن الجرح Scar الذي يحمله العديد من المحللين نتيجة انتحار أحد مرضاهم في مرحلة مبكرة من مزاولتهم للمهنة، وماخفف حالة هيلين قليلاً هو شعورها بمسؤولية فرويد عن انتحار تاوسك باعتباره محللها، ومراعاتها له، وتماماً كما فعل فرويد حين ألقى تبعة موت تاوسك على شيء آخر، فقد ألقت هيلين باللائمة على فرويد.

متأملة في موقفها، يبدو لها أنها لاتنافي المنطق حين تعتبر دورها الشخصي - في حادثة تاوسك- محدوداً لأنها مجرد واسطة بين فرويد وتاوسك* . وظاهرياً، فإن الارتباط العاطفي بين المحلل والمريض- وهو مايعرف بظاهرة «التحويل» - والذي ربط تاوسك بهيلين ظلّ ضعيفاً - مع ذلك، فقد توسل تاوسك إلى محللته بطريقة لبقة عن طريق سرد قصة صراعه مع المعلم وهو الجانب الأكثر إغراءاً في عرضه لأن استياءه من فرويد شكّل نقيضاً مثيراً لإعجاب هيلين الشخصي بـ «البروفيسور»، وتستطيع - من جهتها- أن تغفر اهتمامها بهذا التلميذ المتمرد دون الاعتراف بوجود مشاعر انتقادية تجاه فرويد لديها، وربما انعزلت دوافعها السلبية تجاه فرويد وتجسدت في شخص تاوسك. وبذهابها إلى فرويد وهي تحمل قصة تاوسك كانت هيلين تخدع مريضها من غير قصد مظهرة نفسها بمظهر التلميذ الجيد خلافاً للمدّعي والمزعج تاوسك، ومانعرفه يشير إلى أنها ربما شجعت ضمنياً اهتمام تاوسك بمحلّلها [أي فرويد] وتعبيراته عن المنافسة حياله.

إننا لانغالي في تقدير الدور الذي تلعبه الخيلاء في حياة الإنسان. فرغم أن تاوسك عرف هيلين شخصياً بشكل جيد، ولكن أناه حولّتها - باستلقائه على سريرها متحدثاً عن مآزقه - إلى شخصية تمتلك أهمية عاطفية عظيمة بالنسبة له. إننا جميعاً نحتضن مقداراً هائلاً من الشعور بأهمية الذات يبقى مستتراً وخاضعاً للرقابة. ويهدف التحليل النفسي كوسيلة علاجية الى تنشيط هذه المشاعر اللاشعورية أملاً بمساعدة المريض- فيما بعد- على الاحتفاظ بمسافة عنها، ولكن في سياق هذه العملية، فإن أدنى المحللين يصبح إلهاً بالنسبة لمريضه.

كعلاج، يطمح التحليل النفسي إلى أن يكون أقل الطرق العلاجية تدخلاً حيث يتوصل المريض إلى ذاته الأفضل من خلال التفهّم العقلاني، ولكنّ وضعية التحليل تحتوي غالباً على عناصر إيحائية مستترة قد تزوغ من المحلل والمريض،

* كتبت روث ماك برونشفيك التي عالجت - في العشرينيات- مريض فرويد السابق «الرجل الذئب» أنها كانت مجرد قناة بين المريض وفرويد(١٥).

فالصمت العام- مثلاً- يعطي وزناً هائلاً لأي من تعليقات المحلل. وتماماً كما اعتبر فرويد أن إعجاب هيلين غير المحدود به مبرّر واقعياً دون حاجة لتحليله وتفسيره، فإن هيلين لم تدرك أبداً مقدار إطراء تاوسك لها عبر سرده لحكايته ولا مقدار استفادتها منها في عيني فرويد[١٦].

إن منظومة تفكير فرويد قد منحته (ومن بعده المعالجين) حرية اختيار واسعة جداً واضعة القليل جداً من القيود على «أناه» الخاصة (و «أنا» جميع المعالجين اللاحقين)، فالكابح الوحيد لأي معالج نفسي هو إحساسه الخاص بالمسؤولية. كتب فرويد بحزن وهو في شيخوخته المتقدمة معبراً عن تشاؤمه حيال النتائج العلاجية للتحليل النفسي: «عندما يُمنح شخصٌ ما القوة، فمن الصعب عليه إلاّ يسيء استخدامها»[١٧].

إن فرويد - من وجهة نظره- لم يرمِ تاوسك ببساطة بل أرسله إلى شخص يثق به، ولعله حدّث نفسه بأنه يستطيع مراقبة حالة تاوسك عن هذا الطريق، ومن السهل تبرير الإحتفاظ بمسافة عن تاوسك لأن المرضى يجب أن يكونوا عصابيين وليس محللين. إن السادية المتعمدة لعبت دوراً محدوداً في موقف فرويد الذي لم يجد متعة خاصة في قسوته مع تاوسك.

إن القسوة كانت بنيوية في الوضع برمته إلى حدّ جعل المشاركين غافلين عما يحدث، فآخر ماينبغي فعله لمريض يرغب بالانتحار أو مكتئب هو إبعاده. ونظراً لأن فرويد وهيلين لم يدركا أبداً درجة سوء حالة تاوسك، فإن الرسالة الموجهة إليه بأن يذهب ويقتل نفسه ربما لم تكن بهذا الوضوح.

إن التحليل بحدّ ذاته قد أصابه بالأذى، وفرويد أول من أوضح أنه لولا قدرة التحليل على الأذى لما امتلك قوة المساعدة: «لايمكن استخدام السكين للشفاء أيضاً إن لم تكن قاطعة»[١٨]. والتحليل النفسي مُصمم بحيث يُحدث نكوصاً عند المريض يمكن تشبيهه بالتنويم المغناطيسي بطيء الإيقاع مفترضاً أن العلاج ينشّط الصراعات لأغراض بنّاءة، وأن قابلية الإيحاء التي تحدث أثناء العملية محتواة في

الاتحاد العلاجي بين المريض والمحلل. ورغم ذلك، فإن التحليل الكلاسيكي على السرير بحضور المحلل الحيادي قد يثير لدى المريض مقداراً من النكوص والتبعية الكامنة والظاهرة إلى حدّ يصبح فيه المريض غير قادر على التعامل معها والمحلّل غير مجهز لمواجهتها أيضاً. إن بنية الوضعية التحليلية قد تضلل المرء وتدفعه الى التفكير بأنها أقل قرباً وحميمية من الصورة التي تعطيها عنها الترتيبات الرسمية، ولكن لاشخصانية المحلل البعيد عن الرؤية والمتحفظ هي التي تخلق بالدرجة الأولى إمكانية انفتاح بعض المرضى. وفي المراحل الأولى للتحليل تشتد حساسية المريض، وفي تلك المرحلة بالضبط تم إبعاد تاوسك.

لقد لعب الأشخاص الثلاثة اللامعون بمتفجرات بشرية، فبعد السماح بتشكل هذه العلاقة الحميمية حاول فرويد أن يبتعد بشكل مفاجىء، ولذلك لن نستغرب استيقاظ الفورة القاتلة عند تاوسك الذي نظر إلى الإبعاد كتعبير عن رفض أبيه له بسبب تدخله في العلاقة مع الأم، فالأب - في النهاية- أبعد أمه عنه محتفظاً بها لنفسه فقط. طبعاً، وكما يقدم التحليل فائدة محدودة للمريض، فإنه قد يُلحق به بعض الأذى. وكان تاوسك مؤهلاً للهياج العنيف وخاصة ضد ذاته. وبدلاً من أن يعود من الحرب مكافحاً لاسترجاع وتجميع حياته من جديد فإنه توجّه الى فرويد- البارد تجاهه- طلباً للعون. ولابد أنه هاج ضد الصور الأنثوية والذكورية الآتية من الماضي وأنماطها الأولية الحاضرة حالياً (أي هيلين وفرويد). لقد ساهم هذان الشخصان في إنهائه أولاً عن طريق إثارة جميع آماله التحويلية (يُفترض بالتحليل أن يثير توقعات سحرية عند المريض) ثم توقيف هذا التحليل دون التوصل إلى حلٍّ وسط آخر. اعتاد فرويد على اقتباس إحدى عبارات «ليسنغ»: «إن الشخص الذي لايفقد عقله في ظروف معينة، قد لايمتلك عقلاً - في الأصل - ليفقده».

-٤-

لقد صُدم جميع أعضاء الحلقة الداخلية للمحللين النفسيين بانتحار تاوسك. ونتوقع أن مدّاحي البلاط فقط وقفوا إلى جانب فرويد. وكما رأينا سابقاً، فإن

الانضمام إلى التحليل النفسي في تلك الفترة كان يعني العيش ضمن أقلية صغيرة في حالة دفاعية وعلى أُهْبة الهجوم، وكان من الطبيعي تبني ضراوة فرويد تجاه العالم الخارجي، أما الروابط التي جمعت المحللين فقوية بمقدار عدائيتهم تجاه عالم غير المحللين. وفي مثل هذا الجو يصبح من السهل كره أي شخصٍ قد ينحرف ولو بشكل طفيف عن المجموعة واعتبار أي موقف يحمل رائحة المساومة مع العدو خيانة للقضية.

لسوء الحظ، ليس بين أيدينا سوى رسالة واحدة من أحد أعضاء حلقة فرويد تصف ماحدث، وهي تؤكد الرواية التي وضعناها. بعث بول فيدرن رسالة الى زوجته «ڤيلما» في الريف في اليوم ذاته الذي اكتُشفت فيه جثة تاوسك. أحس فيدرن بضرورة إخبار زوجته بالحادثة مباشرة رغم أنه سيراها يوم السبت.

بول فيدرن طبيب أمراض داخلية انضم إلى مجموعة فرويد في عام ١٩٠٣، فهو واحد من أقدم أتباع فرويد، كما كان أحد أقرب الأصدقاء إلى تاوسك. ورغم حدوث بعض الإشكالات بينهما بسبب مغازلة تاوسك لڤيلما الأكثر شباباً من زوجها فيدرن، إلا أنه كان شديد الإعجاب بعمل تاوسك خاصة وأنه يشاركه الإهتمام في تطبيق تبصرات التحليل النفسي على علاج الذُهانات. إذن فرواية فيدرن يُعتدُّ بها لقربه من مسرح الأحداث وموهبته السيكولوجية الغنية.

كان فيدرن مثالياً Idealist بالولادة ويسارياً نشيطاً على الصعيد السياسي واعتبر أن رسالته هي شفاء الناس واقتنع أن التحليل النفسي هو الرسالة الأخيرة لتحرير الجنس البشري «لو خضع العديد من الشعراء ومؤسسي الديانات والأشخاص الآخرين ذوي المكانة المرموقة للعلاج والتحليل لأنجزوا أشياء عظيمة»(١٩). سافر فيدرن من ڤيينا إلى نيويورك قبل الحرب العالمية الأولى لعلاج تلعثم [تأتأة] شاب أمريكي ثري أصبح فيما بعد عمدة مدينة نيويورك وسيناتوراً للولايات المتحدة يُدعى هربرت هـ. ليمان.

«كان فيدرن رومانسياً ومصلحاً، بينما كان فرويد واقعياً وباحثاً»(٢٠). اعتقد فرويد بأن الأمل في تحسين الجنس البشري ضعيف، ولذلك لن نستغرب حدوث

التوتر بين الرجلين. يذكر فيدرن بأسى كبير حزنه واستياءه لعدم قبول فرويد تحليله*.

رغب فيدرن - مثله كمثل تاوسك- في الحصول على المزيد من فرويد رغم شعوره - في الوقت ذاته- بأن استقلاليته تُعاق في حلقة فرويد.

بقي فيدرن حتى النهاية حواريّ فرويد المخلص، وكان - بالنسبة لجيل المحللين الذين وفدوا في العشرينات والثلاثينات - بطريركاً، قديس بطرس الحركة. أحس فيدرن بأنه خائن لأبيه ولذلك ثمة شيء مقدس في علاقته مع فرويد، وثمة حكايات عديدة عن خشوعه تجاه فرويد تذكر إحداها أن فيدرن اقترب من صورة لفرويد - بعد سنوات من موته - وهو يتمتم «يامعلمي. . يامعلمي». وحسب رواية أخرى فإن زوجته لقنت أبناءها القاعدة التالية «الله أولاً، فرويد ثانياً، ثم أباكم ثالثاً». إذاً، فلابدّ أن يكون انزعاجه لموت صديقه تاوسك كبيراً جداً بحيث يسمح لتعليق انتقادي حول فرويد أن يدخل رأسه:

«إن همومنا تزداد ثقلاً وتجري الأمور بطريقة يصعب تحملها. هناك أشياء كثيرة أخبرك بها ولكنني أتركها إلى لقائنا يوم السبت.

أما الآن فيجب أن أخبرك بالنبأ الأسوأ بينها. لقد أطلق تاوسك النار على نفسه اليوم. ولاأعرف حتى الآن تفاصيل إضافية. زاره هيتشمان بالصدفة ووجد سيارة الإسعاف هناك. لم يحضر تاوسك اجتماع البارحة. أنا واثق من أن عوزه وعجزه عن اقتراض مايكفي ليأكل شكّل الدفعة الأخيرة فقط. إن الدافع لفعلته هو تحوّل فرويد عنه. ألف أسف على هذا الرجل المتفوق الموهوب عالي المقاصد. إنني شديد الأسف عليه. لو استطعتُ لساعدته بالتأكيد رغم أنه دائماً يعض اليد التي

---

* في حالة «فيلهلم رايخ» - وهو أحد أكثر المحللين الواعدين في جيل لاحق- فإن «رفض فرويد لتحليليه هو الذي قاد إلى القطيعة الجدية. . إن الرفض- كما شعر رايخ- لايمكن التسامح معه. وقد استجاب رايخ لهذا الرفض باكتئاب حاد» راجع: إلزا أولندورف رايخ: فيلهلم رايخ- مطبوعات سانت مارتن - نيويورك ١٩٦٩.

تمتد لمساعدته، لقد غفرتُ له في داخلي ولكنني لم أعد أحبه منذ تلك المرة التي أهانني فيها بشدة. وفي كل مناسبة - حتى بعد بودابست- أقترب منه بطريقة ودية لاأجد منه سوى الخيلاء والحسد وعدم الإكتراث. لو أبدى له فرويد اهتماماً إنسانياً- وليس مجرد الإعتراف والدعم- لربما استمر في تحمل وجوده الذي يشبه وجود الشهيد، فإن البحث عن الخبز يُعتبر - بالنسبة لشخص له مثل هذه الحساسية الذهنية - نوعاً من الاستشهاد (تماماً كما هو بالنسبة لك). ولكنه لم يكن لطيفاً حتى ولو بحدود لطافة فرويد الذي يحب الناس إلى حدّ يجعله لطيفاً معهم، رغم أنه - في سنّه المتقدم- أصبح أكثر قسوة (وهذا شيء مفهوم في حالته لأن عليه أيضاً أن يحيا حياة لاتليق بعظمته). إن فشلنا في المحافظة على حياة تاوسك يشكّل وصمة عار لنا. على كل حال، كان يخلق الأعداء لنفسه دائماً وصرف مرضاه النفسيين في النهاية في إشارة واضحة إلى عدم جدوى الطريقة التحليلية بدافع حقده على فرويد. إن الصرامة المنهجية التي يعلمها فرويد لتلاميذه تجعلهم قساة وتغرّبهم عن زملائهم. إن من يعجز عن الحب لايمتلك دفاعاً ضد الفشل. إنّ الدكتور جوزيف فراي Frey هو شخص من النوع ذاته ولكنه ولُد مع اهتمامه بالصالح العام، أما تاوسك فلم يكن بمقدوره أن يصعد إلى هذا المستوى. مع ذلك. واأسفاه على هذا العقل الضخم والطاقات الفنية».

في الثامن من شهر تموز أشار فيدرن مرة أخرى إلى تاوسك في رسالة كتبها لزوجته: «إنني مشغول بشكل جنوني، جزئياً - ولو في حدود أقل - لأنني أعالج أحد مرضى تاوسك. إنني أفكر به غالباً، ولكنني لاأجرؤ على زيارة أهله لأنني لاأستطيع أن أصارحهم بكل شيء». خلافاً لـ«لو» كان فيدرن موضوعياً وصديقاً لتاوسك عبّر - على الأقل في كتابته إلى زوجته- عن موقف يتجاوز مجرد الوقوف في صف فرويد مع اعترافه باستحالة تحمل تاوسك أحياناً. ولكنّ تأليهه لفرويد منعه من مصارحة عائلة تاوسك بما لديه. إننا نتساءل عن مدى واقعية عوز تاوسك الذي تحدث عنه فيدرن، فرغم قلّة الطعام كان لديه أصدقاء يستطيعون مساعدته إضافة إلى شقيقته يلكا التي تعيش في ڤيينا وتستطيع مدّه بالقوت الذي يبقيه حياً

رغم عدم موافقتها على اتفاقه مع هيلدا. إن تعاسة تاوسك ليست مجرد استجابة بسيطة لضغط الظروف الخارجية بل نتاجاً - بالأحرى- ليأسه الداخلي. كان تاوسك رجلاً فخوراً بنفسه يشعر بالإذلال عند طلب المساندة من الآخرين وهو في ذلك العمر. قد يكون العدوّ الأكبر للجنس البشري ليس العدوانية بل ما اعتبرته المسيحية خلال فترة طويلة أي «الخيلاء Pride» الذي اختار المحللون النفسيون اسماً جديداً له هو «النرجسية». وفي حالة تاوسك فإن الإذلال فاقم من شدة خيلائه فعشق - الذات لديه يعادل احتقار - الذات.

كان فيدرن مدركاً لما يقول حين ذكر بأن تاوسك دائماً يعض اليدّ التي تُطعمُه، وقد تحدث تاوسك كثيراً عن نفسه عندما بدأ يعي أن سبب إشكالاته مع مارثا هو عدم قدرتها على الاستقلال عنه. وفي مثل هذه الحالة فإنه يتعامل بمنتهى الغطرسة مع الذين يحاولون مساعدته. أما قسوة تاوسك مع فيدرن فلعلها نبعت - جزئياً- من استياء فرويد الواضح من أتباعه القينيين القدامى.

إن تاوسك - بالتأكيد- شخص يصعب التعامل معه، ونظراً لأنه من تلاميذ فرويد أيضاً فقد أحس بالتنافس مع فيدرن. وتبيّن رسالة كتبها في الثالث من شهر أيار شكوكه حول عطلته الصيفية بسبب تأرجح عمله، ولذلك صرف مرضاه تعبيراً عن غضبه من فرويد. أما فيدرن فكان- خلافاً لتاوسك - الحواريّ المُخلص. لقد عرف حدود إمكاناته واستفاد منها إلى الحدّ الأقصى، بينما رغب تاوسك بما يتجاوز إمكاناته.

رغم المخاطرة بجعل هذه المجموعة تبدو أوسع من حجمها الفعلي، فلابدّ أن نضيف هنا بأن فيدرن قد أطلق النار على نفسه بعد سنوات عديدة بسبب معاناته من سرطان المثانة أيضاً وهو في التاسعة والسبعين وبعيد وفاة زوجته. أجرى فيدرن قبل وفاته عملية فاشلة لاستئصال السرطان سببت له ذُهاناً مؤقتاً. إن الاضطراب العقلي الناتج عن عملية خطيرة كهذه هو أمر أكثر شيوعاً مما هو معروف وربما يكون السبب عضوياً أو يمثل صراعاً من أجل الحياة. عندما شُفيت جراح فيدرن عاد إلى حالته الطبيعية تماماً وكان اسمه مُدرجاً لإجراء عملية أخرى، ولكنه قتل نفسه في صبيحة اليوم الذي سيدخل فيه إلى المشفى.

لم يكن فيدرن مستعداً لمواجهة انهيار آخر لاحق للعملية وأراد تجنب الشلل الجسدي والعقلي. إن الخيال الطبي القائم على أساس قَسَم الطبيب بإنقاذ حياة الآخرين هو الذي يجعل الانتحار عملاً لاعقلانياً ولاصحياً بالضرورة. رتب فيدرن أمور مرضاه وحولّهم إلى معالجين آخرين ثم أطلق النار على نفسه وهو جالس على كرسيّه التحليلي في الساعات المبكرة من صباح الرابع من شهر أيار عام ١٩٥٠ . لقد مات فيدرن - كصديقه تاوسك- بعد إحدى أماسيّ الأربعاء. وفي رسالة الإنتحار التي تركها لابنائه استرجع فيدرن صورته الرومانسية عن نفسه كجندي «الرقيب الذي خدم طويلاً في جيش حركة التحليل النفسي». وفي تشابه آخر مع تاوسك، لم يفرّ فيدرن أبداً من الخدمة.

كيف تأتى لفرويد مثل هذا التأثير على هؤلاء الأشخاص؟ لقد تقبّل تاوسك أمر نبذه وأكد فيدرن أن رفض فرويد له هو الذي دفعه إلى الانتحار. إذاً فلا مبرر للتكتم على صراع تاوسك مع فرويد سوى جعل فرويد كلّي الجبروت. صحيح أن لكل منظمة «أسرارها» (والتي غالباً ماتكون تافهة أو عادية تماماً) ولكنّ مايجعل من هذا الأمر أو ذاك «سراً» مسألة أخرى. اعتقد فيدرن وآخرون في تلك الجماعة الثقافية الفرعية الضيقة (Subculture) بأن إسقاط فرويد لشخص من حسابه يؤدي حتماً إلى امحاء وجود ذلك الشخص. إنّ الإقصاء من المجتمع الثوري يشكل إعداماً أشد من الموت الجسدي واقعياً، كان فرويد هو المحلل الذي يلجأ إليه أتباعه لحلّ المصاعب التي تعترضهم، فقد ساعد فيدرن مثلاً عندما اضطربت علاقته الزوجية. ولكن الخشوع الذي تعامل به هؤلاء الأشخاص مع فرويد يتجاوز بكثير ماقدّمه لهم فعلياً. لقد انتظروا ظهور أي من مقالاته بأملٍ يماثل انتظار مولود جديد، وحولّوا جميع رغباته الى أوامر. من المفترض أن الملك هنري كان يتنفس بتلك التنهيدة التي نقلها «بيكيت» ولذلك، فإذا أراد فرويد موت تاوسك، فإنه تماماً أمر موجّه إلى تاوسك يجب إطاعته. لقد امتلك فرويد سلطة كبيرة على أتباعه لأنهم أرادوا ذلك.

لقد لفظ فرويد تلميذاً آخر - على الأقل- تشابه كثيراً مع استجابة تاوسك. لقد أُصيب هربرت سيلبرر Silberer- وهو من أنصار فرويد القدامى - بالإحباط في العشرينيّات بسبب علاقته مع فرويد. فقد أحس سيلبرر بالضيق والعزلة نتيجة لموقف فرويد منه. ولم يعرف أحد سبب عدم محبة فرويد له. فرغم إخلاصه وإنجازه أعمالاً هامة، لم يتقبله فرويد أو يتودّد إليه[٢١]. لقد رفضه فرويد بصراحة تامة، ولكن مدى تأثير هذا الطرد الجلف لم يكن واضحاً تماماً.

كتب فرويد في رسالة وجهها إلى سيلبرر (فضّل إيرنست جونز كاتب سيرته الرسمية عدم استخدامها):

«سيدي العزيز                ١٧/ ٤/ ١٩٢٢

أطلب منك عدم القيام بزيارتك المزمعة لي، فنتيجة لملاحظتي وانطباعاتي في السنوات الأخيرة، لم أعد أرغب بالإحتكاك الشخصي معك.

المخلص فرويد»

قتل سيلبرر نفسه بعد ذلك بتسعة أشهر.

ورغم معرفتنا القليلة لإشكالات سيلبرر، فإن تاوسك - بالتأكيد- قد حامَ حول فرويد كما تحوم الفراشة حول اللهب. لقد أحاط عُصاب تاوسك بجماع شخصيته واستنزفه الصراع مع فرويد تماماً. ويبدو تفككه على يد فرويد أمراً محتوماً. بنى تاوسك الحكاية الغجرية التي كتبها في عام ١٩٠٦ «حسين بركو» على موضوع أب يقتُلُ ابنه.

وهنا يظهر تطابق حرفي مدهش مع قصة كتبها كافكا الذي عاش معاناة تشبه تلك التي عاشها تاوسك. ففي قصته القصيرة «الحكم Judgment» يحكم أب غاضب على ابنه بالموت غرقاً. يطيع الابن مباشرة ويندفع من بيت أبيه نحو جسر يقفز من فوقه ويموت غرقاً في المياه. شكّل فرويد مركز إغراء لايقاوم بالنسبة لأعضاء مجموعته، ونبعت سلطته- جزئياً- من قدرته على استخدامها بيسر.

ورغم كرهه لسحر الآخرين، فإنه أيقظ تلك المشاعر وخاصة عند ذوي الدفاعات الأقل، ففي معرض تشجيعه لتاوسك على الانضمام لحركة التحليل النفسي تصرف فرويد بفعالية وإغراء وقدّم مابوسعه له كمحلل فيما بعد: ساعده أثناء دراسته للطب وجعله محرراً في إحدى الصحف وأرسل المرضى إليه، ولكنه في كلّ ذلك كان يخدم القضية وليس الشخص بحد ذاته. وعندما بدأ تاوسك يضايقه فقد نحّاه جانباً بكل بساطة. لقد حكم فرويد دون جهد يذكر من جانبه. ربما تصرف تاوسك مثل الفراشة، ولكنّ فرويد كان اللهب.

كانت لفرويد رسالته الخاصة، وشكّل عمله محور حياته، وخارج هذا الإطار رأى الأشياء بدرجة أقلّ من الوضوح، وفضّل ألا يدرك مدى سلطته على أتباعه لأن السلطة قد تطفلّ Infantalize الذين يمارسونها بقدر ماتطفّل الخاضعين لها. ورغم سوء انسحاق بعض أتباعه، فإنه لم يسمح لهم بأن يشكلوا عبأ عليه. ربما استطاع فرويد إنقاذ تاوسك لوقبل تحليله، ولكن هذا القبول يشكل تضحية وتحدياً في آن.

إن الإخلاص للقضية أجاز لفرويد إهمال الحياة الإنسانية، ولكنه منحه التواضع الحقيقي أيضاً. اعتقد فرويد حتى نهاية حياته بأن اكتشافه للتحليل النفسي ناتج- جزئياً- عن ضربة حظ. كان رجلاً بسيطاً يحمل موضوعاً عظيماً، وليس من باب الاعتدال المزيف رفضه لفكرة أنه رجل عظيم.

«إنني أقدر عالياً ليس ذاتي بل ماااكتشفتُه. ليس المكتشفون العظام بالضرورة رجالاً عظاماً. مَنْ غيّر العالم أكثر من كولومبوس؟ وماذا كان؟ مجرد مغامر. صحيح أن له شخصيته، ولكنه لم يكن رجلاً عظيماً. وهكذا فقد يكتشف امرؤ ما أشياء عظمته ولاينتج عن ذلك أنه شخص عظيم حقاً»(٢٢).

ولعلّ بعض الومضات الداخلية للإخفاقات الشخصية التي صاغ منها انتصاره هي التي دفعت فرويد إلى أن يقول في مناسبة أخرى:

«بدا لي دائماً أن القسوة والثقة المتغرطسة بالذات هما الشرطان الأساسيان لما نعتبره - في حال النجاح - عظمة. وأعتقد أنه يجب التمييز بين عظمة الإنجاز وعظمة الشخصية»[٢٣].

وكما لاحظت «لو أندرياس سالومي» بخصوص فرويد: «عندما نواجه كائناً بشرياً يُعطينا الإنطباع بعظمته، ألا يجب أن نتحفّز - بدلاً من أن نرتعد - لمعرفة أنه ربما حقق عظمته فقط من خلال نقاط ضعفه؟»[٢٤].

# الفصـل السادس

## تداعيات حرّة

في حين أننا جميعاً معرضون لتفسير حياة تاوسك اعتماداً على الدروس الشخصية المستقاة من تجربة كل منا، فإن على المؤرّخ أن يطمح لاستخدام قصة تاوسك كمفتاح لفهم حياة فرويد وعمله. ومع إبقاء هذا الغرض في أذهاننا، فإننا سنتفحص - أولاً- الدور الذي لعبه نمط القلق الذي عاشه فرويد اتجاه احتمال سرقة تاوسك لأفكاره في جميع الإشكالات التي تعرض لها مع تلاميذه.

ثانياً: إن افتتان فرويد بانتقال الأفكار Thought- Transference سيقودنا إلى تفسير كيفية توصّله إلى اكتشاف اسلوب التداعي الحرّ. أخيراً، سنرى كيف تتعارض مساهمة تاوسك الشخصية في العلاج التحليلي مع ممارسة فرويد كمحلل.

-١-

في عام ١٩١١، حدث الخلاف الشهير بين فرويد وألفرد آدلر الذي ظلّ- حتى نشوء الخلاف - أحد أقرب الحواريين إليه. وتماماً كما كان بمقدور فرويد تفسير الخلافات الفكرية باعتبارها إهانات شخصية، فإن القضايا الشخصية هنا تتحول إلى جدال نظري. وفي حالة آدلر، فضّل فرويد طرح الموضوع وشقّ جمعيته على السماح لوجهات نظر آدلر بالإختلاط مع أفكاره الخاصة.

وقد اضطر جميع أعضاء الجمعية إلى اتخاذ موقف واضح بطريقة أو بأخرى، وقاتل تاوسك - في ذلك التاريخ- إلى جانب فرويد بإخلاص. شجب

فرويد آدلر بعنف وحاكمه بتهمة الهرطقة* Heresy. وعند نقاشه لآراء آدلر، اختار فرويد تلك المفاهيم التي تبناها آدلر معتبراً أن مايبدو جديداً فيها هو مجرد ابتذال Trivial أما الباقي فمأخوذ منه (أي من فرويد) دون الاعتراف بذلك[٢].

كانت نتيجة المحاكمة هي النفي خارج المجموعة Excommunication وطَرَد فرويد آدلر والمتعاطفين معه. وأثناء هذه الإجتماعات التي أقصت حتى بعض الحيادين في الجدال، فارت ثورة غضب فرويد بسبب ما اعتبره «خديعة» آدلر.

لقد وُجد على الدوام «فرويدان» على الأقل: أحدهما بارد وعقلاني، والآخر شديد الهياج والخوف. كان في متناول فرويد تصنيف مرضي نفسي لآدلر- كما جرى مع جميع تلاميذه المنحرفين - فاعتبر أنه «بارانوئي خبيث»[٣].

والملفت للنظر أن فرويد الذي نصح تلاميذه بعدم تشتيت طاقاتهم الإبداعية، قد انتقد آدلر - في الوقت ذاته- بسبب الإفراط في التفكير الأحادي. وتوجَّه تهمة «الإختزالية Reductionism» هذه ضد جميع «المنحرفين» إلى يومنا هذا، كما يتردد صدى موضوع «الإنتحال» في جميع الإتهامات. إن فرويد يشكّل «الوحدة»، أما آدلر فقد أخذ «جزءاً» منها، ولم يقتصر على رمي «جميع الإكتشافات السيكولوجية للتحليل النفسي أدراج الرياح» بل إن «مارفضه قد وجد طريقه- رغماً عنه- إلى منظومته المغلقة ولكن تحت مسميات أخرى»[٤]. أكد فرويد مراراً في السنوات التالية أنّ تلاميذه «مثلهم كمثل الكلاب، يأخذون عظمة عن الطاولة ثم يلوكونها بمفردهم في إحدى الزوايا، ولكنّ تلك العظمة لي أنا!».

يجد الناس صعوبة في الإعتراف بجميل من يحسن إليهم. لقد خبر فرويد شخصياً كرة الاعتماد على معلميه، ولذلك يجب أن يعتبر مشاركة آدلر له في هذه النقيصة أمراً إنسانياً عادياً كما هو شأن استيائه أيضاً من آدلر. حاول آدلر أن يبرر

---

* اعتبر ريتشارد ڤاغنر وبول كليمبرر - رغم أن الأول صوّت لصالح فرويد والثاني لصالح آدلر - أن الإجتماعات كانت «محاكمة» Trial، ولكنهما اختلفا مع ذلك في تقدير مدى الطابع الشخصي لهجوم فرويد على آدلر[١].

استياءه بسؤال فرويد: «هل تعتقد أنني أجد متعة عظيمة في الوقوف في ظلّك طوال حياتي؟»[٥]، وفيما بعد شاركه تاوسك هذا الإستياء ذاته.

وبقدر ماتسابق فرويد مع أسلافه حول «الأسبقية» Priorities، بقدر ما كَرِهَ «رغبة [آدلر] المنفلتة من عقالها بالأسبقية»[٦]، فقد ادّعى آدلر - كما فعل تاوسك فيما بعد - أحقيّته ببعض الاكتشافات ولكنّ فرويد رفض الإعتراف له بها. وحول هذا الجدال كتب آدلر إلى «لو» ذات مرة: «ربما تكون آرائي خاطئة! ولكن هل يشكل ذلك سبباً كافياً لسرقتها أيضاً؟»[٧].

إن لكل جماعة فكرية خاصة Subculture أوغادها. ضمن سلالة فرويد، فإن دور آدلر شكّل قصة مكتملة عن نكران جميل الحواريّ. إن خيانة من ساعدهم له تجعلنا نفترض ضعف فرويد في الحكم على شخصيات الآخرين. وبالنسبة لأولئك الذين تماهوا مع موقف فرويد في صراعاته فهناك من يفوق آدلر أهمية في نظرهم وهو «يونغ» الذي اعتبروه شخصاً بغيضاً على نحو خاص. أما تعاون يونغ الإنتهازي مع النازية فقد وضع فقط الختم النهائي لرفض رجل تعلّم تلاميذ فرويد أن يكرهوه من قبل.

هنا أيضاً تساعدنا قصة تاوسك على تفهم الدوافع الكامنة وراء الخلافات الرئيسية في سيرة فرويد. في رسالة انتحاره، حيّا تاوسك الجمعية العالمية للتحليل النفسي (وليس جمعية ڤيينا) التي أسسها فرويد في عام ١٩١٠ برئاسة يونغ - وهذا التعيين سبب الصراع مع آدلر. فقد وجد فرويد أخيراً - وبعد أن أحنقه تلاميذه الڤينيون - في يونغ (السويسري) خليفة جديداً. كان «وجه فرويد يبتسم كلما تحدث مع يونغ: هذا ولدي الحبيب الذي أُسرُّ به كثيراً»[٨]. لقد تضايق فرويد من محيطه وبحث عن محيط أوسع لعمله.

كان يونغ شخصاً أخّاذاً أكثر من آدلر الذي عيّنه فرويد رئيساً لجمعية ڤيينا تخفيفاً لمشاعر التأذي عند أتباعه الڤينيين، ولكن هذا الإجراء ساهم - بدلاً من ذلك - في إثارة استقلالية آدلر. كان آدلر شخصاً معتدل المزاج، أما يونغ فامتلك

ذهناً من الدرجة الأولى حقاً. وقد أراد فرويد بشدّة أن يمسك بزمام يونغ ممثل الطب النفسي الأكاديمي والعضو في عيادة جامعية شهيرة في سويسرا. شكّل يونغ - بالنسبة لفرويد - العالم الأرحب للعلم الأوروبي.

امتلك يونغ «شخصية فنية وحيوية ساحرة مبهجة وصياغات ضبابية نزوية»(٩) ويعجز المرء عن تخيل شخصية أشدّ منه اختلافاً عن فرويد. كتب فرويد إلى يونغ: «لقد اكتشفتُ دوماً أن شيئاً ما في شخصيتي وكلماتي وأفكاري تصدم الناس بغرابتها، بينما تنفتح قلوبهم تجاهك»(١٠).

كما فعلت هيلين بعد عدة سنوات حيث غادرت مركزها في الطب النفسي من أجل ممارسة التحليل النفسي وإرضاء لفرويد، كذلك أيضاً غادر يونغ عيادته الجامعية وبدا أن إخلاصه لفرويد بلا حدود. كان يونغ رجلاً فارع الطول وأضخم - مثله كمثل تاوسك- من فرويد الذي كان حساساً تجاه طوله (في صورة جماعية شهيرة للمحللين المجتمعين في عام ١٩١١، نرى يونغ وهو ينحني إلى الأمام بجانب المعلم فرويد الذي وقف على صندوق باعتباره قائداً لهذه المجموعة)*(١١).

لعب موضوع «الأسبقية» دوره أيضاً في قطيعة فرويد مع يونغ. فقد أقلق فرويد ظهور بعض المقالات التحليل نفسية السويسرية «دون أن تذكر اسمه»(١٢). لم يكن فرويد يتهاون تجاه الإستخفاف به وادّعى أن يونغ أغفل ذكر اسمه باعتباره السبّاق إلى بعض الأفكار(١٣). أما يونغ فأحسّ - من جهته- بالضغوط ذاتها التي تعرض لها تاوسك لاحقاً، وتلّمح إحدى رسائل فرويد إلى اعتراضات يونغ: «إن اللوم الذي توجهه لي باعتباري أسيء إلى التحليل النفسي بغرض إبقاء تلاميذي في تبعية طفلية لي وأنني المسؤول شخصياً عن سلوكهم الطفلي تجاهي..»(١٤).

---

* بعد عدة سنوات، هوجم يونغ من قبل تلاميذ فرويد بسبب جبنه الذي دفعه إلى التخلّي عن نظرية فرويد في الجنسية الطفلية وتخفيفه لحدة أفكار فرويد طمعاً في اكتساب الشعبية. عاش يونغ - في الواقع - حياة أقلّ صرامة من فرويد من الناحية الجنسية. فقد أقام - رغم أنه متزوج - علاقة غرامية استمرت عدة سنوات مع إحدى مريضاته السابقات وهي الطبيبة النفسية أنطونيا ڤولف Wolff. والملفت للنظر أن «ڤولف» لم تلعب أي دور في السيرة الذاتية التي كتبها يونغ رغم أن جميع التلاميذ الأقرب إليه يؤكدون الدور المحوري الذي لعبته في حياته.

اعتقد كل من فرويد ويونغ أنه عبقري يعيقه الطرف الآخر. وهكذا أصبح يونغ «عديم الفائدة»[١٥] بالنسبة لفرويد الذي أنهى هذه العلاقة (وهنا أيضاً وقف تاوسك بإخلاص إلى جانب فرويد). كتب فرويد كرّاسة ضد آدلر ويونغ للتأكد من عدم الخلط بين تعاليمه و «تحريفاتهما» وتذمّر من أن كلاً من منظومتيهما الفكريتين قد «أمسك بشطر من ثروة أفكار التحليل النفسي وجعلها مستقلة بذاتها على أساس هذا الاستيلاء»[١٦]. لقد شجب فرويد إذاً مابدا له كـ «عملية اغتصاب تتم بأعصاب باردة»[١٧].

ربما أمكن أن تستمر علاقة يونغ مع فرويد، ولكن فرويد- حسب تعبير أحد تلاميذه المخلصين- «لم يشطب أبداً أحد الأسطر أثناء كتابته بل كان يشطب كل المقالة ليعيد كتابتها من جديد انطلاقاً من كرهه لترقيع الأمور سواء في المجال الفكري أو العاطفي»[١٨]. فمن وجهة نظر فرويد، فإن يونغ - بإفراطه في تبسيط الأمور- كان أحمق Crazy[١٩] وعمله تشوبه «الفوضى». ورغم أن فرويد بذل كل جهده لإقصاء يونغ - كما فعل مع آدلر- فقد اعتبر المعلم أن هذين المحللين اللذين أخذا معهما محللين آخرين، قادا «حركات الإنفصال» عن التحليل النفسي.

إن خشية فرويد من ضياع اكتشافاته الأصيلة في النزوعات التنظيرية التي مثلها آدلر ويونغ مشروعة بالتأكيد. لقد اكتشف فرويد أن الجنسية Sexuality تتطور خلال عدة مراحل منفصلة وأنها لا تبدأ فقط مع سنّ البلوغ، وتكمن المساهمة الأعظم التي قدّمها لعلم النفس في إشارته إلى استمرار الأنماط الطفلية في الحياة الراشدة. إن آدلر ويونغ - حسب رأي فرويد- عرّضا جماع عمل فرويد للخطر بابتعادهما عن الجانب الأكثر تميزاً فيه، ولم يكن واضحاً- في تلك الأيام- أن اكتشافات فرويد ستلاقي القبول الواسع يوماً ما وأن مفاهيم آدلر ويونغ ستحتاج إلى تصحيح أكبر.

ارتبطت المعرفة التحليلية - في تلك الفترة- بمجموعة صغيرة من الأشخاص، وهذا يسوّغ خشية فرويد من تحلل هذه المعرفة قبل أن تخطّ شارتها

المميزة، ولم يكن صغر حجم المجموعة يسمح بالتنوع الكبير في الآراء (واجه لينين قبل الثورة وضعاً مشابهاً)، ولذلك توجب على فرويد أن يقاتل المرتدين -Backslid ers بضراوة أشدّ من قتاله للعالم الخارجي تفادياً لاختلاط التحليل النفسي مع الأساليب والنظريات الأخرى بشكل يستحيل فرزه. ولانشك لحظة بأن فرويد «جنّد كل نيرانه وقوة طبيعته في الردّ على آدلر ويونغ ولم يكلّ أبداً من إيجاد البراهين الجديدة ضدهما واستعدّ دوماً للعودة إلى القتال جاعلاً مريديه ينضمون إلى الحلبة»[٢٠].

إن فرويد أفضل من عرف قدره عند أتباعه وأكثر من غضب – بحق– بسبب الطريقة التي يوضع بها عمله – دون اعتراف غالباً– وراء أعمالهم. تكمن عظمة فرويد كمعلم في قدرته على خلق الطلبات والآمال لدى أتباعه الذين ساعدهم بكل طاقته عند توفر الإخلاص المطلق من قبلهم. كان لطيفاً وشهماً وداعماً ومشجعاً ساهم إلهامه في رفع هؤلاء الأشخاص الى مايتجاوز إنجازاتهم السابقة ولذلك لن نستغرب محافظة تلاميذه على واجباتهم والتزاماتهم عبر أمثلته Idealizing هو، على الأقل لإضفاء قيمة عليها.

بغضّ النظر عن مدى الأهمية التي قد نُضْفيها الآن على تأذي تلاميذ فرويد من علاقتهم به، فيجب أن نؤكد– في الآن ذاته– على مدى استخراجه لطاقاتهم الكامنة التي استخدموها في اتّباعه. يستطيع المعلم العظيم تحرير الطاقات سامحاً لتلاميذه بالتقدم بخطاهم الخاصة، وقد حرّر فرويد– كنموذج أعلى– طموحات أتباعه دافعاً إياهم نحو الأفضل.

بسبب شهامته وكرمه في قبول آدلر ويونغ ضمن العالم الذي خلقه هو، فقد تراجع فرويد بضراوة شاعراً بخيبة الأمل حين بدأ هذان الحواريان ذلك التقليد الثوري – الذي أغوى وأخاف جميع الشخصيات اللاحقة في الحركة (حركة التحليل النفسي). لقد تفادى «فيدرن» التمرد بطريقة ما، وتفاداه تاوسك بطريقة أخرى.

في خضم عمل فرويد الجدّي كمعالج سريري وكاتب، ألفى نفسه أمام سلسلة كاملة من المآزق البشرية تعتبر مشكلة تاوسك مجرد حلقة منها. استطاع بعض تلاميذ فرويد حل الصراعات الجوهرية ذاتها التي تعرض لها تاوسك بطريقة تتلاءم مع تحقيقهم لذواتهم. علاوة على ذلك فإن تلك الصراعات تفترض ضمناً عظمة فرويد الإنسانية، فمن السهولة أن نتبين- عندما نتأمل في الجدالات التي خاضها - سمة عامة اتصف بها وهي عبقريته، فاجتذاب كل هؤلاء الأشخاص يتطلب رجلاً يتصف بالحد الأقصى من الإبداع، وإن غوص بعضهم إلى حدّ تدمير ذاته يجعل حياة فرويد القوة الأكبر إنسانياً دون أن تفقد شيئاً من أهميتها التاريخية.

-٢-

لاتزوّدنا قصة تاوسك فقط بإطلالة جديدة على تلك الخلافات العلنية الشهيرة التي جرت في مسيرة فرويد، بل إنها تقودنا أيضاً إلى لبّ كل عمل فرويد. نذكر بدايةً أن قضية التخاطر Telepathy سحرت فرويد ونفّرته لسنوات عديدة، وكتب فرويد وأتباعه المقربون عن «التواصل بدون كلمات». في عام ١٩٢١، كتب فرويد: «لو أنني في بداية حياتي العلمية - وليس في نهايتها، كحالي اليوم- لاخترتُ- على الأغلب - هذا الحقل الدراسي [التخاطر] رغم جميع مشاقّه»(٢١).

غالباً مايتضايق أولئك الأشخاص الذين يفضّلون النظر إلى فرويد كعالِم رزين حين يصطدمون بذلك الجانب اللاعقلاني فيه. لقد كان ساذجاً حول موضوع التخاطر باحثاً عنه حتى في جلسات تحضير الأرواح. لقد اعتقد بـ«انتقال الأفكار» رغم عدم إيمانه بالتواصل مع الأموات أو بامتلاك أحد لقدرات نبويّة Prophetic. وحيثما كتب عن موضوع التخاطر عنى به فقط تواصل الأفكار بدون وساطة العمليات الشعورية.

كان يهمه طبعاً - كمعالج- معرفة منبع الفهم التقمّصي empathic، ولكنه خشي دوماً من أن يتسبب اعتقاده الشخصي بانتقال الأفكار في الإضرار بحركة التحليل النفسي في نظر المجتمع العلمي، ولذلك حذر أتباعه دائماً بشأن هذا

الموضوع تفادياً لوقوعهم- على الأقل- في الصوفية Mysticism . لقد حجب إحدى مقالاته عن التخاطر عن النشر حتى وفاته.

أكّد فرويد مرات عديدة حياديته تجاه موضوع التخاطر، ورغم ذلك شعر بقدرته على تقديم اكتشاف في هذا المجال يوازي اكتشافه لمغزى حياة الحلم. «لقد تعرض هذا المجالان لازدراء وتعالي العلم الرسمي»[٢٢] وعزز فرويد فكرة إعلانه عن «الاعتقاد دون التأثر بأصداء العالم الخارجي»[٢٣].

أخبر فرويد هيلين دويتش بأن سبب إبعاده لتاوسك يرتبط بذلك الإنطباع «الخارق» الناجم عن حضوره والمتعلق بسرقة أفكاره منه. تخبرنا «لو» عن «محادثة طويلة (في السر) مع فرويد تناولت تلك الأمثلة النادرة عن انتقال الأفكار والتي كانت تعذّبه بالتأكيد»[٢٤]. بتنبؤها بنقص استقلالية تاوسك، يصبح تصوير لور موحياً ومذكراً بشكل ملفت: «كما لو أنه - عبر انتقال الأفكار- سينشغل دائماً- وفي الوقت ذاته- بتلك الأفكار عينها التي ينشغل بها فرويد».

ربما يصعب - في الحقيقة- فصل الشعور المنفّر «الخارق» الذي يحسه فرويد إزاء حضور تاوسك عن «العذاب» الذي يعانيه إزاء الموضوع الأعم عن انتقال الأفكار. عبّر فرويد عن أن موضوع «السحرية occultism» قد «أثاره دائماً»[٢٥]. وعندما أهداه تلاميذه قلادة كبيرة بمناسبة عيد ميلاده الخمسين اكتشف أن الإهداء المنقوش عليها هو الكلمات ذاتها التي تخيل قبل عدة سنوات أنها ستوضع على تمثاله النصفي في جامعة ڤيينا* وحسب رواية جونز فإن «فرويد أصبح شاحباً ومضطرباً عندما قرأ الإهداء وطلب بصوت مخنوق معرفة الشخص الذي فكر بكلماته»[٢٦].

اعتقد فرويد تماماً بـ «التطير» فقد اعترف بإيمانه بالطاقة السحرية للأرقام[٢٧] وتحدثنا قبل قليل عن عذابه الناتج عن توقعه للموت في تاريخ محدد، ولكنه- مع

---

* الإهداء هو السطر التالي من مسرحية «الملك أوديب» لسوفوكل: «الذي حلّ اللغز (لغز أبي الهول)، وكان رجلاً جباراً».

ذلك –سيطر على نفسه إلى حدّ مكنّه من تفسير سيكولوجيا « التطيرّ Superstition» تفسيراً يساعدنا – على الأقل – على إدراك مشكلته الخاصة: كتب فرويد بأنه عند الأشخاص «مرتفعي الذكاء» فإن « التطير – في جزئه الأكبر – عبارة عن توقع لحدوث مشكلة. وإن الشخص الذي يضمر رغبات شريرة متكررة ضد الآخرين ولكنه تربى على الخير وكبْت مثل هذه الرغبات في لاشعوره سيكون مُهيأ لتوقع العقوبة على وضاعته اللاشعورية على هيئة مشكلة تهدده بدون مقدمات»(٢٨).

يجدر بنا أن نطبق هذا الاقتراح على فرويد شخصياً في محاولة لتحليل ميوله التطيرية عامة واعتقاده بانتقال الأفكار خاصة. كرجل عدواني تتصارع رغباته الشريرة تجاه الآخرين مع وعيٍ استثنائي حادّ، ربما تخيّل بشكل مضطرب أن يلقى عقوبة ما على حنقه الداخلي. إن توقعه للإصابة بكارثة حقيقية. جزاءً على رغباته العدوانية تعبّر عن مغالاته في تقدير سطوة رغباته الخاصة وواقعه الداخلي عموماً. علاوة على ذلك، وعلى ضوء اعتقاد فرويد بأن الإيحاء التخاطري (أي انتقال الأفكار) يعبّر أساساً عن إنذار بالموت أو احتمال حدوثه، فإننا نستطيع تفسير اعتقاده الخاص بالتخاطر انطلاقاً من نظريته الخاصة عن التطير بشكل عام*.

إن اعتقاد فرويد بالتخاطر، وطبيعة تطيراته، وخوفه من سرقة الآخرين لأفكاره، وصعوبة تذكره للمصادر التي يستقي منها، ومغالاته العامة في تقدير أهمية الواقع النفسي، تشكل وحدة مترابطة. ولايبقى علينا سوى اجتياز خطوة صغيرة لإدراك الرابط بين اكتشافات فرويد وشخصيته الخاصة: إن بداية التحليل النفسي ومساهمته المميزة في التاريخ الفكري ترتبطان باكتشاف فرويد أن مشاكل مرضاه لاتنبع فقط من الحسّ العام Common- Sense والصعوبات الموضوعية فقط، بل ومن مصادر داخلية لاشعورية أيضاً. إن التأكيد على أهمية البعد النفسي في الحياة يتلاءم مع الشخص الذي يبالغ في تأكيد سطوة أخيولاته الخاصة.

* لن يوافق فرويد – على الأرجح – على تطبيق هذا التفسير عليه باعتباره مخالفاً لما كتبه عن نفسه: «إنّ جذور تطيّري الشخصي تنبع من طموحي المكبوح إلى الخلود [الأبدية]»(٢٩).

يكشف أسلوب التداعي الحرّ أيضاً قدراً كبيراً من شخصية فرويد الذي اختار أن يقضي وقته العلاجي في الإستماع إلى أفكار مرضاه عبر اختراعه لأسلوب الجلوس خلف السرير التحليلي الشهير بعيداً عن مرآهم. وعلى ضوء اهتمامات فرويد ومخاوفه الخاصة نستطيع أن نكتشف بسهولة مدى فائدة هذا «الترتيب» له إذ لاضرورة لمعرفة أفكاره حتى يختار هو أن يقدم لمريضه تفسيراته، فالمحلل يساعد المريض «عبر تقديم الأفكار التوقعية له»[٣٠]، وفي غضون ذلك، يستطيع فرويد معرفة أفكار الآخرين وكل قطعة منفردة في سيل التداعيات.

اكتشف فرويد أن الظهور المتجاور لفكرتين تبدوان - ظاهرياً- مستقلتين يعني حتماً وجود رباط داخلي خفيّ بينهما. وبغض النظر عن درجة اقتراب فرويد من الصوفية أحياناً فإن الجانب العلمي فيه هو الذي انتصر في النهاية، فقد رفض التسليم بوجود الصدفة Coincidence في الحياة النفسية وأكدّ وجود عليّة داخلية تكمن وراء الهفوة أو الحلم أو العرض وبدأ بتفسير ذلك عقلانياً.

إلى جانب اهتمام فرويد بالأمور السحرية تواجد فيه عنصر عقلاني أشدّ قوة- صحيح أنه اعتمد على سطوة الكلمات في علاج المرضى، ولكن تهديد الجانب اللاعقلاني فيه منعه من الاستمتاع بالتجارب التي يرتاح فيها أشخاص دونه في المستوى. لقد كره الموسيقى ولم يتناول المشروبات الكحولية إلاّ نادراً وعبّر عن عجزه عن فهم مشاعر مثل «عدم الديمومة Transience» أو «الشعور الأوقيانوسي Oceanic». لقد شدّد فرويد على أهمية الرقابة الفكرية الى حدّ أنه أنكر أحياناً وجود الحدس Intuition:

«لاتوجد مصادر لمعرفة العالم سوى العمل الفكري المرتبط بالملاحظات المدقّقة بعناية.. ولاتوجد - إلى جانبها- معرفة منبثقة عن الوحي Revelation أو الحدس أو العرافة Divination.. يمكن اعتبار الحدس والنبوءة أوهاماً وتحقيقاً للدوافع الرغبية».

لقد بدا له الدور المتبجح للحدس في الفهم السيكولوجي نوعاً من الشعوذة Hocus- Pocus والحدس- ضمن الحدود الضيقة التي اعترف بها - هو بالأحرى

نتيجة للسيطرة العقلانية الذاتية وليس بسبب الغنى الوجداني: «أستنتج مما رأيته أن الحدس هو نتاج لنوع من التجرّد الفكري»[٣٢]. ولكن إنكار «الحدس» والإقرار بوجود «التخاطر» في الوقت ذاته يبدوان متناقضين بشكل ملفت. إن اضطرار فرويد إلى التأكيد على العقلانية ينبع من قوة الجانب اللاعقلاني فيه.

-٣-

إن قصة صراع فرويد مع تاوسك قد أضاءت لنا بعض المصادر الشخصية لاكتشافات فرويد وزادت تفهمنا لخلافاته مع أتباعه وأسلافه. علاوة على ذلك، فإن توضيح الاختلافات بين فرويد وتاوسك تساعدنا في الكشف عن الحقيقة الفعلية لفرويد كمعالج والمساهمة المميزة التي قدمها تاوسك للتحليل النفسي.

رغم أن فرويد - في نعوته - قلل من تجربة تاوسك السريرية، فإن المساهمة الأرسخ التي قدمها تاوسك ترتبط بالطب النفسي وليس بالأسس الفلسفية للتحليل النفسي. إن تعامل تاوسك - كما نوهنا سابقاً - مع مرضى المشافي قد ميزه عن بقية المحللين النفسيين في أيامه. وقاد يونغ (قبل تاوسك) و«هاري ستاك سوليڤان» (بعد تاوسك) تطبيق مفاهيم التحليل النفسي في علاج الذهانات. ولكن تاوسك - بالنسبة لعصره ولأتباع فرويد المخلصين - كان رائداً في استخدام أفكار فرويد في فهم الذهانات، وقدمت مساهماته - من ضمن مدرسة فرويد - الأساس للعاملين لاحقاً في هذا المجال، ويدين «برونوبتلهايم Bettelheim» و«إريك اريسكون Erik-son» لإبداعات تاوسك في عملهما.

حتى في أيامنا هذه، فإن التمييز بين الذهان (وهو حقل دراسة الطب النفسي القديم) والعصاب (وهو حقل عمل التحليل النفسي الفرويدي) ليس راسخاً أبداً، ونجد أن المعالج - بقدر مايزداد اهتمامه بديناميات أو معالجة أحد مرضاه - بقدر مايميل إلى تصنيف حالته - على الأغلب - على أنها «عصابية». إن تشخيص «الذهان» لايزال يحمل مضامين علاجية تبعث القشعريرة في النفوس. وبالمعنى العملي البحت، يمكن اعتبار الذهان نتيجة لعجز المريض عن التحكم بعُصابه. إن

الفرق بين الحالة العُصابية والحالة الذهانية هو كالفرق بين امتلاكك لمشجب تعلق عليه أشياءك وبين أن تكون معُلقاً على هذا المشجب.

يجد العصابي صعوبة في إدراك عالمه الداخلي، أما الذهاني فيجد الصعوبة في اختبار العالم الخارجي. إن الفصامي مثلاً، بروابطه الإنسانية النادرة، يعيش في عزلة قريبة جداً من الموت تجبره على ابتداع عالمه الخاص به. ولايكتفي الذهاني بالإنسحاب من العالم الخارجي بل إنه يكافح ليُعيد الاحتكاك به من خلال الهذيانات Delusions والهلوسات Halucinations.

لم يكن تشخيص الذهان - أيام تاوسك- ثابتاً أبداً، وعنى - ببساطة- أن المريض «أحمق Crazy»، واعتمد الأطباء النفسيون المتعاملون مع مثل هذه الإضطرابات الواسعة على فهمٍ موروثٍ ضحلٍ لأن الطب النفسي- كعلم مدعّم- كان علماً حديثاً نسبياً واعتمدت رؤيته على الإتجاه العضوي «لم تكن شخصية الإنسان المريض عقلياً موضوعاً لأي اهتمام خاص. علاوة على ذلك، لم يُنظر إلى التظاهرات الذهانية كتعبيرات عن الشخصية، واعتُبرت الأعراض الذهانية نتيجة لاضطراب فسيفساء Mosaic وظائف المخ والخلايا الدماغية يمكن مقارنته بتأثير الضجة بلا معنى التي يُحدثها الضرب العشوائي على مفاتيح عزف بيانو»(٣٣).

لقد أثبت التحليل النفسي - على الأقل- أن الذهان «ليس اختلاطاً بلا معنى لأعراض لاعلاقة لها بالشخصية»(٣٤).

خلافاً للتأكيد الحالي على العلاج، انصب اهتمام الأطباء النفسيين لتلك الفترة على العناية الوصائية بالذُّهانيّين الذين يجب حماية العالم منهم وحمايتهم هم من العالم. ورغم افتقاد هؤلاء الأطباء للتفسيرات النفسية لمشاكل مرضاهم فقد كانوا رائعين في وصف التناذرات Syndromes الطب نفسية لهم. إن التحليل النفسي- من خلال تأكيده على المغزى الكامل للأعراض الذهانية - أدى في النهاية إلى ازدياد الإنسانية في التعامل مع هؤلاء المرضى رغم عدم ترافق الإهتمام العلمي لأوائل المحللين بسيكولوجيا تلك الحالات مع الإهتمام باحتمالات شفائها.

تلعب شخصية الطبيب النفسي دوراً حاسماً في النتائج المتحققة، لأن أطباء ذلك العهد المبكر لم يكونوا «يعرفون» - بمعنى ما- مايكفي للتأكد من عجزهم عن فعل مانجحوا بتحقيقه فعلياً في بعض الأحيان. فقد امتلك ڤاغنر - ياورغ، مثلاً، صوتاً عميقاً مهدئاً ذا تأثير علاجي عظيم على مرضاه، وقد اعتنى بمرضاه جيداً رغم خشونته في الأمور الخارجية، كما نجح بعض الأطباء النفسيين أحياناً في مساعدة مرضاهم بواسطة العلاجات الأعراضية رغم عدم قدرتهم على تعليل نجاحاتهم.
من الصعوبة بمكان تفكيك خيوط موقف فرويد الشخصي تجاه الذهان لأنه - مثله كمثل الآخرين- قضى وقتاً طويلاً في التمييز بين العّصاب والذُّهان. كتب في عام ١٩٠٤ مثلاً: «لقد استطعتُ تدقيق واختبار طريقتي العلاجية على الحالات الحادة- والأشد حدّة في الواقع- . فقد تألفت مادتي كلها من مرضى جربوا جميع أشكال العلاج الأخرى بلا طائل. لقد ابتُدع العلاج التحليل نفسي من خلال ولأجل علاج المرضى غير المتلائمين الدائمين مع الوجود، وتجلى انتصاره في أنه جعل عدداً لابأس به منهم متلائمين دائمين مع الوجود»[٣٥].

ولكنّ فرويد لم يقصد بكلامه هذا وضع الذهانات ضمن فئة «الحالات الأشد حدّة»، فالأشخاص الذين عالجهم كانوا إمّا أقل مرضاً مما أحبّ أن يعتقد، أو أشدّ مرضاً مما وعاه في تلك الفترة. رغم ذلك، أمل فرويد بأن تصبح السيرورات الذهانية قابلة للشفاء مستقبلاً من خلال إدخال التغييرات الأسلوبية المناسبة.

لم يعبّر فرويد- في المرحلة المبكرة- عن اهتمام خاص بالتمييز بين العُصاب والذُّهان لأنهما- في ذهنه- «حالتان غير منفصلتين بخط قاطع وثابت»[٣٦] أكثر من التمييز الحاد الذي يفصل الصحة عن المرض. لقد رغب فرويد في مدّ نفوذ التحليل النفسي أينما استطاع ولكنه شعر - بقدر ما ميّز بين العُصاب والذّهان - بأن صعوبة علاج الحالات الذهانية تكمن في حيادية المريض تجاه المعالج لأن إفراطه في الإستغراق الذاتي Self - Involvement ونرجسيته لاتسمحان له بعملية التحويل Transference. اعتقد فرويد أن شفاء المريض يرتبط بقدرته على تجاوز ذاته وإنشاء مسافة تفصله عن مشاعره الخاصة، وبدون هذه المسافة يصبح التحالف العلاجي بين

المريض والمحلل مستحيلاً. وقد عبّر فرويد في مرحلة متأخرة من حياته (عام ١٩٣٧) عن أن العلاج النفسي للمرضى الذهانيين قضية غير مطروحة[٣٧]. طالما أن هذا التعاون مستحيل. تبنّى فرويد- ولو تحت مبررات جدّ مختلفة - وجهة نظر الطب النفسي الأكاديمي القديم والقائلة باستحالة علاج الذهانيين.

ويبقى السؤال الحاسم قائماً: أي الإضطرابات تُعتبر عصابية وأيها تعتبر ذهانية؟ في أيام تاوسك، اعتبر فرويد أن «العته المبكر Dementia Praecox» (وهو مانسميه الآن عموماً بـ «الفصام») «عصابٌ نرجسي»[٣٨]. وبتصنيف هذا المرض كـ «اضطراب عُصابي» أضمر فرويد فكرة أن التحليل النفسي قد يساعد في فهم هذه الحالات وجعلها قابلة للعلاج في المستقبل، واستمر فرويد في العمل كما لو أن طريقته العلاجية قابلة للتطبيق على «عدد غير محدود من المرضى»[٣٩] إلى إن أُجبر على توضيح الفرق بين العُصاب والذهان. واستمتع المحللون الأوائل بفكرة إخضاع الجميع للتحليل النفسي، ولم يضع فرويد «العصاب النرجسي» ضمن طائفة الذهانات حتى العشرينيات، بعبارة أخرى، استخدم فرويد - في حقبة تاوسك - مصطلح «العصاب» كسلّة ضخمة تتسع لحالات تمّ تمييزها بوضوح فيما بعد عن حديقة منوعات العُصابيين.

إن الغرض من هذا الإستطراد في تاريخ علم اصطلاحات التحليل النفسي هو الإشارة إلى أن فرويد اهتمّ بالذهانات كعالِم وليس كمعالج وبيّن أن «الدراسة التحليلية للذهانات غير عملية بسبب نقص نتائجها العلاجية»[٤٠]، ورغم ذلك تابع باهتمام اكتشافات المشتغلين الآخرين في هذا المجال.

من المعروف بين تلاميذ فرويد - إن لم نقل بين العموم- أن خبرة فرويد الطب نفسية ضئيلة جداً، وقبل اكتشافه للتحليل النفسي تركزت بحوثه على «علم الأعصاب»، ورغم أنه كعالم أعصاب- وأثناء مزاولته التحليل النفسي أيضاً - تعرض للتعامل مع حالات ذهانية، إلاّ أنه ابتعد عنها كلّما وسعه ذلك مع أنه لم يتماه مطلقاً مع الطب النفسي الأكاديمي. وفي عام ١٩١١، كتب فرويد إلى تلميذ

سويسري يحاول التوفيق بين الطب النفسي والتحليل النفسي «إنني - في الواقع- أعتبر آمالك نوعاً من الهرطقة»[٤١].

في كتاب «تفسير الأحلام» أشار فرويد في معرض نقاشه لعملية التفكير الأولية إلى أواليات Mechanism حلُمية عديدة تظهر في الذهان وأعلن أن الحلُم بحد ذاته هو نمط أولي Prototype عادي في الحالة الذهانية. ولكن فرويد لم يهتم بتجاوز هذه المحاولة في الفهم المجرد للذهان إلى فهم الوحدات والتشخيصات العيادية الخاصة بالطب النفسي. وقد اعتبر تاوسك أن طريقة فرويد في «إخضاع الأجزاء للبحث لاتؤدي إلى تشكيل صورة كليّة عن الفرد»[٤٢]. وامتحن فرويد صعوبة تشخيص المرض عند تعامله مع حالات عصابية غير نمطية (هجاسية، أو هيستيرية)، وعالج بعض المرضى أحياناً على أساس التحليل النفسي باعتبارهم عصابيين ثم اكتشف لاحقاً أنهم يعانون مشاكل طب نفسية أكثر خطورة تختفي وراء الواجهة العصابية. وتعامل مع الذهانيين حين كان يقبل بعض المرضى دون التأكد من حدّة مرضهم، وعالج بعضهم من عرضه العُصابي ليجد أن مريضه قد ارتدّ إلى مرض ذهاني كامن*.

كتب فرويد مرة إلى أحد تلاميذه يخفف من اضطرابه: «لقد تعاملت - لسوء الحظ- مع مريض بارانويا كامنة، ومن خلال علاجك لعصابه ربما فتحت الطريق أمام مرض أشد خطورة، وهذا يحدث معنا جميعاً في بعض الأحيان ولايمكن أن نتّقيه»[٤٣].

إذن، فتشخيص الذهان في تلك الأيام - كما هو الآن أيضاً- أمر صعب، وكان تاوسك - مثله كمثل الآخرين- مهيأ لارتكاب أخطاء التشخيص في حين فضّل فرويد أن يبقى بعيداً عن مشكلة الذهان برمتها وركز اهتمامه على معاناة عقلية أكثر نقاء (أي العصاب).

---

* كان العَرَض الأصلي في إحدى الحالات هو «الأغورافوبيا» (رُهاب الأماكن المفتوحة) واضطر فرويد إلى إعادة الأغورافوبيا الى المريض من خلال التنويم المغناطيسي لإلغاء الضرر الذي أحدثه العلاج»[٤٤].

إن تواصل الشخص القادر على الالتزام الدقيق بالعلاج التحليلي ست مرات اسبوعياً ووسط زحام المدينة مع الواقع جيد. كتب فرويد القصة المرضية لأحد الذهانيين دون أن يعرفه كمريض واصفاً مرضه بدلاً من ذلك بالاعتماد على مذكراته.

تميزت ردة فعل فرويد تجاه الذهانيين بالطريقة الدفاعية التي يشترك بها أغلب البشر تجاههم، وأراد أن يحافظ على بُعده عنهم وأن يتجنبهم. وفي أيام فرويد كان الذهان مستغلقاً على الفهم بشكل يفوق أيامنا ولذلك افترض العديد من الأشخاص أن الأمراض الذهانية عبارة عن عمليات كيميائية أو بيولوجية تعبر عن نفسها بشكل سيكولوجي. ولكنّ فرويد كان أكثر من متحفظ عادي تجاه الذهانيين واعتبرهم مستعصين على الفهم إلى حدّ أنهم بدوا «خارقين Un Canny» بالنسبة له وكانت خبرته محدودة نسبياً مع المنتحرين لأن القبول بتحليل مريض ذي ميول انتحارية يشكل مخاطرة كبيرة. إن عدم تسامح فرويد تجاه المرض العقلي قد يعتبر أمراً غير مقبول بالنسبة لمعالج يعيش في أيامنا.

لم يكن فرويد طبيباً تقليدياً بحاجة للعلاج ولم يكن يحبّ الجنس البشري، وكتب عن «خيبة أمله من الكائنات البشرية»[٤٦] ومع تقدمه في السن تزايد عنده ماأسماه بـ «لامبالاته تجاه العالم»: «لم أستطع التوقف عن الاقتناع - في أعماق قلبي- بأن زملائي الأعزاء - مع استثناءات قليلة تافهون»[٤٧]. . «لقد وجدتُ القليل مما يمكن اعتباره خيّراً Good في الكائنات البشرية عموماً، وخلال تجربتي وجدتُ معظمهم غوغاء Trash»(٤٨). . «إنني لم أُقدم مطلقاً على أيّ فعل خسيس أو خبيث ولم أعثر لديّ على أي نزوع لذلك». . ولكنّ «الآخرين أجلاف Brutal وغير جديرين بالثقة»[٤٩].

اعتبر فرويد نفسه مراقباً ومكتشفاً وليس معالجاً وادّعى بأنه يفتقد - على حد تعبيره- «المزاج الطبي الأصيل» وأنّ لاميل لديه للعمل كطبيب: «لقد أصبحتُ- خلافاً لإرادتي - معالجاً»[٥٠]. إنّ الجانب العلمي في فرويد قد أنتج إنجازه العظيم

الذي يتجلى في ذلك الجسد الفكري الذي يستطيع المشتغلون الآخرون عليه تطويره وتغييره.

اهتم فرويد بالتحليل النفسي نظراً لإمكانيات البحث التي يقدمها وليس بسبب آثاره العلاجية، ولاينفي هذا طبعاً اهتمامه الكبير بمرضاه ونشاطه وبراعته في معالجتهم، وكان - خاصة في أعوامه الأولى - سخياً جداً في جهوده العلاجية، وقد تحدث العديد من مرضاه عن دفئه وإنسانيته وتواصله الإنساني الجيد معهم واهتمامه الفائق بهم. ولكن خطوات دعم الآخرين كانت مستقلة - في ذهنه - عن التحليل وتخوف مراراً من ابتلاع العمل العلاجي للجانب العلمي في عمله. مع تقدمه في السن تزايدت شكوكه تجاه العلاجات المبكرة التي ظنّ أنه أنجزها وأصبح أكثر ابتعاداً عن الإحتكاك بالآخرين عموماً وأكثر تكرّساً لهدف البحث البحت. ومع ابتعاده عن الطب حذّر فرويد باستمرار من خطر تحول التحليل النفسي إلى «مجرد خادم للطب النفسي» وأراد تكوين مهنة مستقلة من المحللين - غير الأطباء بالضرورة - الذين يكرسون أنفسهم لمتابعة المعرفة العلمية واعتقد أن المشاكل من نمط التحرير من المعاناة والإعاقة والشفاء ستحل من تلقاء ذاتها بمجرد توفر المعرفة الكافية عن طبيعة القوى العاملة فيها.

بنفيه للذهانيين خارج حدود المعالجة التحليلنفسية ضمهم فرويد إلى مجموعة الجانحين والمدمنين والمنحرفين التي «لاتستحق عناء» التحليل. كتب فرويد مرة: «مع الأسف، فإن عدداً محدوداً من المرضى فقط يستحق العناء الذي نبذلُه تجاههم ولذلك لايجوز أن يتحكم بنا الإتجاه العلاجي بل يجب أن نُسر لأننا نتعلم شيئاً جديداً من كل مريض»[٥١]. وكتب في مرة أخرى: «إن تبديد مثل هذه النفقات [من التحليل النفسي] على أشخاص تافهين تماماً صدف أنهم عصابيون أمر غير اقتصادي»[٥٢] ولم يكن يهدف بجرأته الفكرية والتزامه بتقديم الاكتشافات إلى أن يعظ في الأخلاق، ولكن لو كان بمقدور المرضى أن يحققوا ذواتهم دون الحاجة إلى إخبارهم بالطريقة التي يجب أن يعيشوا بها لكان لزاماً على فرويد أن يفترض مسبقاً أن لديهم ذواتاً.

لقد فضّل فرويد القوي على الضعيف وافترض أن الصدق الكامل من جهة المريض تقابله نزاهة المحلل، وتفترض طريقته العلاجية امتلاك المرضى لحدّ معتبر من المبدأية الذاتية العقلية والقدرة على هضم الرؤى الجديدة التي اكتسبوها. جامل فرويد أحد مرضاه في نهاية ثلاثة أشهر من التحليل في عام ١٩٠٧ قائلاً: «إن أكثر ماأوده هو أن تستطيع الإستفادة من أي شيء حالما تفهمه»(٥٣). لقد فصل التحليل النفسي المشاكل عن بعضها مفترضاً امتلاك المرضى لحدّ من الإكتفاء الذاتي - Self Sufficient يؤهلهم لمعرفة أفضل طريقة لتجميع الأجزاء مع بعضها. كتب فرويد: «إن التحليل النفسي يتلاءم مع الشروط الإيجابية الفضلى حيث لاحاجة لممارسته أي بين الأصحاء»(٥٤).

-٤-

طالب فرويد بنضوج البشر وأراد أن يستخرجوا أفضل مالديهم وتوقع المزيد من الجنس البشري، ويرتكز علاجه على فكرة أن الناس يستطيعون أن يتغيروا ويتغلبوا على ذواتهم. لم يقل فرويد «لا» لعدم النزاهة والجهل والحماقة والأعراض وخداع الذات والمعاناة فقط بل وأيضاً للضعف والتبعية والوصاية والتغاضي والخنوع.

قد تنشأ أشدّ الصراعات الوجدانية إيلاماً حين يعجز المرء عن الإستفادة من الرؤى التي لديه، ولعلّ انتظار المحلّل لظهور تأثيرات العقلانية بينما يعاني مرضاه آلاماً مبرّحة عملٌ غير إنساني، فقد لايكون المطلوب أثناء العلاج مجرّد معلّم، وقد لاتكمن مهمة المعالج في استخراج مواد إضافية من أعماق مريضه بل تدعيم «أناه» الضعيفة.

أشار تاوسك - سابقاً غيره من أعضاء حلقة فرويد - إلى أهمية ماندعوه حالياً «علم نفس الأنا» سواء في العصاب أو في الذهان. كتبت «لو سالومي»: «رغم أن مفهومه عن العصاب هو مفهوم فرويد ذاته، فإن تاوسك شدّد على أن الإخفاق في مجال «الأنا» (وبالتالي في المجال الإجتماعي) هو الشرط الضروري المطلق لانفجار العصاب»(٥٥).

رغب تاوسك أكثر من فرويد في مقاربة الذهانيين والتعلم منهم، كان -كمعالج- أقلّ صرامة وأكثر تقبلاً للضعف البشري وأكثر قدرة على التماهي مع المريض والإعتناء به. وبينما كافح فرويد لجعل الناس أفضل عن طريق منحهم الأدوات اللازمة لفهم ذواتهم، فإن تاوسك جنح إلى جعل الناس يتقبلون ذواتهم. في علاجه لأحد المرضى المثليين جنسياً، قطع تاوسك شوطاً يتجاوز فرويد في تفهم حالة مريضه ورأى أن الميول الجنسية الغيرية لديه ضعيفة جداً واعتبر أن مهمته تكمن في مساعدة المريض على تقبل انحرافه وتحريره من مشاعر الإثم(٥٦).

أما فرويد فكان عليه أن يصارع ذاته لمواجهة كرهه الدفاعي لمثل هذا الشخص. ورغم تسامحه - بالنسبة لعصره- ومحاولته فهم جذور الإنحراف، إلاّ أنه وجد من الأسهل عليه إدانة مثل هذا الشخص بدلاً من مساعدته. علّق فرويد على أحد المثليين جنسياً بقوله: «حين تصل الأمور إلى هذا الحدّ من السوء، فليس علينا سوى شحن هؤلاء الناس عبر المحيط - إلى جنوب أمريكا مثلاً- ومعهم بعض النقود وتركهم هناك يُنشدون ويواجهون قدرهم». وعبّر فرويد عن نفور مشابه إزاء مريض آخر معتبراً أنه «وغد بشكل جليّ ولا يستحق عناء مساعدته» مقارناً إياه مع مريض آخر «كائن إنساني جدير بالإهتمام تماماً ويستحق عناء معالجته»(٥٧) إلى جانب أخلاقيته، كان فرويد براغماتياً بشكل استثنائي أحياناً. اعتبر مثلاً أن استيهامات الجماع المرافقة للعادة السرية أمر جيد طالما أنها تحفّز القوة الجنسية المغايرة Hetero، وتضايق بشكل أقل من الجنسية المثلية الأنثوية ونظر إلى تحول امرأة مكبوتة في متوسط العمر إلى سحاقية إيجابية دون مشاعر إثمية باعتباره نتيجة ناجحة لعلاجها التحليلي. لقد كره فرويد بالتأكيد الأشخاص المتزمتين - Goodi Goodies وكان قادراً على تحمل ماقد يزعجه إذا صدر عن شخص يعتبر «جديراً». وقد ميّز فرويد دائماً بين «الصحة» و «الجدارة»: «ثمة أشخاص «أصحاء» ولكن غير جديرين بأي شيء. من جهة أخرى، ثمة أشخاص عصابيون «غير أصحاء» ولكنهم جديرون حقاً كأفراد»(٥٨). مثّل تاوسك توسيعاً للإهتمامات العلاجية في التحليل النفسي وأراد - مثله كمثل آدلر ويونغ وجميع المعارضين في العقود التالية

ضمن التحليل النفسي الكلاسيكي (أوتورانك وساندر فيرنزي مثلاً) - أن يوسع نطاق العلاج التحليل نفسي، وتنفتح امكانية التلاؤم مع هدف العلاج في نطاق يتجاوز العصابات الكلاسيكية فقط من خلال تطور «سيكولوجيا الأنا» ضمن التحليل النفسي. تصوّر فرويد في البداية أنّ جعل شيء ما شعورياً، يعني حتماً إضعافه[٥٩]، ولكن إزالة خداعات الذات تتضمن فرضية أن «أنا» المريض قادرة على استدماج الرؤى الجديدة المقدمة لها، وإلاّ فإن التحليل النفسي يقتصر على تجريد المريض من دفاعاته تاركاً إياه في حالة أسوأ من السابق.

كان تاوسك - وصديقه فيدرن - أكثر رأفة تجاه المرض، وبدلاً من تصنيف الذهانيين كـ «نرجسيين مفرطين في الاستغراق الذاتي» اعتبر أنهم يعانون من نقص في قوة الأنا، وبالتالي تصبح مشكلة الذهاني هي الضعف وليس الإفراط. شعر تاوسك بأن الذهاني قد يسترجع قدرته على التمييز بين ذاته وبين العالم الخارجي إذا نجح المعالج في «تقوية أناه» فتتسع حدود الأنا ويستطيع المريض فصل مشاعره الداخلية عن الوقائع الخارجية. وفكرة «حدود الأنا» هذه هي صياغة أصيلة تخص تاوسك[٦٠] وضعها للتأكيد على أن «عيوب الأنا» هي السبب الكامن وراء الفصام.

وفقاً لهذا الرأي، فإن القدرة التنظيمية للذهاني ضعيفة، ويجب أن يتوصل المعالج إلى إنقاذ «أنا» الذهاني ومساعدته في السيطرة على دوافعها الغريزية المنفلتة، ولم يفكر تاوسك - أو فيدرن - بالصعوبات العملية لمثل هذا العلاج، فقد يُجبر الذهاني الذي تمّ إيقاظ ارتباطه بالعالم الخارجي وهو يعاني من «أناه» الضعيفة على الإنسحاب إلى حدود أبعد مُستنزفاً طاقاته المحدودة. لقد اعتقد تاوسك بضرورة تغيير الطريقة التحليلية لفتح إمكانية علاج مثل هؤلاء المرضى ورأى أن لامبرّر لإقصائهم خارج نطاق تفكير المحللين هم والحالات الأخرى التي اعتبرها فرويد «غير جديرة» بالعلاج. أصبح فيدرن - بعد وفاة تاوسك- هو المسؤول عن تطوير هذه الأفكار ضمن حلقة فرويد.

بدأت دراسة «سيكولوجيا الأنا» مع علاج تاوسك وفيدرن للاضطرابات الذهانية، واهتم محللون آخرون لاحقاً - مثل آنا فرويد- بعلاج الأطفال وقدموا

مساهمات ملحوظة في تنظيم «سيكولوجيا الأنا»، فاشتهر مفهوم «هوية الأنا Ego Identity» على يد إريك إريكسون (وهو بالأصل أحد تلاميذ آنا فرويد) الذي أشار مؤخراً إلى أن مفهوم فيدرن عن «حدود الأنا» قد: «نوقش كثيراً أثناء خضوعي للتدريب في جمعية ڤيينا للتحليل النفسي في أواخر العشرينيات»[٦٢]، وحسب اعتراف فيدرن في أجوائه الخاصة، فإن ڤيكتور تاوسك هو الذي ابتدع مفهوم «حدود الأنا» (نتساءل عما إذا كان الدافع لحذر فيدرن تجاه الإعتراف بمساهمة تاوسك في السنوات اللاحقة ينبع جزئياً من صدمته إزاء الظروف المحيطة بوفاة تاوسك في وقت غير مناسب أبداً). لقد عُرض مفهوم «الهوية» ذاته في الأدب التحليلنفسي للمرة الأولى على يد تاوسك في بحثه «الآلة المسيطرة . . »[٦٣].

رغم عدم اقتناعه بجدوى علاج الذهانيين، فإن فرويد لم يمنع فيدرن من متابعة محولاته معهم في السنوات اللاحقة، لقد أراد - ببساطة- عدم المشاركة شخصياً في هذا العمل. اعتبر فرويد أن صياغات فيدرن - كما جرى مع تاوسك سابقاً- «مبُهمة» ولكنه استمر في تحويل المرضى إليه ولم يحاول أبداً إقصاءه عن حلقته.

ورغم عدوانيته الشديدة تجاه زملائه أحياناً، كان فيدرن - كإنسان- دافئاً ولطيفاً وحتى مهذاراً بعض الشيء، ومع اشتهاره بزلات اللسان كانت شخصيته من النوع السلس الذي يمنح مرضاه وسائل دعم غير منطوقة. وحسب مَثَل ڤييني مأثور قديم فإن الإنسان الجيد فقط يستطيع أن يكون طبيباً جيداً. لقد «كافح فيدرن ضد الميزات التي يمنحها له وضعه كمعالج بهدف مساعدة مريضه أكثر من فرويد الذي تغلب العالِم فيه على الشافي»[٦٤] وفي العلاج «ليست الطريقة العلمية هي الأفضل دائماً لإضاءة الشخصية»، وكما أوضح تاوسك مرة فإن «الفن- في الغالب- هو الأنسب لخدمة هذا الغرض»[٦٥].

أكّد فيدرن مرة على «الإنطباع المحبب» الذي يخلقه أحد المرضى بينما اعتبر فرويد الشخص ذاته «تافهاً بشكل مطلق»[٦٦]. كان فرويد شديد الحساسية تجاه «مقاومات» المرضى التي تبرز أثناء العلاج واستخدام الصور الحربية لوصف اللقاء

العلاجي، ويتضمن التحليل - في رأيه- رئيساً ومرؤوساً هو المريض الذي «يخضع» للعلاج وشدّد دائماً على خطر الحماس العلاجي الشديد للمحلل محذراً من ذلك المرة تلو الأخرى.

اعتقد فرويد - بسبب عدم قدرته على تقبل الإرتباط الأمومي فيه- بأن على المحلل أن يدرك تماماً مايفعله، وشجع المحلل- طالما أنه يعمل لمصلحة المريض وليس طلباً للعرفان بالجميل - على بذل أقصى طاقاته. ولكن المحلل الذي يبذل المزيد من جهوده سيعرض المريض حتماً إلى الشعور بالخيبة والخسارة الأكبر. ورغم أن حيادية المحلل قد تعيق عفوية مريضه فإن الحفاظ على مسافة عنه قد تحميه أيضاً من سادية المحلل، وكما تبين لنا، فإن ايجابية المحلل قد تكون عدوانية بحد ذاتها. ومع ذلك كان فرويد حذراً تجاه أخلاقيات العلاج الإيحائي وكرِه التضليل أو الإجبار Coercion: «يجب أن يتربى المريض على تحرير طبيعته الخاصة وتحقيقها وليس على التشبه بنا»(٦٧).

دفع فيدرن - حين أصبح ممثلاً لنزعة العلاج الأشد معارضة لطريقة فرويد الخاصة داخل جمعية ڤيينا بعد وفاة تاوسك - ثمن توقه إلى عدم الوقوع في شرك أن يصبح يونغ أو آدلر أو حتى تاوسك آخر، واحتفظ بغموض أفكاره وعدم وضوحها خشية أن يصبح انحرافه عن أفكار فرويد- وخاصة بالنسبة له شخصياً - شديد الجلاء. ولأن مستواه كباحث علمي أقلّ من أن يسمح له بأن يبدأ من الصفر، فقد عاش فيدرن صراعاً أعاق كتاباته ومنع تكوّن مفاهيمه الخاصة الواضحة إلا بعد فترة طويلة من وفاة فرويد.

نحن نعرف حالياً بأن صعوبات علاج الذهانيين لاتنبع فقط - كما اعتقد فرويد - من عجزهم عن «تحويل» وجداناتهم فإنهم يتعلقون أحياناً بسرعة وشدة تجعل من الصعب إرساء علاقة عمل معهم. إن الفصاميين - مثلاً- شديدو الحساسية تجاه موضوع تقبُّل - أو عدم تقبُّل - الآخرين لهم وغالباً ماتتداخل عدوانيتهم ومشاعر غضبهم مع علاجهم وقد لايكفي التساهل المحبب من جانب

المحلل لأنه قد يؤدي إلى إثارة مشاعر الإثم لدى المريض وجعله يتراجع إلى حدود أكبر.

كان الطموح الأكبر لتاوسك هو إيجاد طريقة لفهم وعلاج تلك الاضطرابات الغامضة التي يُطلق عليها اسم «الذهانات»، وإن قلة اهتمام فرويد بالذهانات سمح لتاوسك أن يبقى ضمن عالم فرويد تلك الفترة التي قضاها. أراد تاوسك أن يمضي شوطاً أبعد من فيدرن في حل مشكلة الأمراض العقلية الضخمة. وعندما نرى الأطباء النفسيين حتى أيامنا هذه يتلمسون طريقهم في هذا الحقل مصنفين الحالات التي لايزال ينقصهم فيها الفهم، فإننا نشرع برؤية الهدف الهائل لطموحات تاوسك.

في ٣٠ كانون أول من عام ١٩١٤، قدّم تاوسك بحثاً عن «السوداوية» أمام جمعية ڤيينا، وأثناء مناقشة هذا البحث عبّر فرويد - للمرة الأولى - عن آرائه حول الاضطرابات «الهوسية - الإكتئابية Manic - depressive» (والمصابون بالهوس الاكتئابي لايميلون - خلافاً للمجموعة الرئيسية الأخرى ضمن الذهانيين (أي الفصاميين) - إلى الانتهاء إلى التفكك)، وبعد ذلك بفترة قصيرة - في شهر شباط من عام ١٩١٥ - كتب فرويد مسوّدة أولى لإحدى أبحاثه الكلاسيكية: «الحداد والسوداوية» ولكنه لم ينشرها إلا بعد عامين، ورغم أن الحرب أخّرت نشر الكثير من المواد التحليل نفسية إلا أنّ السبب الرئيسي لتأخر فرويد هو رغبته في إعادة النظر في بحثه.

أما تاوسك فكان يعمل - كما رأينا - بطريقة مختلفة تماماً. في محاضرة عن ذهانات الحرب ألقاها في «لوبلين» في شهر حزيران من عام ١٩١٦، قدّم تاوسك مراجعة شاملة لمفاهيم فرويد عن السوداوية، وأشار مراراً إلى «الملاحظات الشفهية» لفرويد، وفي إحدى المقاطع ذكر تخميناً لفرويد لم ينشر بعد «وأنا أقتبسه هنا بناء على أذنه الخاص»[٦٨]. ونستطيع أن نفهم إذاً دواعي فرويد للحذر تجاه هذا الرجل الذي - إضافة إلى امتلاكه لأفكار خاصة به - كان يندفع إلى ملء بعض مفاهيم فرويد الخام بمواده العيادية الخاصة به.

تملكت تاوسك حاجة ضخمة للإبداع، وكما لاحظ في إحدى نقاط بحثه «من السهل أن يصبح المرء مشهوراً عبر ادعائه باكتشاف ذهان جديد. .»[٦٩]. ولكن مبحث تاوسك، الهامّ تاريخياً لأنه يدرس السوداوية بالتواقت مع دراسة فرويد لها، قد أفسدته نزعته التنافسية فهو لم يستطع أن يتقبل ببساطة أصالته الخاصة وأفسد عرضه عبر الدخول في تفاصيل عديدة من آراء فرويد وأرهق جداله بالإشارات إلى تعليقات فرويد. وفي نهاية بحثه تماماً أدخل حاشيه تنتقد أحد الأطباء لأنه يكتب دون أن يذكر اسم فرويد. وعندما ظهرت مقالة فرويد أخيراً في عام ١٩١٧ - أي بعد عام من مبحث تاوسك - فإنه لم يقتبس أو يذكر إطلاقاً عمل تاوسك حول السوداوية الذي تجاهله تلاميذ فرويد إثر ذلك. لقد فكر فرويد طبعاً في هذا الموضوع (السوداوية) لعدة سنوات خلت، ولكنه لم يذكر اسم أي من الكتاب المعاصرين الآخرين حوله، وللإنصاف فإن تاوسك يستحق أن يُذكر بوصفه أحد المحللين النفسيين القلائل الذين درسوا هذه المشكلة. إن قضية وضع الحواشي لم تكن مسألة مدرسية في تلك الحلقة ويعرف فرويد «أننا نعرف جميع كتبه (أي فرويد) عن ظهر قلب بما فيها الحواشي. .»[٧٠].

في مقالته عن السوداوية ذكر فرويد اسم تاوسك ولكن ليس في الموقع الصائب أي ليس بسبب دراسته للسوداوية*.

إن البحث الذي أكسب تاوسك الشهرة الطب نفسية الأعظم هو المقال الذي ناقش أعراض «الآلة المسيطرة» في الفصام، وقد قرأه تاوسك أمام جمعية ڤيينا في السادس من شهر كانون الثاني عام ١٩١٨ وكُرست أمسية أخرى لنقاشه في الثلاثين من كانون الثاني، ونُشر البحث بعد ذلك بعام.

* حسب جونز فإنه «بينما كان مسرد مراجع فرويد مضبوطاً وشاملاً بشكل دقيق أثناء عمله في علم الأعصاب، فإن هذا الأمر ينتفي عند الإنتقال إلى كتاباته التحليلية. لاحظ رانك مرة بشكل مازح أن فرويد يوزع المراجع على كتابات المحللين الآخرين» كما يوزع الإمبراطور نياشينه أي تبعاً لمزاجه وميله اللحظي، والأنكى من ذلك أنه كان يعيد توزيعها أحياناً. أذكر أنه نسب مرة إحدى استنتاجاتي الهامة التي قرأها في إحدى الكتب الى الشخص الذي راجع ذلك الكتاب ولكن ذلك المُراجع كان في ذلك الوقت - خلافاً لي أنا - موضع استحسان فرويد[٧١].

طوّر تاوسك في بحثه مفهوم «الإسقاط Projection» ضمن سياق طب نفسي عيادي. افترض فرويد أن الذهان يتضمن نكوصاً في «اللّيبيدو» إلى النرجسية الأولية وأنّ المرحلة الأكثر أولية في تطور الطفل تفترض تمركزاً حول جسده بالذات. أما تاوسك، فبيّن أن الأعراض الفصامية قد تمثّل المراحل الأبكر من احتكاك الأنا مع الواقع يتم فيها إسقاط مشاعر الغربة الداخلية على العالم الخارجي، أما التغيّرات الشخصية الخاصة فتختبر باعتبارها صادرة عن العالم الخارجي.

فسّر تاوسك الهذيان Delusion الفصامي العام بالسيطرة الاضطهادية Persecution للآلات باعتباره تمثيلاً تخارجياً Externalized لجسد الفصامي بالذات. فالآلة المسيطرة، إذن، هي إسقاط لجسد المريض كنوع من الدفاع ضد النكوص إلى النرجسية الأولية، وتوصل تاوسك - عبر توسيع رؤاه العيادية الخاصة- إلى أن «الآلات Machines التي يُنتجها إبداع المريض ويخلقها على هيئة إنسان هي إسقاطات لاشعورية لبنيته الجسدية»(٧٢).

وهنا يعترف فرويد بأسبقية تاوسك، فقد استخدم فرويد مادة القصة المرضية التي استخدمها تاوسك (الذي لاحظ ذلك بحق في حينه) في مقالة كتبها في ربيع عام ١٩١٥ وعلّق فرويد باختصار: «لقد وضع الدكتور ڤيكتور تاوسك تحت تصرفي بعض الملاحظات التي وضعها عن المراحل الأولية للفصام»(٧٣). في مقالته التي تأخرت في الظهور حتى عام ١٩١٩، قلّل تاوسك من دوره معترفاً بمساهمات الآخرين فذكر عمل فرويد الأبكر حول الفصام واعترف مرتين بتعليقات فرويد على المقالة أمام جمعية ڤيينا وذكر أيضاً مرتين - ليجعل الأنشوطة أشد التفافاً حول عنقه- ملاحظات هيلين دويتش خلال مناقشة بحثه.

والملفت للنظر هو أن كافكا - الذي يتشابه مع تاوسك في أمور أخرى عديدة- قد كتب أيضاً عن الآلة باعتبارها إسقاطاً لجسد المريض ووصف في قصته «في المستعمرة الجزائية In The Penal Colony» الآليات ذاتها التي تعرض لها

تاوسك في بحثه الطب نفسي. في قصة كافكا تتحكم الآلة بالأفكار والمشاعر بينما تطبق العقوبة على جسد الضحية وفي النهاية تلتصق الآلة والجسد معاً[٧٤].

تنقلت كتابات تاوسك بين حقول عديدة جداً منعته من تحقيق وعده الكبير لأنه تحدى نصيحة فرويد لتلاميذه بأن عليهم التركيز على موضوع واحد. فإضافة إلى ريادته في مجال الذهانات الهوسية- الإكتئابية والفصامية، ساهم تاوسك في فهم سيكولوجيا الأنا والإبداع الفني والدعائم الفلسفية للتحليل النفسي والعلاقة بين القانون والطب النفسي. بمقالته عن «الآلة المسيطرة» اكتسب تاوسك موقفاً ريادياً في الفهم السيكولوجي للهذيانات الفصامية وجاء آخرون ليشيدوا بنيانهم على هذا العمل (نذكر منهم برونوبيتلهايم في علاجه للأطفال المضطربين بشكل خطر[٧٥]. ولكن تاوسك مات في وقت مبكر جداً جعل عمله يبدو الآن مشتتاً.

# خاتمـة

رغم الشهرة الطب نفسية المحدودة التي اكتسبتها إنجازات تاوسك، فإن انتحاره قد أطفأ ذكراه تقريباً في أذهان العالم عامة. بعد وفاته في عام ١٩١٩، جاءت كوزا لازاريفيس (التي عاش معها تاوسك خلال الحرب) إلى ڤيينا لمقابلة شقيقته يلكا وحافظت على زيارة قبره سنوياً بعد ذلك.

لم يرتبط ابنا تاوسك بعلاقة قوية مع المجتمع التحليلنفسي. تابع ماريوس (الذي خطط سابقاً لدراسة الطب النفسي) دراسته الطبية واختار عدم ممارسة هذه المهنة. حضر ماريوس في عام ١٩٢٦ إحدى اجتماعات جمعية ڤيينا حيث حيّا فيدرن بحرارة ابن صديقه المتوفي. أما الابن الأصغر (فيكتور هوغو) فقد وافق هيتشمان على تحليله مجاناً بين شهري أيلول عام ١٩٢٣ وشباط من عام ١٩٢٤، وتمثلت نهاية التحليل في زيارة قام بها لقبر والده أملاً في التحرر من ذكرى تقض مضجعه. ورغم تحطم العائلة والموت الموجع (الرضي Traumatic) لأبيهما - وهو الحدث الأهم في حياة الإنسان حسب اعتقاد فرويد- فقد نجح الإبنان في حياتهما.

في العقدين الفاصلين بين وفاة تاوسك ووفاة فرويد (١٩٣٩) تم التطرق الى اسم تاوسك بشكل عرضي فقط. واستشهد فرويد به مرة أخرى وذكره أحياناً في معرض أحاديثه. وخلاصة القول فإن تاوسك وحياته وصراعاته قد اختفت عن وجه الأرض (باستثناء مقالته «الآلة المسيطرة. . »).

عادت قصة تاوسك إلى الظهور فجأة في عام ١٩٣٤ إثر ظهور إحدى مقالاته التي نجت من الدمار مع بقية مقالاته. ولعله - لو كان حياً- لن يسمح بظهورها لأنه في نهاية تلك المقالة وفي مجرد حاشية، كشف تاوسك عن النقطة الحيوية في صراعه مع فرويد، أما الناشرون - لجهلهم به- فلم تكن لديهم أدنى

فكرة عما تشير إليه الحاشية. والمقالة القصيرة التي ظهرت تتحدث عن شخص يدعى «B» يعاني من عقبة Block في علاقته مع سيد مبجّل يُدعى إبسن Ibsen، وتم تحليل هذا الوضع بلغة الاصطلاحات التحليلنفسية المتداولة آنذاك. علاوة على ذلك فالقصة تلخص بشكل مُحكم صراع تاوسك مع فرويد: «لقد نُسجت العلاقة بين B و Ibsen – وهي علاقة من النوع الذي يربط فرداً مبدعاً مع معلمه الذي يمثل مثاله الأعلى – تبعاً لعقدة الأب... ينبع البغض في حياة المنافسين المتصارعين مع معلّميهم من علاقة الإبن – الأب. إذن فالصراع بين المعلم وتابعه المكافح في سبيل الاستقلال يشبه تماماً النمط الأكثر حدة من الصراع بين الأب والابن»[1]. بعد أربع سنوات – أي في عام ١٩٣٨ – حدثت مناسبة أخرى جعلت الحرس القديم المحيط بفرويد يتذكر تاوسك. فعندما كان النازيون يدفعون بفرويد وتلاميذه خارج ڤيينا، سمع المحللون الذين يعانون من ضنك مالي شديد بأن الأمور المالية لماريوس (ابن تاوسك) تسير على مايرام من خلال عمله كأخصائي في الغدد الصمّ والعقاقير في هولندا. اتصل فيدرن بماريوس سائلاً استرداد القروض التي قدمها لوالده سابقاً (نذكر أن هيتشمان وييكلز Jekels وفيدرن ساعدوا تاوسك أثناء دراسته الطبية). ولم يتردد ماريوس أبداً بالدفع بمجرد إعلامه بالديون.

ذكر فيدرن لماريوس أيضاً أنّ فرويد أحد دائني أبيه. كتب ماريوس الى فرويد طالباً معرفة المبالغ المستحقة له بذمة أبيه. تصرف فرويد كرجل نبيل تماماً gentel man. فرغم معاناته من سرطان الفك منذ عام ١٩٢٣، وقبل وفاته بعام واحد فقط، بقي، هذا المريض المعزول ذو الثانية والثمانين عاماً، هائلاً كدأبه دوماً، محتفظاً بكل إحساسه بالكرامة والشكليات. كتب فرويد رسالة جوابية يقول فيها أنه لايذكر تماماً المبلغ الذي أقرضه لوالد ماريوس وأنه ليس مبلغاً كبيراً على كل حال وأن الموضوع لم تعد له أية أهمية على الإطلاق.

كان عام ١٩٣٨ عاماً مرعباً لأوروبا مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من كلّ صوب. قُتل ميركو Mirko (أحد إخوة تاوسك الأصغر منه) وهو يقاتل في إسبانيا

في شهر حزيران. ووجدت يلكا وزوجها ايرنست وشقيقه كاميلو أنهم وقعوا في الفح حين دخل النازيون إلى فيينا. لم يكن لديهم المال اللازم للعيش في الخارج وبدأت صحتهم بالإنحراف وشعروا بالهرم فجأة. كتبت يلكا رسالة وداعية إلى أمها العجوز في يوغوسلافيا تقول فيها: «لقد عشنا سعداء جداً، ولانريد أن نعيش تعساء»، ثم أقدم ثلاثتهم - كما فعل كثيرون غيرهم آنذاك - على الانتحار.

لم تستفق والدة فيكتور أبداً من وقع الصدمة وتُوفيت في العام ذاته(٢).


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

# ثبت الملاحظات

## - الفصل الأول:

١- مثلاً، مقابلة مع الدكتور إدوارد كرونولد Kronold في ١٩ أيلول ١٩٦٦.

٢- ظهرت هذه الشائعة التي تفتقر إلى أساس في كتاب هـ. ف بيترز Peters «شقيقتي، زوجتي»: My sister, My spouse - New York 1962 P 281

٣- «فيكتور تاوسك» (The standard Edition of the complete psychological works of sigmund Freud, ed. James strachey - Hogarth Press, 1953- Vol. 17, pp 273-5) ومن الآن فصاعداً سنشير إلى هذه الطبعة من أعمال فرويد بـ «طبعة ستاندارد».

٤- إن السجل المدون عن تاوسك ضئيل ولكن يمكن إنطاقه. ولولا الدلائل المتكررة على أهمية تاوسك لما تفحصتُ المادة المتوفرة عنه، فكل فترة يكتب أحد أعضاء تلك الحلقة المبكرة من المحللين النفسيين عن رأي تاوسك وتعليقاته. انظر: هيرمان نونبرغ في (Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society) - eds H. Nunberg and E. Federn, International Universities Press, NewYork, 1962, I, xxii- xxiii وإدوارد وڤايس أيضاً: The Structure and dynamics of the Human Mind, Grune of Stratton, NewYork, 1960, p. xvi.

واعترف ڤايس بفضل تاوسك في تبصر عيادي خاص، انظر: "Emotional Memories and acting out", Psychonalytic quarterly, xi, 4, 1942, 485 نموذجياً، نظر ساندور فيرنزي إلى تاوسك باعتباره «محللاً أحزننا جميعاً موته المبكر» Further Contributions to the theory and technique of psychoanalysis Uograth press, 1926, p369.

وتحـدث رانك عن «العـمل القـيم لتـاوسك الذي توفي قـبل أوانه» : (The Trauma of Birth)- Harcourt, Brace Co, NewYork, 1929, p69.

وأعلن أحد الأطباء النفسيين بأنه «انجذب إلى التحليل النفسي لحد كبير بتأثير حماس تاوسك وتمثله البراق للنظرية الفرويدية» Doriam Feigenbaum in: Psychoanalytic quarterly vo102, 1933, p519.

وثمة مايكفي من ذكريات معاصريه للتأكد من مدى ثقة فرويد بتاوسك، فنتيجة لاعتراضات شتيكل عيّن فرويد تاوسك مرة للإشراف على المراجعات التي ستُنشر في الصحيفة التحليلية الرئيسية، كان تاوسك وشتيكل عدوين، وبعد عدة سنوات وقف فرويد إلى جانب تاوسك في حكمه عليه. انظر : Stekel, Autobiography, ed. Emil Gutheil, Liveright Publishing Co., NewYork 1950, pp.142-3. Ernest Jones, The Life and work of sigmund Freud, Basic Books, NewYork, 1955 Joseph wortis: Fragment of Analysis with Frend, : 9 Charter Books, NewYork, 1963, P.163.

ومن السيرة الرسمية التي كتبها جونز عن فرويد، يمكن التقاط بعض المعلومات الإضافية، يذكر جونز أنه بعد استقالة آدلر من جمعية ڤيينا للتحليل النفسي بقي «شتيكل وسادجر وتاوسك الذين سببوا لفرويد بعض المشاكل»، وعندما كتب عن «العضّ من الخلف والملاحظات الحادة والشجارات حول الأسبقية في قضايا صغيرة» وضع تاوسك ضمن قائمة «الأشد إزعاجاً في هذا الموضوع»، وعندما ناقش «الجانب الأنثوي» عند فرويد والطريقة التي قادته فيها حاجات التبعية إلى المغالاة في تقدير بعض تلاميذه دلّل على وجود هذه الميول مع «آدلر ويونغ، وإلى حدّ ما فيرنزي وسيلبرر وتاوسك»

Jones, Life of Freud, II, 86, 129, 420,

وفي إحدى المرات ، حول فرويد مريضاً مهماً جداً إلى تاوسك انظر :

Edward Glover, "David Eder in David Eder", ed.J.G.Hobman, Gouan Cz 1945, P98.

وبمساعدة يوميات «لو» ونعوة فرويد احتل تاوسك خمس صفحات في «روّاد التحليل النفسي» راجع: Franz Alexander, Martin Brotjahn, and Samuel Eisenstein, Basic Books, NewYork, 1966, PP235-9

ومن المراجع الثانوية عن تاوسك يمكن ذكر: Vincent Brome, Freud and his Early Circle, Ueinemann, 1967- 9: Reich speaks of Freud, Mary Higgins and Chester Raphael, Farrar, Straus Giroux. NewYork, 1967.

٥- اقتبس فرويد سرد تاوسك عن التنشئة الدنيوية لليهودي. انظر: (علم النفس المرضي للحياة اليومية) : "Psychopathology of Every day life", Standard Edition, Vol.6, PP92-3.

٦- حول موضوع تعميد تاوسك قبل زواجه انظر [لم يذكر المؤلف اسم المرجع- المترجم].

٧- «دراسة سيرية ذاتية». Standard Edition, Vol. 20 P55.

اضافة إلى مقابلة مع أوليفر فرويد في ٢٢/ ٤/ ١٩٦٦.

٨- إيرنست جونز «حياة فرويد»، II ، ص ٧١.

٩- «في تاريخ حركة التحليل النفسي» Standard Edition, Vol. 14

١٠- انظر «أوراق حول الأسلوب» Standard Edition, Vol. 12. P.85-17 . وفي «محاضرات تمهيدية حول التحليل النفسي» كتب فرويد أن «التحليل النفسي إجراء يهدف للمعالجة الطبية للمرضى العصابيين» Standard Edition, Vol. 15, P15 . ومن جهة أخرى، كتب فرويد، في عام ١٩١٣، في مقدمة لكتاب شخص غير اختصاصي «إن التعليم السيكولوجي والنظرة الإنسانية المتحررة أكثر أهمية من التدريب الطبي في الإعداد لمزاولة التحليل النفسي» راجع: مقدمة لكتاب بفيستر «الأسلوب التحليل نفسي» Standard Edition, Vol. 12. PP.330-1.

١١- مثلاً، الدكتوران ساندور رادو وڤيريز بينيدك.

١٢- فريتس ڤيتلز : «فرويد» Dodd Mead Co, NewYork, 1924, P.136

١٣- لودڤيغ بينسفانغر Binswanger, (Segmund Freud), Grune Stra-tion, NewYork, 1957

١٤- هاينتس هارتمان

"Reminiscences" Golombia Oral History Project, P.4

١٥- ربما غيّرت «لو» انطباعاتها المباشرة عن تلك السنة في ڤيينا بتغيير المعطيات على ضوء الأحداث اللاحقة، وثمة تلميحات إلى أن محررها الأدبي قد أجرى تعديلات خاصة به، انظر

Rudolf Binion, Frau Lou, Princeton University Press, 1968, P465. :

١٦- كتب فرويد مقالة قصيرة حول تلك المقابلة

"On transience" Standard Edition, Vol. 14 P305.

١٧- لو أندرياس سالومي

"The Freud Journal", Tr: Stanely A Leavy, Basic Book, P131

١٨- «دراسة سيرية ذاتية» Standard Edition, Vol. 20, وكان عام ١٩١٢ حاسماً أيضاً في علاقة فرويد مع يونغ.

## - الفصل الثاني :

١- محاضرات تمهيدية حول التحليل النفسي

Standard Edition, Vol.16, P285

٢- «مراسلات سيغموند فرويد»

Ernest Freud, Hogarth press, 1961, P.215

٣- «مساهمات في النقاش حول العادة السرية»

Standard Edition, Vol.12. P.250.

٤- مقابلة مع السيدة الكساندر فرويد في ١٢/ ٥/ ١٩٦٦ .

٥- المراسلات، PP 58, 66

٦- «أصول التحليل النفسي» Marie Bonaparte, Image, 1954, P227

٧- جونز: «حياة فرويد» III, 99

٨- المرجع السابق II, 386

٩- «ليوناردو دافنشي» .Standard Edition, Vol, 11, P 101

١٠- مقابلة مع الدكتور Esti Freud في ٣٠/ ٤/ ١٩٦٦ و٢٧/ ٨/ ١٩٦٦ .

١١- Minutes, II, 413

١٢- مقابلات مع الدكتور «إيستي فرويد».

١٣- مقابلة مع أوليڤر فرويد.

١٤- مقابلة مع الدكتور Molly Putnam في ٢٢/ ٩/ ١٩٦٦ .

١٥- مقابلات مع إيستي فرويد.

١٦- مقتبسة من إ. جونز «حياة فرويد» III, 213

١٧- «حول النرجسية» P89 وأيضاً رسالة من Max Schur إلى جونز في ٣٠/ ٩/ ١٩٥٥ .

١٨- أندرياس سالومي: «يوميات فرويد» P44.

١٩- المرجع السابق P467

٢٠- Minutes, II, P467

٢١- كاتب المقالة هو «روبرت ڤايلدر»، وقد نُشرت في مجلة التحليل النفسي العالمية عام ١٩٢٩ كمراجعة لإحدى مقالات فرويد.

٢٢- سالومي: يوميات فرويد P 38-9.

٢٣- سالومي: يوميات فرويد.

٢٤- سالومي : المرجع السابق P 169.

٢٥- المرجع السابق PP.51, 56.

٢٦- بينيون : «السيدة لو» .

٢٧- سالومي : يوميات فرويد P57

٢٨- المرجع السابق PP 57-8

٢٩- ڤيتلز «سيغموند فرويد» P150

٣٠- هانز ساخس «فرويد، المعلم والصديق» Imago 1945, P69

٣١- «دراسة سيرية ذاتية» Standard Edition, Vol , 20, P11

٣٢- المراسلات PP 313- 314

٣٣- سالومي «يوميات فرويد» P 97.

٣٤- المرجع السابق P 114.

٣٥- المرجع السابق P 97.

٣٦- المرجع السابق P 98.

٣٧- المرجع السابق P 114.

٣٨- المرجع السابق P 38.

٣٩- المرجع السابق P 166- 7، وتجعلنا العبارة الأخيرة نتساءل إن كانت قد كتبتها بعد عدة سنوات .

٤٠- المرجع السابق P 166.

٤١- المرجع السابق P 167.

٤٢ - المرجع السابق P 167-8، إن مفهوم «الحيوان المفترس» قد أتى من مقالة فرويد «حول النرجسية» : «يكمن سحر الطفل إلى حدّ كبير في نرجسيته ورضاه الذاتي وعدم تأثره بالمحيط، تماماً كسحر بعض الحيوانات التي يبدو أنها لاتهتم بنا كالقطط والحيوانات المفترسة الكبيرة» .

## - الفصل الثالث:

١- (Zur Pschologie des deserteurs), International Zeitschrift fur-pschoanalyse, Vol. 4, 1916, PP. 193-204, 229-40.

وقد ظهرت ترجمة هذه المقالات في

Psychoanalytic Quarterly, Vol.38, 1969

٢- Binion, Frau Lou, PP.358-9

٣- «نصائح إلى الأطباء الذين يزاولون التحليل النفسي»

Standard Edition, Vol2, P116

٤- نونبرغ: "Minutes" -I, xxii

٥- في مقال حول «التحليل النفسي التدريبي» اعتبر «هانز ساخس» أن «التحليل يحتاج إلى شيء يتوافق مع الترهُبُن الكنسي»

Ten years of the Berlin Psychanalytic Institute, Interantional Psychoanalytic Association, Vienna, 1930, P45

٦- رسالة من آنّا فرويد إلى جونز ٧/ ٣/ ١٩٥٥ (أرشيف جونز).

٧- أندرياس سالومي «يوميات فرويد» P.169

٨- مقابلة مع الدكتور Robert Jokl، ٢٨/ ١٢/ ١٩٦٥.

٩- مقابلة مع الدكتور Herman Nurberg، ١/ ٤/ ١٩٦٧.

١٠- تحدث الدكتور Richard Wagner عن «انسحابه شخصياً من جمعية فيينا لهذا السبب. مقابلة في ١٧/ ١٢/ ١٩٦٥.

١١- مقابلة مع الدكتورة هيلين دويتش ٧/ ٢/ ١٩٦٦.

١٢- مقابلة مع الدكتور Philip Sarasin، ٣٠/ ١١/ ١٩٦٦.

١٣- اقتباس من

A.E. Hotchner, Papa Hemingway, NewYork 1967, P51

١٤ - «مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي»

.Standard Edition, Vol. 14, P22

١٥ - «نصائح إلى الأطباء الذين يزاولون التحليل النفسي»

Standard Edition, Vol.12, P.118

١٦ - في مراجعة نُشرت بعد فترة قصيرة من وفاة تاوسك، اعتبر جونز أنه «بارافريني لم يستطع أن يصل إلى نهاية أخرى»، وقد اقترح فرويد مصطلح Par phrenia لفترة بدلاً من الاصطلاح الأكثر شيوعاً Schizophrenia (الفصام) أو Dementia Praecox (العته المبكر) - مراجعة لكتاب International - wittles Journal of Psychoanalysis, Vol.5, Part 4, October 1924, PP. 481-6.

وقد أخبر جونز أحد زملائه أيضاً بأن تاوسك «أصيب» بالفصام. وفي بداية العشرينيات كانت الذهانات أكثر غموضاً بالنسبة للمحللين عما هي اليوم، ولذلك نرجح أن جونز نظر إلى «الفصام» باعتباره مرضاً قد «يصاب» به المرء كإصابته بالرشح. مقابلة مع البروفيسور Penrose، ٣١/ ٨/ ١٩٦٥.

١٧ - جونز: «حياة فرويد» II, 429.

١٨ - «مراسلات سيغموند فرويد وكارل ابراهام»

Hilda Abraham and Ernest Freud, 1965.

١٩ - اقتباس ص Jessie Taft, Otto Rank, Jwlian press, 1958, P107

٢٠ - نُشرت في الانكليزية بعنوان:

"Compensation as a Means of Discounting the Motive of Repression"- International Journal of Psychoanalysis

٢١ - مقابلة مع الدكتور إدوارد ڤايس، ٥/ ٤/ ١٩٦٥.

٢٢ - "An Autobiography Study", Standard Edition, Vol. 20, PP14-15

٢٣ - رسالة هيرست Albert Hirst إلى جونز بتاريخ ٦/ ١١/ ١٩٥٣ وإلى

آنا فرويد في ١٩/ ١٠/ ١٩٥٣ ورسالة جونز أيضاً إلى «هيرست» في شهر تشرين ثاني ١٩٥٣ (أرشيف جونز).

٢٤- ٢٣/ ٧/ ١٩٠٤ و ٢٦/ ٧/ ١٩٠٤، انظر: Richard Pfennig, Welhelm Fliess, Goldschmidt, Berlin, 1906, PP.26-9.

وقد تذمر جونز من طيش فرويد حين أفصح عن إحدى أفكار جونز لأحد مرضاه (Jekels) الذي سبق جونز عندئذ إلى كتابتها بنفسه - جونز «حياة فرويد».

٢٥- ٢٧/ ٧/ ١٩٠٤، Wilhelm Fleiss, PP- 30-1

٢٦- انظر رسالة Bernfeld إلى جونز في ٢٦/ ٥/ ١٩٥٢ (أرشيف جونز)، ورسالة فرويد إلى Karl Kraus، المراسلات PP259- 60.

٢٧- Minutes, II, 48-9.

٢٨- «محاضرات تمهيدية» Standard Edition, Vol. 16, P.257

٢٩- E.A. Bennet: «جدال فرويد مع جانيه» British Medical Journal, 2/6/1965

٣٠- اقتباس من David Shakow and David Rapaport, "The Influence of Freud on American Psychology", International Universitied press, NewYork, 1964, P118

٣١- «محاضرات تمهيدية» Vol. 16, P285 و«إحدى الصعوبات في طريق التحليل النفسي» Vol. 17 PP. 139-41

٣٢- اقتباس من جونز «حياة فرويد».

٣٣- مقابلة مع الدكتورة هيلين دوتيش في ١١/٦/١٩٦٦.

٣٤- "Analysis Terminable and Interminable", Standard Edition, Vol. 23, PP244-5.

٣٥- اقتباس من Ernest Kris: «فرويد في تاريخ العلم» و «المستمع» Vol 55، ١٧/ ٥/ ١٩٥٦ وكتابي: «فرويد: الفكري السياسي و الإجتماعي» PP 84-5 حول الأسباب الأخرى التي دعت فرويد إلى عدم قراءة نيتشه.

- الفصل الرابع :

١- مقابلة مع البروفيسور Mark Brunswick في ٢٥/ ١/ ١٩٦٦ و ٢٢/ ١١/ ١٩٩٧ والدكتور Philip Sarasin

٢- أدين بهذه النقطة للدكتور Alan Tyson

٣- «علم النفس المرضي للحياة اليومية»

Standard Edition, Vol. 6, P1556

٤- محاضرات تمهيدية جديدة» Standard Edition و : «الأخلاق الجنسية المتحضرة والأعصبة الحديثة» 99 -195 .Vol. 9, PP . و : «بعض النتائج النفسية للفروق التشريحية بين الجنسين» Vol. 19, P257

٥- «قلق في الحضارة» Standard Edition, Vol. 21, P.63

٦- Siegfried Bernfeld: (on Psychoanalytic Training) Quarterly, Vol. 31, No.4, 1962, P.463.

٧- «عرض مختصر للتحليل النفسي» Standard Edition, Vol. 19, P203

٨- حسب Kata Levy فإنها خضعت للتحليل عند فرويد في فترة مؤتمر بودابست حيث كانت آنا قد بدأت لتوّها التحليل على يد أبيها . وعندما زار أوليفر فرويد بيت أهلها في عام ١٩٢١ كانت شقيقته آنا تخضع للتحليل عند أبيهما . وقد أكدّ كل من السيدة إدوارد هيتشمان والدكتورة آني كاتان Katan والدكتورة إديث جاكسون والدكتور هيرمان نونبرغ والدكتورة إيرماريتا بوتنام والدكتور ساندور رادو أن فرويد قد حلل ابنته آنا فعلاً .

٩- Binswanger, Sigmund Freud, P. 67

١٠- جونز «حياة فرويد» III, 4

١١- المرجع ذاته، P50

١٢- ظهرت على المسرح - لأسباب مهنية - باسم Hilde Loewe

١٣- الدكتور H.W. Frink من نيويورك .

١٤- Minutes, II, 335

١٥- «الأحلام والتخاطر» Standard Edition, Vol. 18, P197

١٦- «دراسة سيرية ذاتية» Standard Edition, Vol. 20, P53

١٧- Binswinger, S. Freud, P. 9

١٨- فرانز كافكا: «رسالة إلى والده» في «الوالد الأعزّ»
Schocken Books, 1954, P190

١٩- «محاضرات تمهيدية جديدة» Standard Edition, Vol. 22, P133

٢٠- اقتباس من جونز «حياة فرويد» III, 20

٢١- «بعض الأواليات العصابية في الحسد والبارانويا والمثلية الجنسية
Standard Edition, Vol. 18, 228

٢٢- كافكا: «رسالة إلى والده» P.196

**- الفصل الخامس:**

١- كيرت آيسلر Eissler: «الأرثوذكسية الطبية ومستقبل التحليل النفسي»
NewYork, 1965, 237

٢- حكمة لسادجر Sadger في «حول الانتحار» NewYork, 1967, P22

٣- المرجع السابق.

٤- «المنشأ النفسي لحالة امرأة مثلية جنسياً»
Standard Edition, Vol. 18, P162

٥- Peter Sifneos, "Manipulative Suicide", The Psychiatric Quarterly, P4.

٦- Karl Menninger, "Discussion", International Journal Of Psychiatry, P196.

٧- Edwin Stengel "Inquiries into Attempted Suicide", 1952, P618

٨- «ڤيكتور تاوسك» Standard Edition, Vol. 17, PP273-5

٩- «التحليل النفسي والإيمان»

Heinrich Meng and Ernest Freud, NewYork, 1963, P71

١٠- «سيغموند فرويد ولو أندرياس سالومي» Briefwechsel, Fischer, Frankfurt, 1966 وللحصول على ترجمة مختلفة قليلاً ولكن غير مشذّبة لهذه الرسالة انظر Binion "Fran- Lou" P. 402

١١- المراسلات PP 73- 80.

١٢- «علاقتي مع جوزيف بوبر - لينكوس»

Standard Edition, Vol.22, P224

١٣- في شهر أيلول من عام ١٩١٩ أرسل فرويد مخطوطة كتابه «مافوق مبدأ اللذة» إلى أصدقائه.

١٤- بينيون «السيدة لو». P 403.

١٥- Ruth Mack Brunswick: "A Supplement to Freud's "History of Infantile Neurosis" - New York, 1948, P103.

١٦- اعترف فرويد فيما بعد بأنه كان حذراً في البداية تجاه تحليل ردود الفعل السلبية لمرضاه. انظر:

"Analysis Terminable and Interminable" Standard Edition

١٧- المرجع السابق P221-2

١٨- «محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي»

Standard Edition, Vol. 16, P463

١٩- Minute, II, 29

٢٠- ڤايس Weiss : «بنية وديناميات الذهن البشري» P.xviii

٢١- مقابلات مع الدكتور روبرت يوكل Jokl

٢٢- اقتباس من جونز «حياة فرويد» II, 415

٢٣- المراسلات، PP.295-6

٢٤- أندرياس - سالومي «يوميات فرويد» P.163

- الفصل السادس:

١- مقابلات مع ريتشارد ڤاغنر في ١٧/ ١٢/ ١٩٦٥، ١١/ ٢/ ١٩٦٦، ٢٥/ ٣/ ١٩٦٦.

٢- انظر: لقاء كيرت آيسلر مع بول كليمبرر Klemperer (أرشيف جونز).

٣- رسالة من فرويد إلى J.J. Putnam في ٢٠/ ٨/ ١٩١٢ (أرشيف جونز).

٤- «دراسة سيرية ذاتية» .Standard Edition, Vol 20, P. 53

٥- «حول تاريخ حركة التحليل النفسي»

Standard Edition, Vol . 14, P51

٦- حول مشكلة مشابهة بين فرويد وغروديك Groddeck راجع المراسلات PP 332-4

٧- اقتباس من أندرياس سالومي «يوميات فرويد» P. 163

٨- Wittels, Sigmund Freud, P.138

٩- Edith V. Weigert "Dissent in the Early History of Psychanalysis" Psychiatry, Vol. 5, 1942, P.254.

١٠- المراسلات P.265

١١- حول علاقة فرويد مع يونغ، راجع كتابي: «فرويد: الفكر السياسي والإجتماعي».

١٢- جونز «حياة فرويد» I, 317

١٣- مقابلة مع الدكتور إدوارد بينيت في ٩/ ١١/ ١٩٦٦.

١٤- المراسلات P304

١٥- Binswanger "Sigmund Freud" P. 53.

١٦- «محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي»

Standard Edition, Vol22, PP 143-4

١٧- «حول تاريخ حركة التحليل النفسي»، المرجع السابق Vol. 14.P.7

١٨- ساخس: «فرويد، المعلم والصديق» PP. 95- 96

١٩- مراسلات فرويد وابراهام P.141

٢٠- ساخس: «فرويد، المعلم والصديق» PP. 114

٢١- المراسلات P.339

٢٢- «التحليل النفسي والتخاطر» Standard Edition, Vol. 18, P 178

٢٣- جونز: «حياة فرويد» III, 395

٢٤- أندرياس سالومي: «يوميات فرويد».

٢٥- جونز: «حياة فرويد» III, 391

٢٦- المرجع السابق II, 14

٢٧- «علم النفس المرضي للحياة اليومية»

Standard Edition, Vol. 6, P. 256

٢٨- المرجع السابق، P.260

٢٩- المرجع السابق.

٣٠- «محاضرات تمهيدية» Standard Edition, Vol. 16, P438

٣١- «محاضرات تمهيدية جديدة» Standard Edition, Vol. 22, P159

٣٢- «مافوق مبدأ اللذة» Standard Edition, Vol. 18, P 59

٣٣- بول شيلدر «تأثير التحليل النفسي على الطب النفسي» 1940

٣٤- المرجع السابق P220

٣٥- «حول العلاج التحليلي» Standard Edition

٣٦- «عرض موجز للتحليل النفسي» Standard Edition, Vol. 19, P204

٣٧- "Analysis Terminable and Interminable" standard Edition, Vol.23. P.235.

٣٨- "The claims of Psychoanalysis to Scientific Interest", Vol.13 P174 and Introductory Lectures" - tandard Edition, Vol.16, P415.

٣٩- "Freud's Psychoanalytic Procedure" *standard Edition*, Vol.17, P250.

٤٠- "An Autobiographical study" standard Edition, Vol.20, P.60.

٤١- Binswagner, "sigmund Freud" P37.

٤٢- أندرياس سالومي: «يوميات فرويد» P. 72

٤٣- «فرويد كمعالج تحليلي» - رسائل إلى إدوارد ڤايس. أومأت روث ماك برونسفيك التي شاهدت مريض فرويد «الرجل الذئب» أثناء العلاج إلى أن علاج فرويد لبعض الدفاعات العُصابية ربما فتح الطريق أمام أواليات أكثر أولية للتعبير عن نفسها.

٤٤- إدوارد ڤايس: «الأغارافوبيا على ضوء سيكولوجيا الأنا» NewYork, 1964, P.6

٤٥- عندما ذهب هولوس وفيدرن إلى فرويد ومعهما كتاب ممتع عن الذّهانيين، قال فرويد: «هؤلاء الناس خارقون» وهو يضع الكتاب جانباً - مقابلة مع إيرنست فيدرن في ٢٤/٦/١٩٦٦.

٤٦- مراسلات فرويد P. 361

٤٧- المراسلات P. 380

٤٨- سيغموند فرويد «التحليل النفسي والإيمان» P 61

٤٩- جونز: «حياة فرويد» II, 417- 18

٥٠- «دراسة سيرية ذاتية» Vol 20, P.8، «مسألة مزاولة غير الأطباء للتحليل النفسي» Vol. 20, P. 254

٥١- "Freud as a Psychoanalytic Consultant" P 135

٥٢- «مقالتان موسوعيتان» standard Edition, Vol.18 P. 250

٥٣- مقابلة مع Elma Lourvik في ٣/ ٤/ ١٩٦٧.

٥٤- المراسلات P. 287

٥٥- أندرياس سالومي: «يوميات فرويد» P. 83

٥٦- إدواردو ڤايس: «تعارفي مع ڤيكتور تاوسك»- (مخطوطة غير منشورة) P.3

٥٧- «فرويد كناصح ومعالج»: من رسائل فرويد إلى إدوارد ڤايس.

٥٨- ڤورتيس Wortis: «شذرة من التحليل مع فرويد» P.80

٥٩- «خمس محاضرات في التحليل النفسي»

Standard Edition, Vol. 11, P53

٦٠- راجع نعوة بيرترام لوين Lewin لفيدرن في The Psychoanalytic Quarterly, Vol. 19, P2 وحسب ڤايس، فإن فيدرن لم يعترف علناً أبداً بأسبقية تاوسك في مفهوم (حدود الأنا)، وهذا ينبع من غضب فيدرن بسبب تحرشات تاوسك بزوجته فيلما Wilma.

٦١- إدوارد ڤايس: «مفاهيم فيدرن وإمكانية تطبيقها في فهم وعلاج الفصام» The Journal of Nervous and Mental Disease, Vol. 133, No.2. August 1961. PP155- 60.

٦٢- إريك إريكسون: «الهوية: الشباب والأزمة»

Norton, NewYork, P.9

٦٣- إديث جاكوبسون: «الذات وعالم الأشياء» NewYork, 1964, Pxi

٦٤- ڤايس: «بنية وديناميات الذهن البشري» Pxiv

٦٥- Minutes, II, 388

٦٦- المرجع السابق PP297, 379

٦٧- «خطوط التقدم في العلاج التحليلي»

tandard Edition, Vol.17, P165

٦٨- تاوسك: «الاعتبار التشخيصي لعلم أعراض مايسمى بذهانات الحرب». The Psychoanalytic Quarterly, Vol. 38, 1969

٦٩- المرجع السابق.

٧٠- ڤيتلز: «سيغموند فرويد».

٧١- جونز: «حياة فرويد».

٧٢- تاوسك «حول أصل «الآلة المسيطرة» في الفصام». "On the origin of the "Influencing Machine" in Schizophreuia وقد طوّر ساخس هذا المفهوم في كتابه «تأخر عصر الآلة».

٧٣- «اللاشعور» tandard Edition, Vol.14, P.197

٧٤- انظر: غوردون غلوبس وريتشارد بيلارد: «الآلة المسيطرة» عند تاوسك وكافكا في «المستعمرة الجزائية» American Imago, Vol. 23, No.3, Fall 1966, P191- 202

٧٥- برونوبيتلهايم: «جوي: صبيّ آليّ».

**-الخاتمة:**

١- تاوسك: "Ibsen, The Druggist" P. 141

٢- حول الأدب المنشور عن تاوسك منذ ظهور «الأخ الحيوان..» انظر مقالتي الصادرة في خريف عام ١٩٧٢

"Ethos and Authenticity in Psychoanalysis



# الفهرس



٢٠٠٠ ط١/١٠/١٩٩٨





ننسى عندما نتحدث عن الشخصيات التي كان لها تأثير ما في مجرى التاريخ الانساني، السياسي منه والثقافي على حد سواء، من أمثال نيتشه، فرويد... (وعندنا منهم عدداً لا يستهان به) ان لكل من هؤلاء تاريخاً عاطفياً وحياتياً خاصاً قد يذكر أحياناً كل منا بماضيه الخاص.

كتابنا هذا يُجمع، عبر حديثه عن علاقة فرويد بأحد الأطباء من مريده وهو فريدريك توسك ١٨٧٩-١٩١٩ عن علاقات شخصية يجمعها حول محورين:

المحور الأول: لو اندرياس سالومي المعروفة بجمالها وتأثيرها على الرجال: فمن عشاقها نيتشه، ريلكه، توسك... وفرويد الذي قرر ألا يقع في شباكها.

المحور الثاني: انتحار توسك الذي يكشف عن علاقة فرويد بالمريدين الأوائل الذين تجمعوا حوله وكلهم من الأطباء. ومع ذلك فإلى جانب التعاون، التحاسد والتنابز والعلاقات المتوترة.

العنوان الأصلي للكتاب (الأخ الحيوان) يشير الى ان كل منا نحن البشر رواسب عديدة من وراثتنا الحيوانية ينم عن سلوكنا الغريزي كما يكشف عنها علم النفس التحليلي.

الكتاب هذا درس في التواضع.

طُبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٨

| سعر النسخة داخل القطر | في الأقطار العربية ما يعادل |
|---|---|
| ١٥٠ ل.س | ٣٠٠ ل.س |